

50

کتابی

هنری بوردو



# الابن الضال

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

المؤسسة العربية الحديثة

طبع و نشر في بيروت

1999/95 - 1999/95

طبعة 1999

محمّد



# الابن الضال



**Looloo**

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

## القسم الأول

### ١ - حصاد الكروم

من قمة التل الصغير ، ارتفع صوت مسيو « غرانسوا روكتيار » يخاطب حاصدات العنب اللواتي انقشرن على طول الطريق المنحدر ، يخففن الكروم من أثقال عناقيدها السوداء :  
« لقد اقبل الليل ، فهيا إلى جولة أخيرة » .

قالها صاحب الضيعة في صوت رقيق — ولكنه آمر — بعث النشاط في الأيدي ، وأحلى من جديد ظهور العملات المتباطلات .. فاذا بهن قد اقبلن على العمل ! .. ثم أضاف السيد في لهجة مرحة : « انهن في الصباح أكثر خفة ورشاقة من العصافير ، فاذا اقبل العصر تحولن إلى ثرثارات ! » .

واستثارت هذه الملاحظة ضحكهن جميعا ، فأجبن في صوت واحد : « أجل ، أيها السيد المحامي » .

لم يكن صاحب مزرعة « البرج » يخاطب من فلاحيه إلا بهذا اللقب . وكانت المزرعة ضيعة جميلة تتألف من قطعة واحدة ، مزرعة بالشبابات والحقول والكروم ، تقع في أقصى مقاطعة ( كوتيان ) ، على مسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات من مدينة ( شلمبيرى ) ، ويمكن الوصول إليها بالمسير في طريق زراعى وعبور قنطرة قديمة قائمة على نهر ( الأيس ) الذى ينبأ

المنخفضة . وهي تطل على الطريق المؤدى إلى مدينة (ليون) ،  
الذى كان فيما مضى يربط مقاطعة (الساووا) بالأقاليم  
الفرنسية المجاورة ، عبر صخور (إيثيل) المنحوتة . وقد  
أطلق عليها اسم مزرعة «البرج» نسبة إلى برج قديم كان  
يتوج قمة تلك الصخور ، ولم يبق منه الآن أى أثر . وتلك  
المزرعة منذ قرون عديدة أسرة «روكيار» التى دأبت على  
توسيع رقعتها شيئاً فشيئاً ، كما يدل على ذلك المنزل الريفي  
المقام فيها ، وبساتين المبانى التى تتكون من وحدات وحجرات  
غير متجانسة ، وإن كانت «معبرة» ، كوجه الشيخ الذى  
تتلخص في تجاعيده حياة بأكملها . . . فهنا يمثل ماضى  
أسرة عريقة ، وفيه لأرض الآباء والأجداد . وقد كان آل  
«روكيار» جميعاً ، أباً عن جد ، من رجال القانون . فكان منهم  
نقيب المحامين ، وقضاة ، ورؤساء لمجلس الشيوخ الإقليمى  
القديم . . . كما كان منهم مستشار في محكمة الاستئناف الجديدة  
بلغ به تعلقه بوطنه ، وحرصه على أن يموت في مسقط رأسه ،  
حدا جعله يرفض كل ترقية . . . ومن هنا درج أهل البلدة  
على اعتبار أسلاف «روكيار» جميعاً - بلا تفرقة - من  
المحامين ، مستعدين من تسميتهم هذه معنى الحياة ! وقد زاد  
من جدارة المالك الحال للضيعة - مسيو «فرانسوا روكيار»  
- بهذه التسمية ، أنه مارس مهنة المحاماة زهاء أربعين عاماً ،  
اكتسب خلالها المأما دقيقاً بالقانون ، ولساناً ذرياً بليفاً في  
الدفاع !

وكانت كروم العنب متراصة في صفوف منتظمة تجعل  
همة الإشراف على الحصاد سهلة . وكان اللون الذى اصطبطت

به أوراق الكروم ينبت بحلول شهر أكتوبر . وفوق التلال  
يعدت الأرض أقوى ضياء في مواجهة السماء المشاحبة . ومن  
خلال الأغصان الوضاعة ، كانت عنقايد العنب القائمة تسرع  
الالتفات . وكانت حاصدات العنب وهن يسرعن الخطى ، وقد  
شهرن في أيديهن السكاكين المخضبة بدماء العناقيد ، بشبهن  
الكهنة الذين يعالجون الذبائح بضربة قاضية مفاجئة . .  
فإذا ما هوت العناقيد تحت ضرباتهن ، القين بها في السلال .  
وكن جميعاً يرغفن ملايسهن ويثبتنها إلى الخلف لتسهيل عليهن  
الحركة فوق تلك الأرض الرخوة ، وقد عصبن رؤوسهن  
بمناديل تقيهن حرارة الشمس . وبين وقت وآخر ، كانت  
الواحدة منهن تنصب قامتها فتبرز فوق مستوى الكروم ،  
كالسكة التى تقفز فوق سطح الماء لتتنفس قليلاً ثم تنفوس  
في جوف الماء من جديد . وكانت بينهن عجائز مقويات  
الظهور ، مجمعات الوجوه ، بطيئات الحركة ، يلبسات  
الأجسام ، ومع ذلك فقد كن يمتدعن بقسوة على القمح ،  
وبيقظة واعية لكن ما كان يدور حولهن ، حرصاً منهن على  
الحفاظ بآخر فرصة لهن في العمل بعد أن لم يعد يستخدمهن  
أحد .

كما ضمت صفوف الحاصدات فتيات في نحو العشرين  
أكثر انتصاباً في القامة وخفة في الحركة من الأخريات ، وقد  
عرضن - بلا خوف - وجوههن وسواعدهن عارية لوهج  
الشمس الذى راح يلثم بشرتهن . وكانت هناك - إلى جانبهن -  
صبيا لم يكمل نموهن بعد ، هن أقل حظاً من العمل ،

يقفون من مكان إلى مكان ، فيحدث اضطرابا في الصفوف ، أو يجلسن في دعة وهذوء وقد غمرتهن غبطة التلميذات الصغيرات في الأقسام الداخلية من المدارس ، حين يسمح لهن بالخروج في يوم العطلة المدرسية ، وقد انتبت أعطافهن أثناء أقصان الكروم الرخصة في أيديهن !

وأخيرا كان هناك صبية صغار سرحتهم أمهاتهم من البيوت ليسترحن من شغبهم وضوضائهم ، فجاءوا إلى الحقل يبعثون فيه نسادا ، ويحصدون العنب ولكن لحسابهم الخاص ! فكانوا يأكلون ما يحصدون ، ويلطخون به ثيابهم وخدودهم ، كسكارى ماجنين .. ولكن قبل الأوان !

\*\*\*

وفي الطريق الذي يتوسط المزرعة ، وقفت عربة شدة إليها ثوران كبيران أشقران ، لهما قرنان انتصبا على شكل قيثارة .. وكانت هذه العربة تنتظر - في صبر - ساعة الملائحة إلى المعصرة ، بعد أن حملها الزراع بها بفوق طاقتها من اكاداس العنب .. ولم يكن هؤلاء الزراع يغرقسون في الضحك كالثقيات ، وإنما اكتفوا بتبادل بعض العبارات والإيضاحات المختصرة . وكان الصغار منهم يضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء ، ويرتدون ثيابا من القيل لا تعوق حركاتهم « على نسق زى صيادي جبال الألب الذي انتشر بين فتيان إقليم ( السافوا ) بدافع المحاكاة .. ويعد أن انفض القوم عصا خشبية صلبة في أذن الوعاء الطافح بالعنب حتى حافظه ، تعاونوا جيعا على رفعه إلى اكتافهم ، وساروا به في

خطى خفيفة مترنة ، حتى رفعوه فوق العربة ، التي وقفت على سطحها شيخ مسن ذو لحية بيضاء ، أخذ يضبط بيديه القوتين العنب الذي أنعم به الوعاء . وبين آوثة وأخرى كان ينصب قامته ، فيبدو يداه في شكل يبعث على التقزز ، وقد تخضبتا بدماء العنقايد .

وفي مواجهة مزرعة « البرج » ، كانت أطياف المساء قد بدأت تغزو تلال ( قيمين ) و ( سان سويليس ) القريبة من سلسلة جبال ( ليبين ) التي كانت تستقبل الشمس الغاربة .. بينما بدا - إلى أسفل - وادي ( سان تيو ديوكو ) ، وادي ( ايشيل ) التمرجان ، وأغرق ضياء الفروب الكرم بأصبغ من الأرجوان والذهب ، تكشف حاصدات العنب في صفوفهن المترامية ، وأحاط بهالاته رؤوسهن المتشحة بالمناديل ، وراح يقرقص على قرون الثيران ، وأضرم « النار » في لحية « خولي الضيمة » القبراء ووجهه الأحمر ، وهو واقف فوق العربة .. كما أضاء وجهه مسيو « روكفير » الذي بدامقلنسا بالحويوة تحت حافة قمعته . وإلى أعلى ، انعكس الضياء على مرج « مونتايول » الشامخ ليرتقى أخيرا الأمر في جارة « روجسا صخرة ( مونت جرانبيه ) ذات الشهرة الخرافية القديمة .

وكانت العاملات قد تجمعن حول بعض الكروم الباقية يقطفن عناقيدها الأخيرة . ولم يكد الوعاء الأخير يرفع إلى العربة ، حتى صاح الشيخ المسن « جبريس » من فوقها متهللا : « ها نحن قد انتهينا أخيرا يا سيدي المحامي » .. فسأله السيد : « كم بلغ عدد العربات ؟ »



— اثنتا عشرة .

فقال : « إنها سنة طيبة » . وأردف ، وقد بدأت الثيران سيرها ، تتبعها جموع العاملات : « غلامى أنا بدورى ! » . وبلغت العاملات قمة التل وهن يحملن سلالهن في أذرعهن وسكاكينهن أو مناجلهن في أيديهن . . . وهناك ، احطن بمسيو « روكفيار » ، الذي غرس عصاه الحديدية في الأرض ، وأخرج من جيبه كيسا صغيرا تناول منه قطعة من النقود النحاسية والنفضية . . . فكنت من كانت تتكلم منهن . ولذن جميعا بالصمت . . . كانت لحظة لها رهبة خاصة . . . لحظة توزيع الأجور !

وخلف الجمع الحاشد ، كانت الواح من الزجاج واسطوخ من الأردواز تعكس — كالمرايا — آخر ومضات الشمس الغارية . . . وأخذ صاحب الضيعة ينادى كل عاملة باسمها المجرى في غير ما كلفة . . . فقد اعتاد رؤية المسلمات منهن طوال حياته ، كما عرف الأخريات منذ حداثتهن . وأقبلن جميعا يتسلمن أجرهن بومهن ، مشغوعا بكلمة رقيقة منه كن يجنيه عليها يقولن : « شكرا يا سيدى المحامى » . . . أما إذا صادف عاملة منهن أظهرت كسلا أثناء العمل ، فإنه كان يخصها بكلمة توبيخ ، تخفف من وقعها لهجته الرقيقة ، كي يظهر لها أن عين السيد يقظة لا تغفل ! . . . ومع أن الأطفال كانوا يتقاضون أجرهم عينا — من العنب — فإنه لم ييخل عليهم أيضا ببضعة دراهم تدخل السرور على قلوبهم .

\*\*\*

وقال مسيو « روكفيار » مداعبا ، أثناء انهماك في دفع الأجور : « فلتلزم اللواتي قبضن أجرهن ناحية اليسار حتى لا يخلط على الأمر فأكرر الدفع إلى ما لا نهاية ! » . . . فأجابته فتاة حسنة في نحو الثامنة عشرة أو العشرين : « لا ضرر في ذلك على أية حال ! » . . . ولم تكن تلك الفتاة تغطي رأسها كزميلاتها ، وكأنها كانت تتحدى بشبابها حرارة الشمس . . . وقد تدلت على جبينها خصلات من شعرها الأشعث ، ونمت سمات وجهها على أنها من طبقة العاملة . . . غير أنها كانت موفورة الصحة ، ذات هم بالغ الاتساع ، وعينين هادتين ، وبشرة ذهبية في لون حبات العنب البيضاء المتلونة ، التي صيرتها الحرارة شقراء ، والتي بدت كما لو كانت ملمعة بأكسير الشمس .

وحدها مسيو « روكفيار » بنظرة فاحصة ، ثم قال لها : « لكم ثمرعرت بسرمة يا كاثرين ! . . . فمتى تتزوجين ؟ » . . . فارتج القول على الفتاة إزاء هذه المفاجأة العلنية . ثم لم تلبث أن أجابت وقد أحمر وجهها سرورا : « هذه مسألة تحتاج إلى تكبير ! » . . . فضحك السيد وأردف يقول : « إنك ترويقن للمعين على كل حال يا كاثرين » . . . ونفحها بقطعة من النقود شفعها بهذه النصيحة في لهجة حازمة : « كونى عاقلة ابتها الصغيرة فإن الفضيلة أهم من الجمال ! » . . . فابتعت على قوله بغير إبطاء : « هذا صحيح يا سيدى المحامى » .

وبعد أن فرغ مسيو « روكفيار » من عملية دفع الأجور ، نظر إلى الجميع متسائلا : « امسرورت انتن جميعا ! » . . . وإذا

بعشرين صوتاً تجيبه معاً بكلمات الشكر . وهنا أشار طفل بأصبعه إلى امرأة عجوز انفتحت مكانها قصياً في خجل وانكسار ، وقال : « ها هي ذى مدام فوشوا ! » .. ولم يأتِ أحد لإشارة الطفل ، وكان العجوز لم تؤد عملاً تستحق عليه أى أجر . بينها استأنف مسيو « روكفيار » حديثه إلى العاملات — قائلاً بصوته اللطيف : « والآن أسعد الله مساعكن . سوف تصلن إلى ( سان — كاسان ) و ( غيمين ) قبل هبوط الظلام » ، فرددن عليه قائلات : « أسعد الله مساءك أيها السيد المحامى » .

وقف السيد « روكفيار » في مكانه يرقب حاصدات العنب وهن يتعدن ، وقد أخذت ظلالهن تتصاعل — أمام الشمس الغاربة — حتى ثلاثت تماماً ، بينما ظلت أصواتهن تتصاعد إليه من أسفل التل .. ثم انقسمن إلى فريقين : فريق اتجه إلى ( غيمين ) ، والآخر إلى ( سان — كاسان ) .. وراح هذا الفريق الثانى يردد الأناشيد والأغاني الريفية الشائعة .. وكانت الشمس المحضرة قد لامست الجبل فى تلك الأثناء .

أما المرأة العجوز — « مدام فوشوا » — فقد ظلت واقفة إلى جانب السيد ، لا تتحرك أو تطالب بشئ ، فناداها باسمها قائلاً : « بيريت ! » .. وإذ ذاك مالت برأسها إلى الأمام ، نبذا وجهها وقد ارتسمت عليه دلائل الألم والقلق أكثر مما ارتسمت عليه تجاعيد الشيخوخة ، وتمتعت تقول : « مسيو فرانسوا .. فأجابها : « هاك مائة درهم خذها واذهبى لتناول الحساء فى المنزل » .. فنظرت العجوز إلى الدراهم

البيضاء فى يدها الخشنة ، وقالت : « لكن هذا أجر ثلاثة أيام ، وليس لى سوى أجر يوم واحد ! » .

— لا بأس . خذها ! وكيف حال ابنتك !

— لقد سافرت إلى ( ليون ) .

— وهل وجدت عملاً هناك ؟

فكرت العجوز ذراعيها تسقطان إلى جانبيها ، ولم تحر جواباً .. فعاد السيد يسألها : « لكنها يجب ان تعمل » .

— إنها لا تستطيع العثور على عمل منذ قضى عليها ..

بأنها لصة !

— فأجاب المحامى ، محاولاً أن يلتبس للابنة عذراً مخففاً :

« إنها قد ارتكبت فعلتها بدافع الطيش والاستهتار والغرور .. إنها ليست شريرة بطبيعتها ، وفى مثل سنّها يمكن إصلاحها . ولكن من أى مورد تعيش الآن ؟ » .

— من أى مورد تريدها ان تعيش ؟ .. من الرجال الضالين !

— وكيف عرفت ذلك ؟

— لقد أرسلت إليها فى الأيام الأولى من محنتها حوالة بريدية بمبلغ صغير لمساعدتها ، ولكنها ردتها إلى مرفئة بحوالة أخرى بمبلغ كبير .. فما كان منى إلا أن أحرقتها !

— ماذا أحرقت ؟

— أحرقت المال الذى جاء ثروة العار يا سيدى فرانسوا !

وهنا انتصبت قمة الفلاحة العجوز من الغضب ، ورفعت يدها إلى السماء مهنددة « كما لو كانت تنهى القدر » واستطردت

— بل قل لىق عتقها !

— وانت ، هل ما زلت تحببها ؟

— إيتها أبنتى !

— خفى عنك يا بىريت ، ولا تستسلمى لليأس ، فان الأمل لا يضيع طالما ظل الإنسان على قيد الحياة . هيا عودى إلى المنزل ، فانى ذاهب إلى المعصرة لأرى إن كانت الدنان قد وصلت سالمة !

— شكرا يا سيدى فرانسوا

\*\*\*

وكانت المرأة قد اعتادت القيام ببعض الأعمال في مزرعة « البرج » كغسيل الملابس ، وحصد العنب ، والعمل في المطبخ في غياب الطاهى . ولم يبادر مسيو روكنيار إلى الانصراف بعد ذهابها ، بل راح — بنظرات المحب الواله — يتأمل الأرض المنبسطة تحت قدميه .. ويرى الكروم وقد جردت من عناقيدها التى كان يجد في عصيرها لينة الأرجوان والذهب .. ويرى البروج والمراعى التى حصدت مرتين .. وذلك المجرى الصغير المجهول الاسم ، الذى كان يفصل بين مقاطعتى ( كونيان ) و ( سان — كلسان ) .. وغابات البلوط والزنان التى بحت تحت سماء الخريف أشبه بباقية باهتة ..

ولم يكن يقرأ على صفحة هذه الأرض — المتباينة الزرع — قصة تعاقب الفصول ، وإنما راح يقرأ تاريخ أسرته : فهذا الحقل اشتراه جده « فلان » ، وذاك الكرم زرع جد آخر ..

تقول : « لمست أعرف كيف أنجبت هذه الابنة ! .. لم يكن في أسرنا سوى أناس شرغساء ، أما الآن فان الخزى يغمرنى ! »

— لكنها ليست غلطتك يا بىريت !

فهزت المرأة رأسها ، وأجابت في لهجة التوكيد : « إنها غلطة الأسرة دائماً ! وانت أول من يعرف ذلك جيداً ، لأنك أنت الذى قلت هذا ! » .. فقاطعتها مقتاتلاً في دهشة : « أنا ؟ » .. فقالت : « أجل ، أنت . قلته لها أبى قبل صدور الحكم عليها . فلقد كان القلق يساورنى من ناحيتها ، فجلت بها إليك ذات يوم . »

— أذكر ذلك .. وماذا قلت لها ؟

— لقد قلت لها إنه إذا أتحت للإنسان فرصة الانتها ، إلى أسرة شريفة ، فعليه أن يصون هذه النعمة باحترام كرامة الأسرة ، إذ جرت العادة في الأسرات على أن يتقاسم جميع أفرادها الخير والشر .. وثمار الخلق الطيب ، وتبعات الخلق الموحج !

— ولكن احدا لا يستطيع إلقاء تبعه تصرفات أبنتك على عاتقك .

— ولكن الناس يحملوننى التبعة برغم ذلك .. ولهم العثر ، فقد شاء القدر أن يموت زوجى وهى ما زالت صغيرة .

— لو كان زوجك حيا لدافع عنها !



إنه قد يضيف إليها بعض التعديلات المميزة فحسب ، كبيت ينبعث من سطحه دخان يوحي بأنه مأهول ويثير في النفس الحنين إلى الدفء ، أو طريق ، أو سياج ، أو ناقوس يدعو بدقاته إلى الصلاة !

والى جانب شعور السيد « روكميال » - في وحدته تلك فوق التل - داخله ارتياح انبثقت عن اتصاله الروحي بأسلافه ، فأحس بها كان لهذه البقعة من قيمة في الماضي السحيق . وصرح بصره ، فإذا بسلسلة جبال ( ليبين ) في مواجهة ، وقد حنت بها حمرة الشمس الأملنة ، وقطعت استرسالها الرتيب مرتفعات ( ستيال ) . وانحدر بصره إلى السهل . فانطلق لحظة مع طريق ( ابشيل ) البديعة ، التي كانت السفوح الدنيا للجبال تحف بها وكأنها تحرسها . ثم صعد بصره إلى التلوات البارزة في جبال ( كوريليه ) و ( جواني ) و ( جرائيه ) ، ليرتد من جديد إلى التلال القريبة ، والوديان المتدرجة ذات التمرجات المتناسقة . وتمثل الرجل صفات من أسلافه في هذه الطبيعة المتباينة التي تصور الجيروت آنا ، وتصور الخمول آنا آخر . فهي - من ناحية - تمثل بسالة جده الذي وهب نفسه للجيش في عهد الثورة . . وهي ، من ناحية أخرى ، تصور له ترهل أبيه الذي أوشك أن يعرض هذا التراث المقدس للضياع ، باستسلامه لحياة الدعة !

وأخذ يحدث نفسه : « لن يستطيع أحد أن يستوعب مثلي روعة مغيب الشمس عن هذا المكان . » وسوف ينطلق إلى هذه

وهو ، ألم يتجاوز حدود المقاطعة ، كي يضيف إلى المزرعة هذه الأشجار الكثيفة التي حان قطافها ؟ . وإذا استدار إلى مباني المزرعة ، تعرف على الكوخ القديم المتواضع الذي بناه الفلاحون الأوائل من أسرة « روكميال » - والذي أعيد ترميمه بعد ذلك مرارا - تقارنته بمسكنه الراسخ الدائم ، الفسيح ، الذي يزينه كرم مزدهر بكر . . في هذه البقعة ولد أسلافه وعاشوا ، وفيها يعيش الأحفاد الآن ، وقد زادهم قوة - من الفاحيتين المادية والعنوية على السواء - ماض عريق من الشرف ، والعمل الدؤوب ، والمال المخز . وأشد اعتزازه بنسبه وهو يكرر لنفسه العبارة التي قالتها له العجوز « غوشوا » منذ لحظات : « إنها غلطة الأسرة دائما ! » . . لقد امتدت أسرته البلاد برجال اكفاء في أداء الواجب العام ، وفي إدارة شؤونهم الخاصة على السواء . وهكذا تدعم الأجيال المتعاقبة بعضها بعضا من أجل رهاية الجميع ! . . أو لم يعد له أجداده الأقدمون الطريق ؟ . ولقد اشتبهوا قبله أن يتلوكوا هذه الأرض التي يطوها الآن يسير . . وطلب لبهم هذا الأفتي الذي يحتويها بين أحضانها !

وأحس بشيء من الألم وهو يرد طرفه عن أملاكه ، ليتأمل من جديد ما كانوا قد راوه قبله من مجموعة الخطوط والألوان التي يتألف منها المنظر ، والتي تركزت فيها مشاعرهم ، كما تتركز فيها مشاعره الآن ! . . ذلك أن المزروعات تستطيع أن تغير من شكل الأرض ، بينما يعجز الإنسان عن أن يحدث فيها أي تغيير . . لا في صبغتها ، ولا في مدى اتساع رقعتها .

الروعة - بعد موتى - أحد أولادى .. أولادى الذين  
سيواسلون أداء الرسالة ، ويكونون ذرية صالحة ! »

\*\*\*

وعلى ضوء الماضى ، أخذ يستعرض المستقبل فى ثقة  
راطينان ، فلم يظن فى استغراقه إلى امرأة غادرت المنزل  
وأخذت تسعى إليه .. وكانت امرأة متقدمة فى السن ، تضع  
على كتفها شالاً قاتماً ، وتكئ على عصا ، وقد بدا عليها  
الإعياء الشديد . وكان وجهها - الذى انعكست عليه ظلال  
المناء - يوحى بما كانت عليه فى شبابها من جمال أفلته  
السنون دون أن تفقده سمات الطهر والبراءة التى كانت تأخذك  
منه فى البداية ، ثم تجتذبك ! .. كان ذلك الوجه صورة حية  
لنفس مستقيمة مبرأة من كل شر ، ونزعة إلى التصوف !

وسالت « مدام روكنيار » - إذ كانت هى العادة - زوجها :  
« ألم يصل الأولاد بعد ؟ » .. فأجابها : « ها هم أولاء  
تادمون يا مالتين » . وكان الزوجان يعنيان أولادهما .  
وأشار الزوج بيده إلى جمع غفير يصعد الطريق من أسفل  
المحدر ، وعلى رأسه طفلان تعرفت عليهما جنتهما ، فقالت :  
« ها هما بيري وأدريين ، يسلكان الطريق المختصرة . ولكنى  
لا أرى الصغير جوليان ؟ » .

- لا بد أنه ممسك بيد عمته « مرجريت » ، فهو لا يتركها  
مطلقاً .

- هذا صحيح ، فإنى المحـ بين مرجريت وخطيبها - أن  
هذا الخبيث يفصل بينهما ! .. وأمه ، أين هى ؟



فلم يظن فى استغراقه إلى امرأة غادرت المنزل وأخذت تسعى إليه .. وكانت

— إنها تسير خلفهم ، في تودة كعادتها ، وبجوارها أخوها « هوبير » .

— وأبنا الأكبر : هل يمكنك أن تميز الموسام الذي يحل به صدره ؟

فابتسم السيد « روكفيار » ، والتفت إلى زوجته قائلا : « كيف تريدني أن أميزه من هذا البعد ؟ .. مضحكت زوجته بدورها في سباحة ، وأردفت : « هناك شريط أحمر كبير يصعد الجبل » .. فقال الزوج مزاحا :

— ولعلك ترين على صفحة السماء هذه العبارة : « هوبير روكفيار : ٢٨ سنة ، ضابط في مشاة البحرية ، انعم عليه بوسام البسالة في الحرب ، مرشح للترقية . وقد اشترك في حملة الصين والدفاع عن بيبانج » !

فالت الزوجة في تأكيد : « إنني أترؤوها بوضوح ، دون ريب ! » .. ثم نظرت من جديد إلى الطريق بعين فاحصة وتساءلت : « وموريس ؟ لست أرى موريس » .. فأجابها : « إنه يسير في المؤخرة على ما أظن » مع شخص آخر . فوضعت مدام روكفيار يدها على كتف زوجها في ارتياح وأردفت : « لعله شارل مارسيلاز ، زوج ابنتنا . لقد اكتبل غددهم .. إنني أراهم الآن وأحسبهم كما كانوا صغارا : جيرمين ، وهوبير ، وموريس ، ومرجريت ... » فقاطعتها زوجها : « لا ينقصهم غير فيليبى التى نفتقدها دائما » .. وغامت على وجهه سحابة من الكآبة .. فهو لم يكن قد ألف

بعد غياب ابنته الثانية « التى عبرت البحار لتكون راقصة تنقف حياتها على العناية بالمرضى الفقراء في مستشفى (هاتوي) بالصين »

وانكأَت الأم بقوة على كتف زوجها وقالت : « كلا يا فرانسوا .. إنها ليست بعيدة عنا » فبى معنا بروحها . إننى موقنة بذلك ، وأحسه . لقد قابلها هوبير قبيل عودته من الصين فوجدتها سعيدة .. وسأتى يوم نلتقى فيه جميعا ! .. فلم يشأ الرجل أن يترك لمواطنه العنان أمام زوجته « بل قال مقبرا مجرى الحديث : « إنه ليس شارل الذى يسير بجوار موريس .. إنها امرأة . ولقد تركا الطريق المختصرة ليملكا الطريق الطويلة » .

— لعلها تكون مدام فرازن . هل ترى زوجها ؟

— نعم ، إنها هى .. ولكنى لا أرى زوجها . وفق العقود :

— إنه سأتى مع شارل بعد قليل ، فان عليهما يعوقهما حتى الساعة السادسة .

— إن فرازن وزوجته سيتناولان العشاء هنا الليلة ، ليس كذلك ؟

— نعم : فلقد سألنى موريس ان أدعوها للعشاء لأنه طالما دعى عندهما .

ولاذ الاثنان بالصمت برهة « وقد اعتراهما قلق واحد مشترك .. ! ثم قطعت الزوجة حبل الصمت قائلة : « إننى

لا أحب هذه المرأة ! .. ودهش الزوج ، لا من الملاحظة ذاتها ، وإنما لصورها من زوجته التي كانت بطبيعتها أنوثيا حيا للسباحة ! .. فسألها - بدلا من أن يقر كلامها : « لماذا ؟ » .. وحدثت مدام روكنيار - بميتها الصانيتين - الشمس الغاربة وأجابته : « لست أدري لماذا .. فإن أحدا لا يعرف من أين أتت ، وإني لأرتعد عندما أفكر في المدى الذي تنوى أن تمضي إليه .. إنها ليست جميلة ، ومع ذلك فإن مجرد النظر إليها يكفي لإثارة قلق الأمهات على أولادهن ، والزوجات على أزواجهن ! » .

— هذا يدعو للراء ! .. من الذي حدثك عنها ؟

— لم يحدثني عنها أحد ، ولست أعرب إلا عما يخافني . إن الذين يسرعون في الصلاة ليوافقوا أكل الناس دراية بهذه الأمور إن لهذه المرأة عينين غريبتين ، سوداوين ، شحبه منهما لهب ! إنها تخيفني !

— « صحيح ! إن أهل المدينة يتحدثون عنها وعن ابنتها .

— يجب أن نفيه مورييس .. أن نخذره بلا إيذاء !

— وكيف يا عزيزتي ؟ .. لسنا متأكدين من شيء على وجه التحديد .. إنها شائعات ، فما قيمة الشائعات ؟

— إنها ليست شائعات ، فأننى أكاد المسها . إن ابنتنا في خطر !

فقال السيد روكنيار : « إن بعض العواطف قد تزداد تدعما إذا نحن كافحناها ! ولعلك مقتنعة بذلك ، وإلا ما وافقت

مورييس على دعوة الزوجين - ثم أن الشبان لا يطبقون مثل هذا التدخل في حياتهم ، لا سيما وأن مورييس دكتور في القانون فهو شديد الاعتداد بنفسه ، والتعلق بنظريات سخرية عن حق الإنسان في السعادة ، وفي أن يكون حرا في تنمية شخصيته ! .. إن مارييس تثقهم ، ولكنها تبث الثورة في نفوسهم ، فلا بد لهم من التجارب حتى يتمتعوا ويترنوا » .

— إذن فقد كان هذا الأمر يقلق بالك ، دون أن تحدثني عنه !

— ولماذا أثير شجونك وحزنك . وقد ضعفت صحتك .

— أجل ، يجب أن أقوى . إذ لابد للام من أن تكون قوية .

على أن لديك أنت من القوة ما يكفي كلينا !

— لقد أخطانا بوضعه في مكتب الأستاذ فرازن ! على أنني

أردت أن أتبع له فرصة الإمام العملى بالقضايا ، لا سيما ما

يتعلق منها بالوراثة وتصفية الممتلكات ، قبل أن يتخذ لنفسه

مكتبا مستقلا .. ولما كان الأستاذ فرازن هو خليفة الأستاذ

كثيرمال ، الذى كان صديقى ، كما كان موكلا بمقود أسرنا ،

نقد حرصت من جانبى على احتسرام أحد تقاليد الأسرة ..

ولكننى أخطأت ! على أن كل شيء لن يلبث أن يتغير عما قريب ..

وتساءلت في دهشة : « عما قريب ؟ » ، فقال : « أجل ! ..

سأخذ مورييس في مكتبى حيث .. »

على الإجراءات القضائية لدى مارسيلاز - وسأنتبه بهذا بمجرد استقرارنا في المدينة .. فتشبت على يده قاتلة : « لا بأس . فبهذا نقل فرص مقابلته لها ! ولكن هذا لا يكفي . غائت ثراه ميلا إلى العقل والمنطق ، أما أنا غراه خياليا عاطفيا - وبودى أن اشغل خياله ! » - فتساءل الأب : « وكيف ؟ » .

— بان أدبر له خطبة مبكرة مثلا . فان الخطبات الطويلة الأمد تشغل الشبان وتذكى وجدهم .. إننا في غرتنا نتعجل الزواج ، في حين أنه أمر وثيق العلاقة بالحياة رب الأسرة وبالمستقبل !

— هذا صحيح .

— ولقد فكرت مرجريت في « جان ساسيناي » الشاب .  
نقال السيد روكفيلار : « ولكنها طفلة ؟ » ، فاجابت :  
« طفلة جبيلة نشأت في أحضان أم قديسة ! » .

\*\*\*

وقطعت عليها الحديث صرخات الصغار : « مساء الخير يا جدتي .. مساء الخير يا جدى ! » .. كانت طليعة الأولاد قد وصلت ، مؤلفة من «بير» و « أدريين » اللذين راحا يلعبان تعباً ، بعد أن تسابقا في العدو ، برغم صيحات مدام روكفيلار :  
« لا تجريا بهذه السرعة ! » . وتلقاهما جددهما بين ذراعيه .  
نقالت « أدريين » في جراءة ودون ما كلفة ، شائها مع الجميع :

« لقد آثر جوليان البقاء مع عمى مرجريت ، برغم أن أمى أوصته بأن يصحبنا ! » .. وما لبث الشبان الذين صعدوا السفح أن صاحوا بدورهم : « مساء الخير ! » .

ولم يتخلف عن المساهمة في هذا اللقاء العائلى سوى « مورييس » و « مدام فرازن » اللذين كانا ببعدة ، وقد أخذتا يعتمدان الإبطاء - كلما اقتربا من القمة - لينظلا على مسافة طويلة من بقية الجماعة . برغم أن مرجريت استدارت عدة مرات لتناديها . وحجبت نهاية منسرج الطريق الجبل ، إلا أن مورييس والمرأة استطاعا أن يلحما السيد روكفيلار وزوجته ، فوق القمة ، وقد انتصيا كليتين في الفضاء ، وإذ ذلك الوقت المرأة نظرة ذات معنى على زميلها - الذى اهتجت الخلوة لواعجه - وقالت : « لا بد أن أباك كان أجمل منك ! » ، ثم عقت بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها : « إنه يعرف بغيته وكيف ينالها ! » . فتضايق مورييس ، ولكنه رمتها في صمت ، فابتسمت لفيظه وتساءلت : « كم عمر أباك ؟ » .

— ستون عاماً على ما أظن !

— ستون عاماً ! .. إنه يبفضنى ، ولا يحجم من القضاء على إذا شاء !

— تخطئين الظن ، فهو يحسن استقبالك دائماً .

— هذه أمور يحسها المرء في قرارة نفسه .. إنه يكرهنى ، ومع ذلك فهو يعجبنى ! إننى أحب الرجل ذا الشخصية !



ودارت بهما الطريق قبل أن يبلغ منتهاهما ، فكشفت لهما عن منظر جديد كانت تحده من اليمين رمال ، ومن اليسار أشجار حال لونها فاصبحت مزيجاً من خضرة الربيع وصغرة الخريف الذهبية .. ولاح لهما فجأة جبل ( نيفوليه ) بقوامه البديع المتناسق ، وقد انعكست عليه فلول أشعة الشمس الأملّة .. واصطبغت الأعشاب النخيلة - التي تسلفت الصخور - بلون بنفسجي كلون الرواسب المظلمة في التيذ ، كما تبدت في المؤخرة سلسلة جبال ( مرجيريا ) وقد اكتست بحيرة وردية فاتنة ، فتميم موريس مأخوذاً : « أريت كيف تغير المنظر ! » .. ولم يغفل إلى أن صاحبه كانت أكثر احتقالا بوجدتها منها بجبال المساء البديع .. وما لبثت أن توقفت عن السير ، فالتفت إليها قائلاً : « ماذا دهاك ؟ .. أمتعبة أنت ؟ » ..

— لا .. ولكنني ابتك وقتاً لتقابل الطبيعة !

... أتراك تغارين ؟

— أجل ، فانت تحب بلدك .. أما أنا ..

مهتف في قلق : « أما أنت ؟ » .. فقالت : « لن أقول لك ! » .. وإذا ذاك قال موريس : « أما أنا ، فمماقول لك : إنني أحبك ! » .. وضربها بين أحضانها .. وكانت امرأة نحيلة ، سمراء ذات عيتين واسعتين ، وجسد يشر الشاعر ، ولكنه لا يلين للحناق ! وإذا طوحت برأسها إلى الخلف قليلاً ، رأى خلال جنبها نصف المغمضين نظرة اختلط فيها السواد بذهب الغروب ، وتركزت فيها كل الفوارة الشهوانية التي يثيرها في

النفس ذلك الفصل من السنة ، وتلك الساعة من اليوم .. وغتم موريس وهو يضمها : « ما أضالها من مخلوقة ! .. ومع ذلك ، فإن هذه المخلوقة الضئيلة تعادل الكون كله في نظري ! » .. وأردف : « أحبك يا أديث ! » ..

فقالت والابتسامة المستضعفة لا تفارقها : « احقلاً ! » .. ولم يجب ، بل هتف في وجد : « متى تكونين لي ! » ، فأجابت : « عندما لا أكون لغيرك ! » ..

— مستحيل ! — ولماذا ؟

— لانتك مرتبطة برجل — فلنرحل معاً !

— وكيف نعيش ؟ — على صداق المذخر !

— لا أحب هذا .. فضلاً عن أنك لا تملكين التصرف في

الصداق ..

— سأسترده — لا ، لا !

— بوسحك أن نعمل

وصيحت « فتهالت عليه بكلمات السخرية وهي مغيظة : « آه ! .. إنك تؤثر أن تطيع أباك ! كن مثله رجلاً كبيراً في بلدة صغيرة ، وأباً لأطفال عديدين ! » .. وإذا رأت مدى أساء ، ارتمت على صدره قائلة : « إنني أحبك ، وأعذبك .. ولكنك نرى أنني أختنق في بلدتك هذه .. ( شامبيري ) ! .. أريد أن أرحل ، وأن أكون حرة في أن أحبك ، وفي أن أعيش .. فلنأني أمقت المكسب ! .. ثم إنك لا تحبني ! » .. فتهتف : « كيف استطعت أن تقول لي هذه يا أديث ؟ » ..

وهو يمر بالمخزن - ذلك المبنى القديم الذي شيده أسلافه -  
ليبلغ مدخل الدار التي أسسها جده ، وزادها هو اتساعاً ..  
وقال لنفسه متذكراً حياته : « لقد كتبت شاباً مثله ! » .  
ولكن الشباب ذاته لم يصرقه من تدعيم مستقبل سلالة . فهل  
سينجح لابنه الأصغر - في وقت ما - أن يصلح من نفسه ،  
وأن يبدي من الهمة والاستعداد للتضحية ما يؤهله لشرف  
رئاسة الأسرة ؟ . ولم يكن روكفيلار بطبعه سهل الانفعال ،  
ولكنه أحس إذ ذاك بقنوط « مدام غوشوا » وأسائها ، وبوطاة  
الخيريف ووحشة « تحيط به كأنها سرب من طيور شريرة » .  
لقد كان منذ فترة يستعرض - أمام مزرعته - تاريخ آل روكفيلار  
باعتراز ومخر ، فإذا به ، بعد حديثه مع « مدام غوشوا »  
المجوز - وبعد قبالة فاجأ ابنه وهو يطلبها « يشهر بهم يچثم  
على صدره ، دون أن يجد له تعليلاً ، ويشهد كيف تكتهل  
نصول السنة ، وكيف تنهار الأسرات !

## ٢ - الشقاق

غادرت أسرة روكفيلار الريف ، عائدة إلى مقرها الشتوى  
في ( شامبيرى ) ، بعد رحيل ابنها الأكبر « هوبير » ليلحق  
بجاليته في ( بريست ) . وكانت الأسرة تقيم في الطابق الأول  
من دار ضخمة قديمة ، تقع في نهاية شارع ( بوانى ) : مجاورة  
لحصن المدينة الأثرى . وكان شهر أكتوبر قد أشرف على  
نهايته ، فشغل الحامى بالتقصيا وبمحكمة الاستئناف . وفي  
ذات يوم ، مرغ السيد « روكفيلار » من الفداء الذي حال المؤرخ

« لا ، إنك لا تحبني .. ولو أنك أحببتنى صصاداً - لكنت  
نك منذ أمد بعيد !

وعادوا يسيران على مهل . وقد أثقلت نفسيهما هذه  
الاعتراجات . وتخلص الأفق من النطاق الجبلى . غاتست  
صفحته - ويدت في اقصاصه - خلف آخر قسم « يقوليه » -  
بحيرة ( بورجيه ) التي تباينت زرقتها . إذ كان البخار الرمادى  
المقصاد من أطراف البحيرة يخففها في تدرج بلبع .. ولكنهما  
لم يعودا يريان شبناً من هذا « الجبال » : لا الهدوء الخائق  
الذى يچثم على الكون في هذه الفترة من السنة . ولا تلك الفتنة  
الروعة المضطربة التي تتجلج بها الطبيعة . ولا تلك الفتنة  
التي تشوب مساء الخيريف فكانها إغواء صارخ .. نما حلدتها  
إلى كل هذا وفي قلبيهما مثله !

وتقبل وصولهما إلى البيت ، التقياً بـ مدام روكفيلار التي  
أقبلت بنفسها لاستقبال مدام غرازن . برغم نصح الأطباء لهما  
بعدم مفادرة البيت بعد الغروب !

ومهما كان السيد « روكفيلار » عائداً من المعصرة - في ساعة  
مؤخرة من المساء . لم يكن أحد يرتقب عودته فيها - أيسر ابنه  
مع المرأة الشابة في الظلام .. فإن الحركة تنشط في الدار  
أيام الحصاد ، بحيث يسهل التسلل إلى الخسارج . دون  
استشارة أى انتباه .

وهنف موريس : « لقد رأنا » . غثالت مدام غرازن : « هذا  
أفضل ! » . وحاول ميسو روكفيلار عبثاً أن يطرد عنه القلق .

وكانت تضم تاريخا طويلا حافلا بساعات الهناء ، وساعات الشتاء . وكان برجها الكنيسة ودار المحفوظات يبرزان خلال اشجار كثيفة متشابكة ، زرعت في شرفتين — إحداهما فوق الأخرى — مبدت وكانها بتداخلة بعضها في بعض . وعلى حافة الشرفة الخارجية ، قام تشارلان حديثان لجوزيف واكرانييه دى ميستر . وهكذا تجمعت في تلك البقعة الصغيرة فكريات غرون عديدة . . . وفي هذا المكان المهجور ، الموحش — كالقبر — كان الماضي يتكلم !

ومهما يالغ المرء منظرا ما ، فان أى تذبذب للضوء كفييل بأن يدخل عليه تجديدا . ومع ان اشعة الشمس كانت تصلى واجهة الحصن الكتيبة — حين دخل السيد روكفيلار وابنته غرفة المكتب — إلا انها خلعت لونا ورديا على الزخارف القوطية التى كانت تزين الكنيسة ، وعلى قمم القصور التى خف ثقلها إذ بدأت تتخلص من أوراقتها . كذلك اسبغت الشمس لون التبيذ على دار المحفوظات ، كما كانت تداعب قمة البرج . . . فقالت مرجريت لأبيها : « إن هذا المكان يهيب لك جو العمل . . . كم يسرني ان أراك مقبلا على العمل هنا ! » . فقال : « كنت أود لو ان أمك اتخذت من مكتبي هذا حجرا للاستقبال ، ولكنها تلبى دائما . . . ولكن ، ألا تلاحظين شيئا يا صغيرتى ؟ » .

وآجالت مرجريت بصرها حصول الجدران ، قرأت خزانات الكتب الحائلة بالمؤلفات القانونية والفقهية « ويضع صبور للمشرعين القدامى من أجدادها — وقد أضفى عليهم الرسامون صرامة تقوق صرامة أحكامهم ! — ولوحد الرسام " بورجيز »

دون أن تشاطره إياه زوجته ، ثم استدعى ابنه مرجريت — بينما كان ابنه موريس منهكا في قراءة الصحف — وقال لها : « تعالى معي ، غائى أبغى استشارتك » ، فتساءلت : « فى أى أمر يا أبى » . . . وريق الأب موريس الذى لم يكن يصفى إليهما ، ثم قال : « فى تنظيم جديد لمكتبى » .

وكانت غرفة مكتبه تقع على رأس الشارع ، وهى غرفة مسيحية ، مرفوعة السقف فترها أربع نوافذ . تشرف انتنان منها على الطريق المؤدية إلى ( سافوا ) ، وتطلان على الحصن الأثرى الذى كان مقرا للوثقات الغابرين « والذي كان مؤلفا من مبان ضخمة عتيقة ، اسودت بفعل الزمن — إذ كان عهدها يرجع إلى القرن الرابع عشر — وتخللت جدرانها المساء ثغوات لا تكاد ترى . على أن هذه المباني العتيقة كانت تجاور — فى الجانب الأيمن — « كنيسة القديسة » ، التى كانت على شكل زهرة رقيقة « تقوم على فئمن تالف منه أساس الحصن . وكانت غرفة مكتب روكفيلار تطل — من الجانب الأيسر — على دار المحفوظات ( الأرشف ) ، التى كسبت جدرانها فروع اللبلاب والكروم البرية ، وتوج هامها برج طلى باللون الأبيض منذ عهد قريب ، فبدأ فى انتصابه ومظهره كذلك الريش الأبيض الذى يزين رأس الطاووس ( العفرة ) . . . كانت هذه المباني تنتمى إلى عهود مختلفة ، وطرز متباينة ، وقد شيد بعضها على مهل ، وبعضها على عجل ، تبعا لوارد الأمراء المالية وطموحهم . ومن ثم فانها كانت أقل اتساقا — ولكنها اقضم منظرا — من المباني التى ينشئها سيد واحد فى جيل واحد . .

ديجار « تمثل بحيرة من أجمل معالم إقليم (سافوا) ، ثم رسما لزراعة « فيجي » - مزرعة الأسرة - في إطار يبرز على ما عدها - وما لبثت مرجريت أن قالت : « لا .. لست لاحظ شيئا ! » ، فقال الأب : « لآنك تتطلعين إلى أعلى » .. تردت الفتاة بصرها إلى الحجرة من جديد ، وإذا بها تلاحظ شيئا لم تلاحظ إليه في المرة الأولى .. فان المنفذة الضخمة المصنوعة من خشب البالوط - والتي كانت من الكبر بحيث تتسع لأكداش الملفات - كانت قد أزيحت من مكانها ، لتحل نيه منفذة أخرى أنيقة ، وأصغر حجما ، احتلت من الحجرة موقعا كان الجالس فيه يستمتع بالكبر قسط من الضوء ، فضلا عن المناظر الجميلة .. وصاحت مرجريت : « أوه ! .. لماذا أزيحت منفذتك ؟ » .. فاجاب : « لكى اخلى مكانا لأخيك » .

— وهل سيفرك موريس مكتب غرازن ؟

— أجل ، سيجلس إلى جوار النافذة .. انظري من هنا . إن الخريف يجرد الأشجار من أوراقها . أما أنا فأنفضل الربيع : وهناك - فوق البرج - فرع دبت فيه الحياة فأنبتت البراعم الحمراء .

ولم تكن مرجريت تصفى إليه ، بل تبدى عليها الوجوم ، ثم قالت : « موريس .. أجل وأنت ؟ » . فقال : « يا صغيرتى .. يجب أن يشعر الشاب ببغطة في داره - اليس بوسعك أن تكلمي ترتيب هذه المنفذة ؟ - زينيها ببعض الزهور مثلا ! » . ولكنها أجابت : « ليس هذا بموسم الزهور يا أبت .. ليس لدى سوى زهر الكريزانتيم ( اللاتيا ) » . فقال : « إذن هاتى

الكريزانتيم .. زهرة أو اثنين - لا أكثر - في وعاء طويل . فان دكاترة القاتون يعودون إليكما من باريس ، وقد أغرموا بالاشياء الجميلة .. وأنا لا أعسرف الفوق ، أما أنت فزهرة الأسرة - وفي وملكك ان تساعدنا على تعرف الفوق » !

وابتسم في انفعال الذى يرجو إرضاء سامعه ، ثم اقترب من ابنته الشابة ، فالتقى راحته على شعرها الكستنائى القاتم الجميل . غير محاذر من أن يخل بتناسقه ، وقال : « إنك لن تلبثي أن تهرجى هذا البيت عما قريب يا مرجريت . أعلمت سعيده بزواجك ؟ » .. وبدلا من أن تجيب ، التفت بندها على صدر أبيها وهى مقلقة الفؤاد ، ولملمت تيكى .. وكانت قريبة الشبه من مسيو بوكتيار ، وإن لم تؤث نفس قسمات وجهه .. فقد كانت ذات قوام غارح قوى ، وانه ، مديب قديرا ، وفقر مستقيمة . وكانت - كأيها - توحى بالعلمانية والولاء ، كما كانت عينها الواسعتان ، السوداوان ، الشديدتا الصفاء - كميني لهما - تضيقان إلى وجهها رقة عميقة ، بينما كانت عينا أبيها - الصغيرتان ، الغائرتان - تشعان بنظرة ملتهبة حادة لا مكان المرء يحتملها !

وقال الأب وقد أملتته دموع ابنته : « لماذا تبيكين ؟ ألا يروق لك هذا الزواج ؟ إن ريمون بيرسي شاب لطيف ، من أسرة طيبة . وقد اتم دراسة الطب ، وعول نهائيا على الإقامة في لندن . هناك ما تأخفينه عليه ؟ ليس من الواجب أن تزوجين من لا يميل إليه فؤادك » . وغالبت الفتاة عواطفها ، وتوهمتم : « لواد ! .. ليس هناك ما أخذه عليه .. » .

نقاطعها متعجلاً : « تكلمى يا صغيرتى .. هيا .. على مهل :  
 .. ورمقه بعينين ملينتين بالإعجاب وقالت : « ولو أنه ليس  
 منك ! » .. نهفت : « إنك لمخيفة ! » .

وإذ هذا روعها قالت : « لست أدرى من يكألى .. كان يجب  
 أن أكون سعيدة ، ولكن .. ألم أكن سعيدة هنا ؟ .. إن طفونى  
 تعاودنى الآن بمباهجها وإشراقها ، فأشعر بأسى طاع لمفادرة  
 هذه الدار » . فراح يسرى عنها « قائلاً فى وجوم : « لا تنظري  
 إلى الوراء يا مرجريت ، فإن هذا جدير بأبك وبى . أما أنت .  
 فكبرى فى مستقبلك كأمراة ، وأقبلى على هذا المستقبل دون  
 تراخ ! » . فالتفت وهى تحاول الانقسام : « إن مستقبلى فى  
 أسرى » « نعمت قائلاً : « أنه فى الأسرة التى تنشئها ! » .

.. كثيراً ما نصحتنى يا أبت ، أثناء تلك الفزعات التى كنا  
 نقوم بها مما فى الشقاء ، بأن احافظ على تقاليدنا !

.. ولكن التقاليد لا تحفظ - أيتها المجادلة الصغيرة - داخل  
 صوان الثياب « كما يفعل جارنا فى الريف « الفيكونت ديلا  
 مورتيليرى » . الذى يحتبس نفسه ليعيد تنسيق شسمارات  
 أسرته وشجرة نسبها ، والذى يعجب لأن فلاحيه يجرؤون على  
 ارتداء الأحذية الطويلة الرقاب ! .. كذلك لا تصان التقاليد  
 فى دار عميقة ، أو ضسيسة قديمة ، بالرغم من أن الاحتفاظ  
 بالتراث من الأمور الهامة .. إنما يمتزج التقاليد بحياتنا  
 وبمشاعرنا ، لتقوى وتزداد قيمة وبقاء !

وعادت ترمقه بعينها الواسعتين الملينتين بالإعجاب ، ثم

عمست : « لشد ما أنا متعلقة بهذا البيت ! » . فأجاب فى  
 حزم : « لا .. لا .. إن الزواج يبدو دائماً كمجهول محسوس  
 بالغموض . ومن ثم فأنى أدرك أن هذا التغير - الموشك أن  
 يطرا على حياتك - يشغل بالك ، ولكن من الواجب أن  
 نكونى مبتهجة ومرحة وأنت تقاديرنا ، ما لم يكن لدى قلبك  
 أو عقلك اعتراضات جدية على هذا الزواج . لقد كنت  
 سعيدة بيننا ، وفى هذا ما يعزنى . وهيا اذهبي فأحضرى  
 زهوراً ، واستدعى مورييس ! .. » فقالت : « سمعاً يا أبت ! »

وإن هى إلا لحظات ، حتى عادت مرجريت تحبل « زهرية »  
 نسقت بها الورود .. وبحركة رشيقة من يدها ، تغير مظهر  
 المنضدة المعدة لأخيها . ولقت نظرة نيت عن ابتهاج ، وقالت :  
 « لقد كانت عندى بقية من ورود ، هى الأخيرة فى الموسم ..  
 ها هى ذى ، فى الزهرية التى تبديل لونها تحت أشعة الشمس ،  
 كما تعمل زهور عباد الشمس . ما أجملها ! » .. فررد السيد  
 روكيار قولها : « ما أجملها ! » .. وكان يعنى ابتته لا  
 الزهرية ، ضحكت وفرت من الحجر قائلة : « ساهرع الآن  
 لاستدعاء مورييس » .

\*\*\*

ولبى الشاب نداء أخته دون تمهل . وقال وهو يلح  
 حجراً مكتب أبيه - ممسكاً بقبعته وعصاه وكأنه يتعجل مفادرة  
 البيت : « أليك ما تريد أن تقوله لى ؟ » .. وكان فى مثل طول  
 أبيه وقوامه ، ولكنه كان أنحف منه جسماً ، وانصع بشرة .  
 ومع أنه كان أكثر منه أناقة ورشاقة - أيضاً - إلا أنه لم يؤت



قط لم يتراجع مسيو روكيار بمثل ذاك الحذر وتلك الرقة .  
ولكن الشاب تركه يتكلم وراح يفكر . ثم قال : « كنت أظن أن  
من المتفق عليه أن أقضى سنة أشهر في مكتب الأستاذ فرازن »  
.. فاجاب الأب : « حسنا ! هاتقد أوشكت الأشهر الستة على  
الانتهاء . فلقد بدأت في يونيو . ونحن الآن في نهاية أكتوبر »  
.. فقال الابن مائلا : « ولكنني حصلت على عطلتي في شهر  
أغسطس ، وقد انتهت منذ عهد قريب ، وأنا أفحص الآن بعض  
قضايا التصفية الهامة » . فرد الأب في حزم : « ستعالج في  
الحكمة قضايا من هذا النوع ، فهي تنتهي في أغلب الأحيان إلى  
الحكمة . وقد قبلت في هذا الموسم عددا من القضايا الفريدة ،  
وإذا ساعدني . فاذهب واحضر حافظلة أوراقك من عند  
الأستاذ فرازن ، وامكث هنا » .

— إن الأستاذ فرازن متعيب ومن الالبق أن أنتظر أوبته ،  
كان مورييس يتلمس الأعذار ، ولكن أباه لم يهمل بأعذاره ،  
بل قال : « لسوف يعود غدا ، وقد أخطرته — على أية حال —  
قبل رحيله » .. ووجد مورييس في هذا النبا فرصة للتغيب  
عما جاش في صدره ، فصاح : « هل أخطرته قبل أن تسألني  
رأى ؟ .. إذن فساكون دائما طغلا ، هنا ، تتصرف في كائني  
سلمة . ولكنني لن أرضى بأن ينتزع مني استقلالتي . إنني حر ،  
وأطالب بأن استبشار — على الأقل — لا سيما فيما يتعلق بي ! »

إزاء هذه الثورة التي كان السيد روكيار يتوقعها ويدرك  
سببها الخفي . راح يرمق ابنه في هدوء برغم ما شاب الحديث  
من بعد عن الاحترام .. كان يعرف أن الحبال الجموحة صعبة

ما أوتيه الأب من سيماء العظيمة « سواء في مظهره أو في مسئكه  
.. ولا ذلك الجلال الطبيعي ، الذي يذل السيد روكيار — في  
تلك اللحظة — جهدا للتخفيف منه . ولإبداله بروح الزعالة  
والود ، وهو يقول : « تأمل كيف أعدت مرجريت متضدك ! » .  
فهتف الشاب في عجب : « متضدتي ؟ » .

— أجل ، هذه المتضدة ، ذات اليرود .. أنك ترى — إذ  
تجلس إليها — الحصن والشمس .. ألا تريد أن تتم مرحلة  
التمرين معي ؟

وأخذ شماع من الشمس يداعب اليرود ، بينما كان برج  
دار المحفوظات والقصر يسبحان في الهواء . وكشف ضوء النهار  
عن وجه السيد روكيار الذي كان يتلطف إلى ابنه في عبارات  
رفيعة مؤثرة .. ولكن الأبناء لا يعرفون صبر الآباء إلا بعد  
فوات الأوان ، وبعد أن يمارسوا مهام الأبوة . ومن ثم تسأل  
مورييس : « انتصد انتي يجب ألا أعود إلى مكتب فرازن ؟ » ..  
فاجاب الأب : « نعم فلا نفع لك في العبودة . لقد الموت  
ثمها بتسانون المواريث . ويحسن بك أن تتبع سير القضايا .  
وأن تحضر المجالسات . وإن شئت . فغني وسلك أن تقضى  
بضعة أشهر لدى شارل ، زوج أخذك . الذي يسقطيع أن  
يصرحك بالإجراءات الجنائية — فهو من المحامين المعودين .  
ومن أكثرنا حصولا على القضايا — على أن تتقدم بعد ذلك  
للمرافعات . وإن شئت فإن لدى قضية بديعة أقدمها إليك .  
بشأن صحة عقد من عقود البيع » .

لا اصدق أنك يا أبت قد أصفيت لهذه الشائعات الوضيعة التي لا تتورع عن النيل من أشرف النساء ! » .

وكف السيد روكيار عن التسرر . فقال : « لقد تركتك تتكلم يا موريس . فاسمعي الآن . انني لا أحفل قط بما يقال ، ولا أسالك عما إذا كان من الصحيح أنك تقضي في غرفة الاستقبال في دار أستاذك - وهو الكثير التقبيل في أعماله - وقتا أكثر مما تقضي في المكتب . إن جميع الأسباب التي أبديتها لك صحيحة ، أما وقد أثرت هذا الموضوع « فأنني لن أنهرب من المناقشة . أجل ، انني أرجو أن تستكمل فترة تهريتك عندي ، بسبب هذه المرأة . وهو طلب طبيعي مني ! .. وأنا لست في حاجة لأن أصفي إلى أية شائعة ، إذ يكفي ما رايت بعيني ! » .

تسأل الشاب : « وما الذي رأيت ؟ » .

— لا جدوى من ذلك ، فلا تصر .

— ولكنك تتهمني ، فمن حق أن أعرف .

— وهو كذلك ! عندما تستقبل أمك بعض المضيفات القادمات بدعوة منك ، فمن واجبك أن تحترم البيت الذي نعيش تحت سقفه . على الأقل ! وما أراك إلا قد أدركت ما أشير إليه .

واطاش الغضب رشد موريس ، فعاد مرة أخرى إلى الاندفاع في تلمس الاعذار لتبرير عاطفته ، قائلا : « إن حياتي الخاصة جديرة بالاحترام كذلك . وليست أريد تدخلا فيها ، لقد أرضيتك في جميع الأمور التي يجب أن أقدم لك عنها حسابا » . . . . .

الاب : « موريس ! » ، ولكن الشاب مضى قائلا : « لقد اجتزت

المراسم ، وكذلك حال الشخصيات ذات الإرادة الصلبة المعتدة . ومن ثم اجاب في بساطة : « إنك ابني سواء اكننت صغيرا أو كبيرا » ولذلك فاني أعاونك على إعداد مستقبلك ! » . . . . . ولكن الشاب من العقبة التي كان كلاهما يتفادها حتى تلك اللحظة . إذ قال : « فمim التستر ؟ انني أعرف تمام المعرفة السر في أنك تريد إقصائي عن مكتب فرازن » . ولكن حضور بديهة الاب مكنه من تفادي الاصطدام ، فقال : « أترك ستكون في مكتبي اسوا حالا . وهل تظنك تستطيع ان تستغني - في استخفاف - عن توجيهاتي ؟ .. هل سيكون استقلالك مهددا لانك ستفقد من خبرتي المهنية ، ومن الاربعين عاما التي قضيتها في الحماية ؟ .. انني لا أنفك ! » .

وشعر بأنه انغمه ، فمضى لاستكمال نصرته بشئ من الحنان ، فقال : « إن أمك مريضة ، وأخذك لن تلبث أن تبارحنا ، وستخف وحشتي بوجودك ! » . وتريث لحظة وهو يأمل في أن يكون قد بدد العاصفة ، ولكن موريس ظن بعد تردد - إذ كان في قرارة نفسه يعجب بابيه - أن يوسعه أن يقتصر على هذا التلطف ، فعاد بحمل على العنصر المفقود في المعركة : « أجل . لقد وشى الناس بي لديك من أجل مدام فرازن ، فماذا قالوا لك ؟ .. انني أريد أن أعرف ، فان من حق أن أعرف » . . . . .

أن الحياة لا تطاق في الأقاليم ! فالمرء فيها يكون مراقبا ، يتجسس الناس عليه ويحسبون حركاته ، ويقيدون من حريته . إن أنبل العواطف تصبغ في الأقاليم نهبا للسنة كل من تقيم البلدة له وزنا من المناقنين الحاسدين والانتهازيين ! ولكنني

امتحاناتي بتفوق ، وعدت من باريس بعد ست سنوات ، دون أن أكون مدينا ب درهم لأحد . فأى يوم تراني استحق ؟ . إنك كذلك لا تستطيع أن تأخذ على أنني كنت على أية علاقة وضيعة بالحي اللاتيني ، على غرار بقية الطلية ! » .

— إنني لا أوجه إليك أي لوم ، أيها الطفل التمس ..

— إنني لمست طفلا !

— إن المرء يظل دائما طفلا أمام أبيه ! الا تفهم أنك لم تحافظ على شبابك إلا بفضل العمل والعزة وتقاليد الأسرة التي بثت فيك النظام والاستقامة .. وإن هذه المرأة التي تكبرك سنا بكثير ، والتي لم أكن المبادئ بذكر اسمها هنا ، شديدة الخطر عليك ؟ .. اتعرف .. على الأقل .. حقيقتها ؟

فصاح مورييس : « لا نتحدث عنها » . ولكن السيد روكفيلار أجاب في لهجة صارمة مهيبة : « بل سأتكلم عنها . الست أنا رب الأسرة ؟ فأى حق تفرض على السكوت ؟ افترضني أن أنزل إلى حديث لا يليق بكرامتي ؟ .. إنك إذن لا تعرفني » . فعاد الشاب يقول : « إن مدام فرازن امرأة شريفة » . وإذا ذلك قال الأب : « أجل ، إنها من أولئك الشريفات اللاتي يعمدن إلى اللعب بالنار من قبيل التسلية ، واللاتي لا يتورعن عن هذا العيب ولو في قاعة الجلوس ، ولا يتعفن عن اللهو مع كل الرجل ، حتى المكتهلين منهم .. إنها من أولئك الشريفات — من نساء هذه الأيام — اللاتي قرأن كل شيء عدا الإنجيل . ووعين كل شيء إلا الواجب ، ولم يحجمن عن أي شيء مسوى

الفضيلة . وأكبرن كل الحريات ، ولكنهن أزدرين عمل الخير الذي لم يضمن عليهن به أحد ! .. ولماذا يكن شريفات ؟ . لا أحد يدري لذلك سببا .. فلا الإيمان يردعهن ، ولا الحياة يوقنهن عند حدهن ! أما الشرف ، فمعتقة لا يعتنقها سوى الرجال فقط ! إنهن متمرعات » لا يشبع المرء من كلماتهن في الشباب . فإذا أوشك الشباب أن يدبر ، تجلت الحقائق الواقعة . إن هذه الشابة زوجة رجل ناضج ، فكان جديرا بها أن تذكر أنه يأويها ويطعمها ، وأنها كانت — حين التقطها — لا تملك درهما ! » .

— عذا غير صحيح .. فقد كانت تملك صداقا قدره مائة ألف فرنك .

— ومن مال لك هذا ؟ — هي نفسها .

— وددت لو كان هذا صحيحا ، لولا أن مديتي المحيم كبير مال - الذي عرفها بنا عندما خلفه فرازن في مكتبه ، قد أنبأني بكل شيء .. وهو رجل لا يلقى الكلام جزاما . فلو قد أنبأني بأن هذه المرأة موزعة بين خوف الفقر - أو خوف الضيق المالي على الأقل - وبين الخوف من زوجها الذي لا تشي أساريره بما يطمئنها .. وأنها قد وازنت بين الحالين ، فأثرت البقاء مع زوجها .. وهذا مدى ما لديها من حكمة !

وتقدم مورييس خطوة ، وهو يرتعد مما لحق بمعبودته من إساءة ، وصاح : « كفى يا أبت .. أرجوك ! لا تنهها بالنذالة ، ولا تتحد جراتها ! تؤكد لك أنك تخطئ ذلك .. ولمست نفسي أن انصت للتشهير . ومن ثم فسأنته في ذلك » .

الاب في حزم صارم : « إننى أمنك من أن تطأ قدمك مكتب فرازن » - فقال الابن : « حذار من أن ارفض أن اضح قديم هنا » .. وكان قد بلغ الباب حين ألقى بهذا التحدى ، نصاح الاب في صوت تغيرت نبراته فغدا اقرب إلى الضراعة منه إلى الامر : « موريى ! » .. وأسرع خلفه ، فاذا الغرعة الخارجية خالية ، والشباب يهبط السلم . وإذا غدا الاب وحيدا داخل غرفة المكتب الواسعة ، المفعمة بالنور ، راح يتأهل المتفردة الصغيرة التى كانت أشعة الشمس تداعب ما عليها من ورود . وكل ما اتخذ من استعدادات - لاستقبال ابنه - ترضى أسلاعه الذين كانوا يطلون عليه من الحصور القديمة : والنافذة . والرسم القديم المبين للأقليم كما كان فى الماضى .. وشعر بأنه قد نبذ ، كقائد ولى عنه جيشه فى ليلة منى فيها بالهزيمة !

وقال لنفسه : « أيتهد الابن على أبيه إلى هذا الحد ؟ .. لقد كلمته برفق فى البداية ، ولكنه سرعان ما اجتد .. ما أقوى سلطان هذه المرأة ! لكم أود أن احطلها ! .. ولكنه سيعود ، فمن المستحيل الا يعود ، وسأذهب لإحضاره إذا اقتضى الامر . لعلى تجاوزت حدى ، فخرجت شعوره دون مبرر ! أن الغفل المسكين بحبها ، ويصدق ما تقوله له . لقد سحرته بصوتها الفاتن ، وعينها اللتين تشعان لهيبا . وابتساماتها ، فراحت تلعب به . أجل . لقد أخطأت إذ تحديتها .. أن أمثال هذه المرأة أخطر من سالفاتهن فى الماضى ، بما أوتين من حقد ، ونفاق ، وتمرد على المجتمع ! .. لا بد أنه هرع إليها ، ولسوف تثيره ضدى .. ضد أبيه ! ..

ضد أبك الذى أراد حبسه أن يقولك إلى الطريق المستقيم يا موريى .... » .

\*\*\*

ولم يكن روكيفار من الرجال الذين يسترسلون فى الشكوى ، فدخل حجرة زوجته بنشد قرارا يتخذه « بعد أن اعتاد أن يلجا إليها كلما اعوزه الراى فى الظروف العصيبة . ولكن الستائر كانت مسدلة ، ومدام روكيفار نائمة .. فقد هدها المرض البطيء - الذى ضاعفت الشيخوخة من وطأته - إذ كانت تعانى قبيسا فى أعصابها كان يشل حراكها من آن إلى آخر . وكم اعتاد - منذ سنوات - أن يفتح باب مخدع زوجته ، مطمئنا إلى سداد رايتها ، وجلاء بصيرتها . أما فى هذه المرة ، فقد تهقر فى هدوء ، وعول على أن يعتمد على ما لديه من موارد الراى .. ولو أنه كان يشعر - منذ مرضت - بضعف حيقله ! .. وأخذ يفكر فى ابنها : أن الام أكثر النسة ولباقة وتأثيرا على الابن . وقد تدرا الخطر المحقق ! .. وقال لنفسه فى أسى وهو يرمى المريضة : « إننى وحيد ! » .. ثم خرج فى خطى مسترقة ، ناعمة ، فوجد مرجريت فى شاعة الاستقبال منكبة على الكتابة ، وسرى عنه مראהها الحبيب ، فقال لنفسه : « ها هى ذى التى ستساعدنى ، فما من أخت تفوقها إخلاصا ! » .

ودنا منها « فما أن رفعت إليه وجهها مبتسمة ، حتى غالب قلعه . وقال : « ماذا تفعلين يا صغيرتى ؟ .. أراهن أنك تكلمين متجرا كبيرا بأن يقولى إعداد جهاز عزمك » .. فابتسمت

قائلة : « لم تصب الحدس يا ابتاه ! » فقال : « إذن فانت تعلمين لزميلات الدراسة نيا خطيتك » .. فتالت : « ولا هذا ايضا ! » .. وواصل تخمينه قائلا : « إذن فانت تدعين خطيتك ليتناول عشاءه هنا الليلة » .

— ليس ثمة ما يدعو إلى ذلك !

وبسطت إليه « الكرامسة » التي كانت تكتب فيها - فادرك انها « كتاب الأسرة » .. فقد كان لال روكنيار - بحكم العادات القديمة - كتاب سجل فيه الاجداد إلى جانب ثرواتهم وممتلكاتهم ، أهم الاحداث العائلية ، كالزيجات والوقيعات والمواليد والانعاعات والديون والعتود ، وكل ما يصور الماضي في وثيقة قيمة ، مما يبث الثقة في المستقبل ، في نفوس اولئك الذين يستوحون آباءهم ويعتزون بنسبهم !

وقالت الشابة : « اننى اكمل نقصه بالنسبة لآيانتنا . فان عودة موريس والانعاع على هوبير لم يكونا مدونين فيه » .. وتصفح السيد روكنيار - بغير قليل من الزهو - ذلك المسجل الذى ضم تاريخ الجد والذاب اللذين بخلتها امرته . ثم قال : « ترى من سيعنى به من بعدك يا مرجريت ؟ » .. فاجابت : « لكننى ساستمر في العناية به ! » .. فصاح : « لا . يجب ان تكون المرأة لبيتها الجديد » .. وهنا تفرج وجهها كشمس اخطأت ، وقالت : « أخشى أن اكون زوجة رديئة » ، لأننى سأظل متعلقة بالتقديم على الدوام . ان كل ما يجري هنا يتغلغل حتى سويداء قلبى ! » .. فلم يتمالك الاب أن غمغم : « يا طفلى العزيزة ! » .. ولكنها استطرقت في

حديثها : « وموريس ؟ .. اقراء ممرورا بمكتبته الجديد . وبورودى ، وبالنافذة ! لو اننى كنت مكانه » لتفهم ان أعمال بالقرب منك » .

وهكذا تطرقت إلى ما كان يشغل باله ، فبشرت عليه الفضفضة - إذ قال : « من اجله جئت أتحدث إليك . لقد دار بينا جدال منذ برهة » ولعلنى كنت محتبدا ! » .. فهتفت : « امعقول أن نحدث يا أبى ! » .. فاجاب : « لقد اسأت إليه في النهاية » ، فخرج مضطربا .. والفصص شر رفيقنا ناضحي وراءه ، فانت خالقة بان تعبدية ! » .

وتهضت مرجريت متأهبة في حمس ، وسالته : « واين هو ؟ » .. فاجاب : « لست أدري .. لعله في مكتب فوازير . على أن البلدة ليست كبيرة - على كل حال - وان تجدى عناء في مهمتك . وابهذك الله إلى مكانه ! » .. فقالت : « ها أنا ذى ذاهبة ! » .. فعقب برقى : « احسبك تدركين اننى لا أستطيع الذهاب بنفسى ! » .. فهتفت « لا .. لست أنت الذى تعمل ذلك . فهو لا يستحقه ! لقد بدا غريب الأطوار منذ فترة من الزمن . حتى ليقطن المرء أنه لم يعد يحينا ! » .

وتبادل الاب والابنة نظرة ، فادرك كل منهما ما كان في نفس الآخر . ولكنهما لم يشاعا أن يخوضا في الموضوع . وامرعت مرجريت إلى ارتداء ثعبتها وسترنهما » وانطلقت تبحث عن موريس . فما أن بلغت الطريق ، حتى ولت الحصن ظيهرها . وسارت في شارع



العديدة التي تؤلف شبكة الطرق الداخلية في (شامبيري) .  
حتى بلغت ميدان المحطة .. وكان هذا الميدان — فيما مضى —  
مركز الحركة التجارية في البلدة ، وما زالت به بعض الحانات  
العتيقة « ودار من تلك الدور الإيطالية المزدانة بشرفة وأعمدة  
تجملها أهلا لأن ترسم على لوحات للزينة أو على بطاقات  
البريد .. ولكن البيت كان في الواقع متسسخا ، متداعيا .  
كثيرا ، لا يثير انتباهها ..

وعلى واجهة مبنى أعيد إصلاحه ، كانت ثمة لوحة من الرخام  
الأسود ، نقش عليها : « في هذا البيت ولد : جوزيف دي  
ميستر » في أول أبريل سنة ١٧٥٣ .. واكرافيه دي ميستر :  
في ٨ نوفمبر سنة ١٧٦٣ » .. وتحت تلك اللوحة ، ثبتت لافتة  
مذهبة تشير إلى مكتب موثق العقود ، فسارت مرجريت في  
اتجاه السهم المنقوش على اللائفة ، وصعدت السلم ودقات  
قلبها تتوالى في عنف ، إذ كبدها قدومها جهدا ممضا . وطرقت  
باب مكتب فرازن ، ثم ولجت « فسالت أول كاتب وقع عليه  
بصرها : « أفنى أخت ميسو مورييس روكفيلار . هل تستطيع  
مقابلته ؟ » فقال الشاب وهو يهض في احترام جم : « أنه  
غير موجود يا آنسة ، إذ لم يات بعد الظهر ! » .. ولكن كتابها  
آخر لم تلمحه مرجريت — إذ كان خلف أحد المكاتب — قال في  
صوت أجش مغمم بحقد عارم : « أبغض عنه لدى مدام  
فرازن » .

وكسبت الحيرة وجه الفتاة حتى أذنيها . ولكنها شكرته ،  
واتجهت دون توان إلى مسكن مدام فرازن ، وضغطت الجرس .

ولم تتلق جوابا ، فادركت أن السيدة في الخارج . وخامرها  
ارتياح في البداية ، ولكنها لم تلبث بعد أن سارت بضع خطوات  
أن أحسب بالأسف ، إذ كانت تلك فرصتها الوحيدة للحاق  
بأخيها . فابن تعثر عليه بعد ذلك .. واتجهت إلى شارع  
غانر . حيث كانت دار مدام مارسلانز — أختها الكبرى —  
فوجدتها عائدة مع أطفالها الثلاثة . وما أن رآها « جوليان »  
الصغير ، حتى ارتقى عليها ، وأبى أن يدعها تمضي ، بينما  
تالت أختها في غير اكتراث : « لا ، أن مورييس ليس هنا ، فهو  
لا يزورنى إطلاقا » .. فلقد كانت أبة شكوى من ابنتها  
« ادريين » تحظى منها باهتمام يفوق اهتمامها بأخيها !

\*\*\*

واخذت مرجريت تفرغ شوارع البلدة — بعد هذا  
الفشل المتكرر — دون ما أمل كبير ، وهي تسرع الخطى وكأنها  
تهرب من شبح يطاردوها . وتحت « البواكى » ، التقت  
بخطيبها ، الذي بادر إلى استيقاظها ، فعادت إليه بعد أن  
تجاوزته . وقالت دون إبطاء : « نهارك سعيد يا ريمون ..  
الم تلتق بمورييس ؟ » ، فاجاب الشاب : « لا يا مرجريت ..  
أتبحثين عنه ؟ » . وإذا اجابت : « نعم » ، قال لها : « هل  
أساعدك ؟ » . ولكنها قالت : « لا » شكرا .. إلى اللقاء في  
المساء » .

وراقبها ريمون — خطيبها — وهي تتبعد بشيئتها السريعة ،  
وقال في نفسه : « إنها ليست لطيفة .. فهي متحفظة معي  
على الدوام ! » .. ولكنه ظل يتبعها بعينه حتى اختفت .

وواصلت مرجريت سعيها دون جدوى . فلما بلغت الكاتدرائية .  
التقت بصديقة صغرة . هي « جان ميسيناى » . التى كانت  
تسير برفقة خادمتها . وكانت « جان » فى السادسة عشرة أو  
السابعة عشرة من عمرها . تبدو طفلة /سفر من منها  
الحقيقى ، وقد تهذلت على ظهرها غداثر من شعرها الاثغر .  
وبدا وجهها وادعا . وأسرعت الفتاة إلى الأنسة زوكليار التى  
كانت شديدة الإعجاب بها . وهتفت : « آنسة مرجريت ، هل  
أتيت فى عجلة ؟ » فحببها الشاباة قائلة « نهارك سعيد  
يا جان ! » . وقالت جان مسرعة : « لك تحقين حدو  
أخيك الذى يقابلنى فى الشوارع فلا يحببنى . مع أننى بلغت  
السن التى أستحق فيها الفحة ! » .

وأطرقت برأسها تليق . وهى تنهى لو أن نهارها انتهى  
إلى ثوبها حلولا . فقالت مرجريت مقرة حديثها : « هذا صحيح .  
ولكن . أين تراك قابلت مويس ؟ » .

— على جسر ركلى .

— الآن ؟

— لا ، بل قبل أن ألقى درس الموسيقى . . منذ ساعة  
أو ساعتين .

— وإلى أين كان ذاعبا ؟

— لمست أدرى . قولى له إنه غير لطيف !

— سائنه ولا شك . فهذا عيب لا يستمر . ولا سيما إذا

صديقاتى .

فقالت « جان » وهى تضحك كاشفة عن أسنان بيضاء حادة :  
« ومع ذلك فأننى أعقر له ! » . وانصرفت ، غمكت الأنسة  
زوكليار وحيدة . وإذا ذلك لمحت باب الكنيسة مواربا . فمرت  
خلاله إلى المكان المقدس . ولم يكن تحت القباب — فى تلك  
الصباحة — سوى شخصين أو ثلاثة ركعوا فى العتمة متابعدين .  
ولكن مرجريت وجدت عناء فى أن تندمج فى الصلاة . . فقد  
راحت تصور — أحيانا — أية امرأة فائنة مستصير إليها تلك  
الصبية الخفيفة المرححة « بعد ثلاثة أعوام أو أربعة . . وكانت  
تعبس أحيانا أخرى ، حين تتذكر أخاها موريس . . وتشتمل  
. فى أحيان ثالثة — وجه أيتها المغمم بالقلق . . أما نفسها .  
فلم تفكر فيها مطلقا ! . . وتملكتها الدهشة ، وهى على عتبة  
الكنيسة . من أن أفكارها لم تفس قط خعليها ، ولا نفسها !  
ودبت فيها شجاعة جديدة ، فمطلت عائدة إلى مكتب فرازن .  
وفى هذه المرة أيضا ، أتت أن تطرق باب مدام فرازن . حتى  
إذا أمقتها الحيل . سلطت مالهزيمة . وفيها كانت تسير فى  
شارع ابوانى راجعة إلى دارها ، تجلى أمامها برجا دار  
المحفوظات والحصن . فى ظل رقعة من السماء التى أسبغت  
عليها الشمس الجانحة إلى الغروب حمرة . . وفى وهج الشمس  
الخايب . تبدى هذان الأثران . . من آثار الماضى — فى أبهى  
جلالهما . وكأنهما يمرضان روعتهما قبل أن يغوصا فى الظلام !  
.. وكانت الأمسية من تلك الأمسيات البديعة التى اختصت  
الطبيعة الخريف بها ، وقد اتسمت ببهاء رائع يجعل الإنسان  
يشعر ازاء بضعفه . . كما كانت الحالة من لحظات التسمو  
والمنظمة التى تنسق الفناء . . نساء النهار !

واخذت الفتاة بهذه الصورة الرائعة التي ارسمت على صفحة السماء ، ولكنها غدت السير إلى دار الأسرة العتيقة بدلا من أن تتمهل لتستزيد من مشاهدة المنظر . وسماعت بمجرد أن بلغت الباب : « هل عاد موريس ؟ » .. فأجابتهما الخادم : « لا يا آنسة ، لم يعد بعد . ولكن السيد ينتظر » .. وبادر السيد « روكيفار » - الذى سمع الحديث - إلى فتح باب غرفته لاستقبالها ، هاتفا : « ما وراءك يا مرجريت ؟ » .. فأجابته : « إبتنى لم أجده يا أبت .. وكان فى المصارنين اللتين تبادلتهما الأب والأبنة كل الحزن الدفين . مع شعور بالخوف من كارثة توشك أن تنقش .. كارثة أمدح من ذلك النوع الذى تثيره نزوات الشباب » من جوار السلطان الخارق الذى رايها مدام فرازن تفرضه على موريس !

### ٣ - هضبة « كالفير دى ليمنك »

ما أن غادر موريس روكيفار دار أبيه . حتى اجتاز البلدة « ويم لفور » شطر هضبة ( كالفير دى ليمنك ) . حيث كان على موعد مع مدام فرازن . وكان اختيار هذا المكان تحديا منهما للناس .. فقد كانت الهضبة تشرف على ( شامبيرى ) ، وتشاهد من أى مكان فى البلدة . وقد كانت فى الماضى صخرة عارية ، ذات قبة عسكرية كبيرة ، حتى لقد اقيم فوقهما - فى عهد الدوقات السابقين - مركز لتبادل الإشارات باللهب مع المركزين القائمين على جبل ( ليين ) وجبل ( روش دى جيت ) السامقين « حيث كان يرباط حراس الحدود الفرنسية



كان على موعد مع مدام ( فرازن ) .. وكان اختيار هذا المكان

تحديا منهما

www.dvd4arab.com

ذوو لباس . أما اليوم . فمن السهل بلوغ الهضبة خلال طريق صاعدة ، تبدأ عند صاحبة الريتل . ومنذ نرى الخطوط الحديدية ، تحف بها من أحد الجانبين جدران شائعة لدير عتيق ، ومن الجانب الآخر منازل شعبية ذات طابق واحد ، نأذا جاوز المرء نطاق هذين السياحين المحيطين بالطريق . وجد نفسه في وسط ريفي ، وتبين أمامه الهضبة الصغيرة . لا تتوجها استحكايات عسكرية — كما كانت في الماضي — وإنما تقوم عليها كنيسة تبدو عن بعد مكشوفة لسلسلة جبال ( ريفار ) و ( نيفوليه ) ، فلا يحيطها سوى سياج رقيق من نباتات اللولج ، والأعشاب النجيلية . وهناك طريق صاعدة أخرى غير مكتملة التعبيد ، وتغلغلها أكواخ خالية . وفيها عدا ذلك ، كان المكان مهجورا . لا يصادف برتاده أحدا . وإن رؤى هو على البعد ..

أما كنيسة كالفر الصغيرة . ذات النبط البيزنطى . فكانت تتألف من قبة ، ورواق قائم على أعمدة أربعة ، وترتفع فوق مستوى الأرض بوضع درجات ، وقد دفن تحتها — في سنة ١٨٣٩ .. أحد أساقفة اشاميرى . وتحت قبره في الصخر . وفيها عدا ذلك ، كان باقى الكنيسة خاويا .

وما أن بلغ مورييس بداية سباج الطلح . حتى تبين إنسانا جالسا على السلم : بين أعمدة الكنيسة . كانت مدام قوارز في انتظاره ، فلم يحفل بأقصان الطلح المحيطة به . في لونها الذهبي الباهت ، ولا اكتراث للجبال البنفسجية التي امتدت أمامه تحت أضواء الخريف ، إذ لم يعد يرى سوى تلك الحائسة

وقد حفت بها أعمدة الكنيسة كالإطار ! .. وكانت تعتمد بمرقتبها على ركبتيها ، وتحتوى وجهها بين راحتيها اللتين لاحتا تحت الشمس وريبتين ، شفافتين . . وجلست ساكنة ترقبه في اقترابه بعينين متقدتين . فلما دنا منها ، نهضت بحركة مفاجئة ، كحيوان يبدو وادعا ، ثم إذا به فجأة يقسود كتلة من الأعصاب المتحجرة !

وبادرنه قائلا : « خشيت ألا تأتي ، فكأنما توقفت حياشي عن استرسالها ! » . فقال : « لقد أخرجنى عائق يا أدبك » . وكان بادى الاضطراب حتى انها اشفقت عليه فلم تعاتبه ، وإنما أمسكت بيده ، وقادته إلى ما وراء الكنيسة ، فأشارت إلى عشب متكاثف ، وظل وارغ ، وقالت : « هل لك في أن تجلس هنا ؟ إن الجو ليس باردا ، والمكان مريح » . . وجلس متجاورين وقد اسندا ظلميها إلى جدار الكنيسة التي كانت تفصلهما عن ( شاميرى ) والعالم . ولم يكونا يشاهدان في مواجهتهما سوى جبال ( نيفوليه ) المسابحة في الأضواء . والتمسقت المرأة به لتجلو معالم وجهه ، وهتفت وكأنها تشكر إليه ضئلا : « لكم احبك ! » . . ألم يكن حييها مبعث ضفر ومثقة في آن واحد ؟ .. وكأنها قد رفعا كل كلفة بينهما . ورغم انها لم يكونا قد أصبحا بعد خليلين . . وتراجعت المرأة قليلا لتتأمله . ثم تساءلت : « هل تعاني الما ؟ » . أو هذا بسببى ! .. فروى لها بإيجاز ما جرى بينه وبين أبيه وما ذكره هذا من اكتشافاته سم غرامهما ، والمتاعب العسيرة التي ترقبهما . ثم استطرد متسائلا : « فلماذا تترننا ناعلين لا .. »

وردت بدورها : « أجل ، ماذا تارانا فاعلين ؟ إن سرنا لم بعد قاصرا علينا ، ولم أعد من ناحيتي قادرة على إخفائه » . فردد هو الآخر ببرارة : « لم يعد سرنا خافيا .. ومع ذلك فانك لم إتسلميني نفسك قط ! » .

وإذ ذاك أسندت رأسها إلى صدر الشاب ، وقالت في صوت لين ، تمنى نبراته القلب كما تمس الأصبع وتر الآلة الموسيقية — وكأنها تهدد بهذا الصوت اللين قلبه : « لا ترغم اننى لم أسلمك نفعي .. اطلبتها وأبعتها عليك ابها الخبيث ؟ أتريد أن نبدا ؟ .. إننى لك .. إنك لم تزل شاسيا في حين أنى أبلغ الثلاثين عما قريب .. ثلاثون عاما ، ومع ذلك فان غرامى الذى يعادل حياتى كلها لم يولد إلا منذ بضعة أشهر ! .. لقد كتكت أنظر إليك ، فأرى الشمس تغمرك ، ومن ثم خرجت من الظلال لأتضم إليك . ولسوف أروى لك يوما قصة طفولتى وزواجى ، حتى أرى دموعك حين يهزك الام ! » .. وهتف الشاب : « ادبث ! » ، وقالت : « آه ! إن النساء اللاتى لم يكن الزواج بالنسبة لهن سوى باب ينفذن منه إلى النور .. وليس إلى السجن ! — يتسلبن بازدرء ضعفا .. ليس من الطبيعى أن يكن أكثر منا رضى بالقدر لأنه أكثرهن ؟ .. ولكنهن لا يفكرن قط في ذلك ، فكان الهناء حق لهن لا نزاع فيه . ومن ثم فهن لا يبذلن جهدا لمسانته ، فإذا فقدنه انتابن يتهمن القدر ويمسطن عليه دون أن يامن أنفسهن ! » .

فقال : « ادبث ! إننى احبك ، ومع ذلك فانك لست سعيدة ! » .. وإذ ذاك نهضت نصف واقفة ، واحتوت وجهه

بين راحتها في وله ، وقالت : « امنحنى سنة من حياتك في مقابل حياتى كلها ! .. اتقبل ! هيا ، لنرحل وننسى كل شيء . نلست أريد أن امضى في الكذب .. لا أريد أن أكون لغيرك .. لا أطبق ذلك ما دبت لك » . ووثبت واقفة . وكانت الهضبة تنحدر انحدارا حادا ، على طريق (أكس) ، في بقعة غير بعيدة عنهما — خلف الكنيسة — فافتقرت منها لتطل على الفراغ الجاتم تحتها . وصاح موريس : « ادبث ! » .. فعلمت إليه هادئة ، مبتسمة ، وقالت وهى تجلس بجانبه : « إننى احب الدوار ، ولكنى لا أحس به إلا هنا ! » .

\*\*\*

وعادت إلى الحديث عن المستقبل قائلة : « إن سرنا أصبح معروفا . ولسوف يعلم به زوجى عما قريب ، بل لعله يرتب في أمرنا فعلا . وهو يحبنى بطريقته التى تثيرى ! بل إننى لواتقة من أنه يراقبنا » ومن أنه سينتقم منا ، وسيرسوم انتقامه على مهل ، كما يفعل في كل أعماله ! .. « .. فهتف الشاب : « اسمعى يا ادبث : يجب أن تحصلى على الطلاق منه ! .. فمأحت : « الطلاق ؟ .. لقد فكرت في ذلك ، ولكن ماذا ترانى فاعلة إذا عارض زوجى في الطلاق ؟ .. ولسوف يعارض ! فضلا عن أن طلب الطلاق يستغرق دائما عاما أو اثنين ، أو أكثر ! ولسوف اضطر خلال هذه المدة إلى الإقامة مع اهلى ، بعيدا عن هنا ، وإلى أن اظل دائما في انتظار . تصور .. عامين آخرين في السجن ! .. لسوف أصبح بعد ذلك عجوزا . وسأفترق عنك طيلة المدة .. أفترق عنك ، فهل تفق

ذلك ؟ .. لقد درست الموضوع كما ترى ، فإذا به مستحيل ! » .  
وسكت الاثنان « وقد مال كل على صاحبه . لا يعكر الصمت  
الذي لفهما سوى ذلك النداء الصامت الذي كان ينبعث من  
أعماقهما ! .. وفجأة ، أحسا بحركة عند نهاية الجدار القريب .  
فانتفضا . وتقدم موريس : « هناك شخص قادم ! » فأجابته  
في جراحة : « لفتق حيث نحن ! » .. وبقيتا ، كان مصيرهما في  
أيديهما فقط ، وليس بوسعهما في تلك اللحظة أن ياتهما  
عليه سواهما . ولكن القادم الذي خشيا أن يكشف سرهما  
لم يكن سوى عنزة ! .. عنزة كانت تلتهم الحشائش القليلة -  
وفي أعقابها صبية أمسكت بعضا . ورمقتهما الصبية في غيابة .  
ثم تابعت سيرها - فمشعرا بالأسف لأن المفاجأة لم تكن ذات  
نتائج تحل قضيتهما حلا لا رجعة فيه !

وأخذ الوقت يمر دون أن يستقر موريس على رأى : هل  
يستهران في حمل الأغلال الثقيلة وهما يتحدران في علاقتهما ،  
أو يحطمان القيد ويبضيان في غير حذر ولا حيلة ؟ .. ومالت  
المرأة على موريس تقرا في عينيه ما كان يدور في نفسه .  
وقامت : « لماذا تروغ عيناك - عيناك الحبيبتان - من  
نظراتي ؟ » . فتشهد وهو يرخى جفنيه وقد أحس دوارا كذلك  
الذي غشيته حين رأى المرأة تطل على الهاوية . ثم قال :  
« لست أدري ! » .. وتحولت تقبل أهدابه . قائلة في عذوبة  
انطوت على قرار جرى : « إننى أحس بقلبي يتحكم في عذوة  
الأيام الذهبية ، أيام الخريف .. وكل مساء يهبط يحمل لى  
الما ، وكان قسما من سعادتي يسلب منى بلينا .. سأرحل  
الليلة ، فهل تفقه هذا ؟ » .

وانتفض موريس عند سماعه القرار غير المرتقب ، فتخلص  
منها . وهتف : « صه يا أميت ! » .. ولكنها أجابت : « لعلك  
كنت تظننى انتظاها بتهديتك ، حين كنت أقول ذلك في الأيام  
الآخرة .. ولكنك تخدع نفسك يا موريس ، وسأرحل  
الليلة ! » .. لقد كانت تخبره بالسفر من قبل ، فكان يستعد  
هذه الفكرة المسيرة التحقيق ، وبينها بأن يرحل هو أولا ثم  
يستدعيها بعد أن يتمكن من العثور على عمل في باريس . فلما  
رأى نفسه أمام هذه الوثبة المفاجئة ، التى تفوق سابقاتها  
عتقا وإصرارا ، تولاه الغضب والانفعال ، وتحول يضرع بكل  
قوة ورجاء : « صه ! .. سامكت هنا معك .. إننى أحبك ! »  
.. ولكنها عادت تقول للمرة الثالثة وقد ازدادت حماسا  
وعنادا : « سأرحل الليلة .. إن القطار الذاهب إلى إيطاليا  
يرحل في منتصف الليل .. وفي منتصف الليل سأتحرك من  
كل قيد ! » .

وفرك موريس يديه في قنوط ، وهو يردد : « اسكتي ! » ..  
ولكنها مضت مسانفة حديثها : « سأغدو حرة في إعلان حبى  
.. حرة في أن اتذوق هذه المنعة الجديدة .. مشعة اليكساء  
دون خوف إذا لم تكن إلى جوارى .. حرة في أن أعبدك إذا  
جئت معي ! » .. فهتف : « ناشدك الرحمة ! .. هلا مكن ! » ..  
ولكنها مضت قائلة : « إننى أختق في بلدك ! .. إن منازلكم  
العتيقة مفعمة بالروائح العطنة .. إننى أختق لفرط عاطفتى  
كما ترى . لسوف نظل منفصلين لو أننا مكثنا هنا ، ولكنى  
أريد أن استمتع بعذابي إذا أنت لم تصححنى ! .. أيا إذا

أنيت ، فسانقسم أنفاس الحياة .. فهلا أنيت ؟ هل تأتي الليلة ؟ » .. وسعت بقبيلاتها إلى إقناعه ، فوعدها .

وبكثت لحظة تستمرى لذة انتصارها ، ثم غفمت : « لقد نسيت كل حياتي الماضية ! » .

وقادته بعيدا عن الجدار الذى استترا وراءه إلى وضع الشمس ، أمام كنيسة الهضبة . فما جدوى الاستتار ؟ .. وفى نشوة ، رآيا الأرض تنبسط أمامها ، تحت السماء الصافية ، فى صورة مثالفة .. وأمامها - عند أقصى الأفق البعيد - بدت ثم جبال الالب الصفرى : ليه سينلو - وبيرلاتى - وجران شارنييه ، كوشى رقيق باهت تخلل الفضاء بين جبال اجرائنيه وهضبة ( لاروش دى جيت ) ، وقد توجتها ثلاثع اللوج . وأضفى عليها النهار غلالة وردية . وعلى مسافة أبعد - إلى اليمين - بدت سفوح ( كوربيليه ) و ( اليبين ) المكسوة بالغابات . يشقهسا طريق ( ايشيل ) ، وقد لاحت ككب روسى . فراؤه منسوج من الغابات التى احرقتها شمس الخريف .. وقامت أمام هذه السلاسل الجبلية تلال رشيقة جللتها الأزهار .. تلال ( شارميت ) و ( مونتانبول ) و ( اسان كاسان ) و ( غيمين ) ، التى كان البصر يتهالك مستريحا على منحنياتها البسيطة ، وتموجاتها الفاعمة .. وكانت أفواج من النور تتسلل خلال منعطفاتها ، وتلمع وسط الغبار فى ظلالها . أما أبراج الكنائس المشوقة كالحراب ، وأشجار الحور ذات الخضرة المشوبة بلون الذهب ، فكانت تبدو كخطوط تزين المنظر . وبدت ( شامبرى ) راقدة فى السهل ، كما لاحت

الكروم - التى امتزجت فيها الألوان الذهبية القائمة والوهاجة - كأنها زغرودة تجلجل فى الفضاء .

وهتفت أنيت فى ضراعة : « أرنى أين تقع إيطاليا ! » . غاشر فى غير اكتراث إلى اليسار ، ولكنها التفتت إليه - بدلا من ان تتبع إشارته - فمات وجهها مقفلا بالضنى ، وظلت صامته . إذ أدركت ما كان يخالجه .. كان يوسعها ان تعجب بهذا البهاء الطبيعى إعجاب أى سائح عابر ، ولكن هذا لم يكن شعور زميلها . ألم يكن ذلك هو الجهد الخارق الذى تبدله طبيعة بلادته لاستبقائه .. فقد تراعت له مزرعة البرج - ( لافيجى ) - وذكريات طفولته واضحة مشرقة ، تحلق محمولة فوق الأرض ، كالعصافير ، ميمية شطره .. وعلى مسافة أقل ، بدا له « بيت الأسرة » أمام الحصن .. ذلك الذى كان الكل يدعونه : « البيت » ، وكأن العالم لا يضم بيتا سواه ! .. وقرأت المرأة فى عينى موريس هذا الصراع الأخير ، فدخلها شيء من الغيرة ، إذ لم يكن لديها ما تضحى به مثله . وتنهت ، ثم مست ذراعه قائلة : « اسمع .. دعنى أرحل وحدى ! » .

وضايقه أن تكشف لها ما كان يدور فى قرارة نفسه من اعراضات غريزية بهيمة ، فقال : « لا ، لا .. أتركك لم تصودى تحيىنى ؟ » .. فهتفت : « بل إننى احبك ! » .. وابشمت له فى عذوبة ضافية ، لم ير لها مثيلا ، وفكا لهيب عينيها .. كانت من نساء اليوم : مشبوبة « الإخلاص » ، جالحة النزوات ، وقد ضسقت فجأة بالصبر الذى التزمته صامته تسع سنوات ، فمعدت وهلا على أن تشتت غيبه



الذى راح يقيم : « إنتى أحبك حتى الموت » .. وهتفت :  
« نقطه .. إن حى يفوق حبك ! » ..

.. مستحيل :

.. بل هو الحق : أحبك حتى الإجرام !!

واردفت فى غير اكتراث : « ساحل معى صداقى ، الليلة » ..  
وعنا تذكر هواجس أبيه . هتفت : « صداقتك ! » .. قالت :  
« أجل . إته مثبت فى عقدى . ألم ارك إياه ؟ » .. فقبال :  
« ليس من حقه أن تأخذه إلا بحكم قضائى » .. ولكنها مساحت :  
« أو تريد أن أدع لزوجى ما هو حق لى ؟ » .. وكيف نعيش ؟  
.. فاجاب : « ساحصل الليلة على بعض المال يا اديت ، ولن  
البت أن احصل على عمل فى باريس ، فقد وعدنى صديق ،  
يدير أبوه مصنعا كبيرا . بأن يعيننى فى قسم القضاييا بالمصنع ،  
وقد ذكرته بوعده منذ عهد قريب ، بمجرد المصادفة ! » ..

ولم نشأ المرأة أن تخفف من تفاوله « فقالت : « أجل ،  
لسوف تعمل . ولكننا سنصل إلى باريس فيها بعد . أما الليلة  
فسفرحل إلى إيطاليا » .. فتساءل : « ولماذا ؟ » .. وإذا ذاك  
اجابته : « الأيست هى قبله المتزوجين فى شهر العسل ؟ » ..  
وشكست رأسها فى استنهايه ، فبدت فجأة كخطيبة عذراء فى  
الثلاثين من عمرها ، تبدل أساريرها بسرعة من الحرية إلى  
رأية الطفولة ! .. كانت تعيش الحياة بنواجذها فى نهم ، كما  
يعيش المرء المائكية الفجة . فيضرس ! .. وأخذ الظلام يزدحف  
على السفلى . فاردت غتلة الطير ..

زوجها الطارئة لتفر من سجن الزوجية ، مهما يكن الثمن ! ..  
ولقد تأعبت لمغامرة انفرار فى هذه الظروف المواتية . وأحسنست  
اختيار الساعة . وها هوذا انتفعال موريس وحيرته يكادان  
يلقيان به تحت رحمته ، وفى قبضتها . ولكن ، أى العاطفتين  
أقوى فى نفس غناها : أن يشاركها مصيرها المحتوم المخوف  
بالخطر ، أو أن يبقى فى بيئته الطبيعية ؟ .. لقد كانت تحتل  
حياتها قبل أن تحبه . ولكنه بث فى نفسها روح التمرد دون أن  
يدرى ، فكيف تفارقه ؟ .. كان الاقتراح الذى تعرضه عليه  
يحطم فؤاده . ولكنها مع ذلك ترضى فى إصرارها . .. إنها لم  
تعان قط هذه الحيرة التى تنفذ إلى أعماق النفس . فتفعل بها  
ما تفعله الشمس الحامية بصحراء رمنية باردة :

وعادت تقول : « لن تلبث أن تنسأنى رويدا . وعلى مر  
الزمن . فلا تعارض ، واصغ لنصحى . إنك ما تزال غتيا .  
تنسب أمالك الحياة على رجبها ، فعدنى أرجل ! » .. ولكن  
هذا العطف المشوب برئاء جارح أثار حنقه .. ما الذى يمنعه  
من الرحيل معها ؟ أهو عقله ؟ ، العقل الذى لم يتجاوز عمره  
أربعا وعشرين سنة ! .. ألم يهده هذا العقل إلى أن لكل  
امرئ حقا فى السعادة ؟ .. وغمغم موريس أخيرا : « لست  
راغبا فى الحياة دونك ! » ، فعادت تقول : « سأبقى إذا كنت  
تؤثر ذلك ، وسأريك كيف اتعلم أن أحدى الكذب . فان الإنسان  
لا يتورع عن كل الدعائات فى سبيل حبه ! » .. ولكن هذا  
الاقتراح جاء بعد أوائه . وكانت تترك ذلك . وتتوقع أن  
يرغضه . فما أن فعل ، حتى ألقت بنفسها على صدر حبيبها

عليها شمس المغيب غلالة ذهبية .. وكانت ليالى الخريف البديعة تثير في المرأة لوعة كلوعة الشهوة . نهضت تمنى نفسها : « غدا .. غدا ! » . وخطا موريس إلى الأمام . ووليا النظر ظهره ، حتى لا يرى مسواها .. سوى فائتته التي استندت إلى أحد أعمدة الكنيسة . لقد أصبحت بعد قرارهما وطنه الأوحـد !

وهبطا الهضبة معا ، فساراجنباً إلى جنب حتى جسر (ريكلي) غير عابئين لما يعرضان له إذا رآها أحد من معارفهما .. وقالت المرأة عندما هما بالانقراق : « لقد أوشكت الساعة على الخامسة ، وما تزال أماننا سبع ساعات » .. وأدنى الأمل لهيب عينيها ، بينما استعرض موريس — في استمزاز — تلك الساعات القاسية التي يتحتم عليه أن يخون أسرته فيها . وأدركت المرأة ما كان حبيبها يعاينيه ، فرثت له ، وقالت — تبعد مقدما ما قد يعترضه من مؤثرات : « هل تقوى على الكذب ليلة بأسرها يا طفلي المسكين ؟ » .. فانقضض إذ فطن إلى أنها كشفت ما بنفسه ، وكرر — في شيء من الخشونة — ما قالته من قبل : « إن الإنسان لا يتورع عن كل الدناءات في سبيل حبه ! » .. فقالت « سترى أن الكذب بشع . فقلتمس ذلتي وهذابي .. فأننى اكذب منذ احببتك ! .. تشجع . وإلى اللقاء الليلة ! » .

\*\*\*

وأصرع موريس — قبل أن يعود إلى البيت — إلى السعي للحصول على المال اللازم .. ومن عم أيه « اتبين روكييار »

— الطاعن في السن ، والمعروف ببخله — ومن عمته « تيريز » . النقية ، المحسنة ، حصل على ما يقرب من الفه فرنك .. واخذ من أخته — مدام مارسيلاز — خمسمائة فرنك « ومثل هذا المبلغ من ريمون بيرسي ، خطيب أخته .. وتعال في سبيل ذلك باضطراره إلى سداد ديون كان قد اقترضها أثناء الدراسة . وكبحته هذه الخدعة ضعة وهوانا قدمهاا قربانا لحبه ، وإن لم يجد من ضميره ارتياحا ! .. ولم يفلن في هذه الأثناء إلى أن أحدا من معارفه — غير الأقارب — لم يبسط له يد العون ، وهو يدور عليهم مستجديا ، في حين أن أسرته ساعدته — في محضه المتعملة — عن طيب خاطر .. وأن أيسة خشونة بدت منهم كانت مبراة من كل حقد !

وقفل راجعا إلى مكتب فرازن في الساعة السادسة ، فإذا الموظفين بوشكون أن يفلقوا الأبواب منصرفين ، ففسال لهم : « انصرفوا أنتم ، فأننى ساكتب بعض الخطبايات ، ثم أحكم إغلاق الأبواب ! » .. وكتب بعض الخطبايات فعلا ، لمعارفه الذين كانوا يشغلون مراكز هامة ، يسألهم العون في الحصول على عمل ذي مرتب طيب ، في باريس . ولما كان قد تفوق في جميع الامتحانات ، فقد اعتمد على توصية أساتذته السابقين . ولم يكن قد تعرض من قبل لصعاب الحياة ، ولذلك وضع ثقته في كفاءته العلمية ، ولم يخافه ريب في التغلب على كل العقبات . ولكن ، إلى أين يرسل أولئك الناس ردودهم ؟ . وتردد قليلا ، ثم حدد العنوان : « يحفظ بشعبك البريد ، ميلان » !

واستطاع مورييس بهذه الاستعدادات التي شغل بها أن يخذل نفسه ويروغ من النعم الذي كان يسأوره بسبب الرجل . على أن هذا التسدم عاوده ، حادا نقادا . عبقها اضطر إلى اجتياز مدخل دار ابيه للمرة الأخيرة . ومع انه تسلل إلى غرفته وأغلقها دونه « إلا أن الجميع أحسوا به . فلما حانت ساعة العشاء ، أقيلت مرجريت تدعوه ، نادا به «منهد برأسه على يديه ، تحت المصباح . وقد استغرق في الأفكار إلى درجة جعلته لا يسمع طرقاتها . وامسكت الفتاة بيديه في حنان « فتأمل لهذا التطفل منها . وسألته : « ما الذي يحزنك يا مورييس ؟ » « نجاحي في اقتضاب : « لا شيء ! » . . . ولكنها عادت تقول : « إني أختك الصغرى ، فهلا بنفسى أساك ! . . من يدري ؟ لعلنى لا أخلو من نفع لك ! » . . ولكى ينتحل لهيومه عزرا مقبولا ، تملل بشدة حاجته إلى المال ليفى بعض المطالب ، فاستوقفته الفتاة لغورها قائلة : « انتظر دقيقة ! » . وفادرت الحجرة ثم عانت بعد قليل منهلة . ووضعت أمامه على المصدة ورقة مالية من فئة الألف تركك . وهتكت : « أيكيمك هذا ! لقد أعطاني أبى ثلاث ورقات لجهاز عرسى ، فبقيت منها هذه ، لحسن الحظ » . . . وعقب مورييس : إنك حمقاء يا مرجريت . . لا أريد شيئا .

— لا ، لا ، لا . خذها ، فاني أسر لذلك . ولن يصيرنى أن ينقص جهازى بضعة أمشة !

وضحكت ، فشعر بأعصابه ترتجف ، وبالذبوع تبلغ حواف عينيه . وبذل جهدا حتى كبجها ، ثم ضم الفتاة إلى صدره . .

إلى القلب الذى لم يكن قد آل بأكمله بعد إلى مدام فرازن . وضمتم : « تولينى حيك دائما . معها يحدث ! » . . غططعت إليه متسائلة . ولكنها خشيت أن يظلمها راغبة في معرفة سره ، في مقابل كرمها ، ومن ثم اقتادته إلى قاعة المساندة ، وهى تسر إليه في رفق ، وكانها تبتهل : « كن لطيفا مع الاب أزدد حبا لك ! » .

وكرغت الأسرة من العشاء دون أن يقع ما يعكر صفوها . وكان الفصل في ذلك لريمون بيرسي . إذ أن وجوده بسر لقاء مسيو روكمبار وابنه دون عتاب . وحين تقدم المساء ، آب مورييس إلى حجرته مغعلا بأنه يشكو صداعا . وعرج في طريقه على سخدع أمه . التى ظلت ملازمة غراشها . فقبلها في الظلام ، ولكنها عرفته من ملمس شفتيه . فتهتفت باسمه ، وراحت تتحسس وجهه . ووافقت من عينه دموعه ، فبادر إلى الخروج . . ما أقسى ما كان الحب يكبده !

واعد حقيبة ملايسه . متعمدا الا يتخبرها حتى يسهل عليه حملها بنفسه ، ثم أودع حافظته ما كان لديه من نقود ، والمبالغ التى اقترضها . وورقة مرجريت ، فزاد مجوعها قليلا على خمسة آلاف من الفرنكات . وخيل إليه — خبرته الضئيلة بالحياة — أنها ثروة طائلة ! . . كذلك أخذ ما كان يملك من جواهرات قليلة . على أن يفيد من بيعها . وإذا انتهى من استعدادده ، أخذ ينتظر كسجين قضى عليه بالاعدام . . فهو يرتقب ساعة التنفيذ . وأخذ عقله — الذى كان يؤمن بعصمته من الخطأ ! — يؤازره في قراره . وبين له الحياة المتحررة من

كل الالتزامات ، بعيدا عن البقاء في حلقة آل روكيار ، كأصغر ابنائها !

\* \* \*

أوى السيد روكيار إلى مخدعه وقد اطمأن إلى مسلك موريس ، وما أبدته ابنته من ثقة ، فلم تخالجه الهواجس ، لا سيما وأنه كان قد قرر أن يقضى ابنه عن ( شامبيري ) نهائيا . فقد كتب إلى صديق حميم ، كان روكيار يئبىه بعدة افضال ، وكان قد استقر - بعد أن جاب الدنيا واستنفد كل ثروته - في تونس « حيث عمل في المحاماة » فنجح نجاحا كبيرا ، وكتب مرارا إلى روكيار يعرب عن حاجته إلى مساعد يكل إليه أعماله ، رغبة منه في أن يستريح . ائتم بكن من السهل على ابنه - وهو بعد في الرابعة والعشرين - أن يجد في مثل هذا الاغتراب ، وفي مثل تلك الحياة بما فيها من جادة وطرائف ، ما يمكنه من النسيان والنجاة ؟!

وخيل إلى السيد روكيار - في هدوء الليل - أنه سمع بابا يفتح ثم يغلق . وظن في البداية أنه اخطأ السمع . إذ كان الصبح يخيم على الدار ، فحاول العودة إلى النوم . وبعد مقاومة لنفسه ، أشعل عود ثقاب ليتعرف على الوقت . فاذا به قد تجاوز منتصف الليل بنصف ساعة . وما لبث أن نهض بمفادر مخدعه ، ولما في نهاية الزدده بصيصا من النور يتسرب من تحت باب موريس ، فدنا من الحجرة ، وأصاخ السمع . فلما لم يلاحظ أية حركة ، طرق الباب . ولكنه لم يلق جوايا .

وتردد قليلا ، ثم ولج الحجرة ، وهو يقول لنفسه - ليخفف من حدة القلق الذى ثلوه - : « لعله نسي أن يطفىء المصباح ! » .

وتبين لأول وهلة أن السرير كان خاليا لم يمس ، وصوان الملابس كان خاويا . فعاد إلى حجرته . وارتدى ثيابه في عجلة ، ثم ركض كشاب - يزعم أعمامه اسمين - نحو المحطة . وكان موعد القطار السريع المذهب إلى إيطاليا قد فات ، ولكن كان ثمة قطار آخر يتجه صوب جنيف . وأنبأه موظف بالمحطة كان يعرفه بأن موريس قد رحل « معها » . وأنهما ابتاعا تذكرتين إلى ( نورين ) . وأطلق الأب صيحة تشبه الصوت الذى ينبعث من الحديد حين تمسه المخلوطة لأول مرة . ولكنه كان كالحديد صلابة ومقاومة . فلم يلب تحت مطرقة القدر ، وإنما احتفظ باعتدال قائمه . دون أن ينهار ! .. فان من ينحدر من اصل كاصله ، ومن أسرة كآسرتة ، لا يمكن أن يهوى أمام زلة من زلات الشباب . لسوف يسترد ابنه ، إن عاجلا أو آجلا ، فيعيده إلى نطاق الأسرة . . او لعل القدر هو الذى يتشكل بإعادة الابن الضال . . وقد يكون هو - الأب - من الضعف بحيث يقتنع بأن يذبح عجلا سمينا احتفاء بعودة الابن ، بدلا من أن يوجه إليه اللوم والتقريع ، على ما ورد في الأسطورة القديمة ! .. وإن بيت الأسرة لهو المكان الذى يضيد فيه المرء جراحه ، والذى يلجأ إليه موقنا من أنه لن يرد عن بابيه ! .. ولقد يهجر الزوج زوجته ، والزوجة زوجها ، ويمق الأبناء آباءهم وأمهاتهم فيهجرونهم . ولكن الأب والأم لا يهجران على النخلى عن طفلهما . ولو تخلى العالم كله عنه !

وبدت البلدة - في ضوء القمر - كجثة هامدة .. ونردد لوقع  
قدمي السيد روكفيار - أثناء عودته - صدى نجواب في ذلك  
القفر الموحش . وفيما كان يسير في شارع ( بوانى ) رأى  
الحصن وقد رفع أمامه برجيه النساقيين اللذين زادهما الظلام  
تطاولا وارتدعا ، وأبصر في مواجهة القصر شجرة رسبت  
الظلال صورة لها على الأرض . لسوف تستيقظ البلدة بعد  
ساعات قلائل . لتطلق الضحكات الساخرة الشامتة . حين  
تعلم بالمأساة التى حلت بال روكفيار !

وبلغ السيد روكفيار داره . فما أن فتح الباب « حتى لمح  
لطيفا أبيض مقبلا عليه .. تلك كانت مارجريت . التى بادرت  
بمسألة في انزعاج : « ما الذى جرى يا أبنا ؟ » .. ولما لم  
تكن زوجته قادرة على أن تكون بجواره ، فقد رأى أن يشرك  
ابنته في حمل اعباء المحنة الفادحة . وكان يقدرها إلى درجة  
نحله على ألا يخفى عنها الأمر . فتمتم قائلا : « لقد  
سافرا ! » .. وتذكرت إذ ذاك أمنية أخيها التى همس بها إليها  
وهو مهوم ، فنهت ما جرى . وهتفت منهدة : « أه ! » .

ومرة أخرى . تعانق الاب والابنة . وضم كل منهما الآخر  
إلى صدره . وقد ربط بينهما الأسى المشترك . وما لبث الاب  
أن قاد ابنته في رفق إلى مخدعها ، ثم قال - موصيا إياها قبل  
أن يتركها : « لنضع الأم نائمة يا صغيرتى . فلنوف تعرف  
آلامنا مهما يطول الأمد ! » .

## ٤ - انتقام الأستاذ غرازن

وهبط الأستاذ غرازن من قطار الساعة السابعة الصباحية صباحا ،  
في ١ شابييرى . وقد حمل حقيبة صغيرة . وتذكر بمعدله  
اتقاء لبروده الصباح . وغذ السير إلى مسكنه الذى غاب عنه  
يومين . وأحرت لفورده - للارتباك الذى اعترى الخادم انتن  
فتحت له الباب - أن شفيها ما قد جرى « أو كان يجرى في  
منزله . كان رجلا قد ناهز الخمسين . ما يزال محتفظا بصحته  
.. كما كان مسقيها . غائر الطباع ، ممتازا في صفاته . بيد  
أن نفسه الغليظين . بل وعينه البراقتين المحتجبتين خلف  
نظارته - كانت تثير شعورا من عدم الارتياح في النفس .. ومع  
انزعاجه الطارئ ، نأته سال الخادم : « هل كل شيء على  
ما يرام ؟ » والسيدة ل . « ناجيات الخادم في لهجة أنطوت  
على سخريه مستترة : « لقد سافرت السيدة مساء أمس إلى  
إيطاليا ومعها حقائبها ! » .

— إلى إيطاليا ؟  
— أجل يا سيدى  
— في أية ساعة ؟  
— في منتصف الليل

وتساءل في دهشة : « دون أى إيضاح ؟ » . فأجابت الخادم :  
« لقد قالت السيدة وهي منصرفة إن السيد قد أحبط علما » .  
تقال السيد غرازن في برود : « هذا صحيح » ، فاعدى لى  
الفتور في غرفة المكتب ! » . ودخل غرفة مكتبه - المصلة  
مكتب التوثيق - دون أن يبدي أية دهشة ، إذ ما جدوى  
سؤال هذه الفتاة المسكرة الجاهلة . على أن التباغر

الموقع ، الذى دوى فى اذنيه كطلق نارى ، لم يكن قد اثار غضبه بعد . ومن ثم لم يداخله سوى عجب مذهل . والجرح بهما يكن قاتلا : لا يبعث فى البداية اكثر مما تبعث الصدمة البسيطة ، ولا بد من فوات وقت قبل ان يثير الالم . وباعصاب متوترة ، وعينين حائضتين ، لح السيد فرازن على المتصددة خطابا وضع بشكل متعمد ، بل ومثير للتحدى . وامسك به دون ان يغضه ، محاولا التكهون بما فيه . . . كان يتضمن تفسيراً لهذا الرحيل ولا شك . . . هذا الجرح الذى تم فى غير اكثر من ولا مبالاة بالنتائج ! . . . فقد كان — برغم انقضاء تسع سنوات على زواجه — قابيل الثقة فى بزوجته ، بحيث بنت له كل التكهانات جائزة ومحتملة : اتراها فرت بصحبة احد ، ام هى نزوة متهووسة استبدت بها ولن تثبت ان تزايلها ف تعود الهاربة إلى حظيرتها لا . . . ولم يخطر بباله اسم موريس روكفيار . ولقد كانت مدام فرازن تسمى إلى الاستحواذ على إجاب الرجال ، وتجد فى ذلك ملهاة . . . وكان كل امرئ يتلفتها ويتقرب إليها ، ومن ثم فان فرازن لم يحتل جدياً بذلك السود الذى تبادلت فيه زوجته مع احد موظفى مكتبه ، برغم انه عرف — من الخطابات التى تلقاها من مجهولين — ان البلدة كانت تتحدث عن هذه العلاقة . فقد تملك ما يملك الرجال الناضجين من ازدياء للشبان الذين يلاحقون النساء ، ومن تشبه بأهداف الامل ، وثقة فى ان الزمن فى صنفهم . . . فهم — وقد جاوزوا الشباب — يميلون إلى الاعتقاد بان المرأة لا تبلى إلا لمن فى اعمارهم او ما يقرب منها ، لان العواطف فى رأيهم غير ذات قيمة ما لم تستند إلى إمكانيات ! وكان فرازن يعبرف كم حال

التمسب للأخلاق فى المريف دون تحقق كثير من شهوات القايون والفوايات . ونوق ذلك ، كيف يخطر بباله خاطر غير معقول ، كذك الذى يوحى إليه بان شابا مثل موريس ينفذ طواعية مركزا مربحا . ملائما ؟

لم يستفسر عقل فرازن افتراضا كهذا ، ولكنه وجد نفسه امام امر واقع . وهو الرجل الذى لم يكن يعنى بسير الموائع . وإذا اعياد هذا اللغز الذى لم تنفذ بصيرته إلى أغواره . ففص غلاف ابرمالة وقرا :

« سيدى : إننى لم احبك قط . وإنك لتعرف ذلك . إذ اية قيمة لقلب المرأة لدى ذلك الذى يملكها بعقد رسمى ؟! لقد اجتمعت هذه العبودية تسع سنوات ، لأننى لم اكن احب . ولكن هذا قد تغير اليوم : هانذا اناحرر مخلصاً ، بدلا من ان افسم نفسى بين رجلين . فمن الذى بموقنى لا . . . لقد كنت تبفض الاطفال منذ بداية زواجنا ، مع ان يد الطفل الصغيرة كانت كافية لان تغلنى بالقيود . . . اما الآن » فان بيتنا خال . وليس فيه من يحتاج إلى . ثم إنك قدرت قيمتى فى عقد زواجنا بمائة الف من الفرنكات . فملكك ترى ان من الطبيعى ان احمل معنى ثمتى . ولقد دفعت مثاليه شيابى . وإنى إذ اهجرسرك لاغيرك . فوداعا — اودع دانيمارى » .

كان كل شيء فى الحياة — حتى العواطف — لا يشتمل للأستاذ فرازن إلا فى شكل عقود والتزامات ، سواء اكان ذلك بحكم عاداته المهنية ، او بتركيب عقله المسادى الواقعى ! ولما كانت اخلاقنا تتحكم فبنا « حتى فى — امات الالم والعذاب : او

ساعات تردينا في المآرق ، أو ساعات النزع الآخر « كذلك كان فرازن ، فانه لم يشعر بالأسى إلا لفقدان زوجته ، وليس لضاياع نفوذه « برشم انه كان حريصا على المال . ولكنه حين اراد استعراض ماضيه ، وتفريخ كربه ، لجأ بغريزته إلى البحث في أحد الملفات عن عقد زواجه الذي اشارت إليه المرأة في رسالتها . وما أن لمح الوثيقة التي تحمل الخاتم الرسمي ، حتى تمثل في جلاء ذلك الغرام المشبوب الذي استتبد به في اواخر شبابه . ورأى بعين الخيال — عند مدخل إحدى الكنائس — غداة مشوقة القوام ، ملفوفة العود ، تم حركاتها وعيناها من النصار المتاجرة في اعماقها .. وكان ذلك في ( تروتش ) « موطن طفولته — بالقرب من جرينوبل — حيث اعتاد أن يذهب في عطلاته الصيفية من كل عام ، حين كان يتاح له أن يغادر باريس ، حيث كان يعمل رئيسا للكتبة لدى أحد الوثائقين . ولم يكن قد استقر بعد — برغم اقترابه من سن الأربعين — على تسرك باريس « واتخذ مكتب خاص في ( دوفيني ) .. المقامعة التي تقع فيها ( جرينوبل ) .

ولم يستطع ان يقاوم اعجاب ، مسرعان ما تحرى عن الفتاة وعرف أن « أديت دانيباري » تقيم مع أمها على مقربة من ( ترونش ) ، في منزل صغير ، لانت به المراتن وهما شبه معديتين ، بعد أن مات رب الأسرة الذي يدد تروته في الميسر . وقدر فرازن في نفسه أن غداة قروية لها مثل عيني أديت . لابد أن تكون قريبة هلة ! ولكنه ذلل عامين يلاحقها دون أن ينال منها ماريا .. فقد كانت ترتقب أمير أحلامها « إذ

كانت جامحة الطموح . وعندما سئمت الانتظار ، ألهمت الوحدة حيايتها .. ومن ثم صددت عزازن ، ولحنها حرصت على ألا يكون ذهابه دون عودة ، وكانت قد اكتشفت — دون دراسه — توهيها لذلك — فن الصدا المنطوي على وعد ، ومارسته على حساب ذلك الرجل الذي كانت مغامراته في الأوساط المتبدلة والمفرقة في المشهوات تجعله يرتبك ويضطرب أمام دلال كدلال أديت .. ومن ثم اعترف بالهزيمة ، إذ تخلت شهوته على مصلحته .. وكان قد فقد أبويه اللذين خلفا له ميراثا طيبا ، فقرر في النهاية أن يطلب رسميا اليد التي مسدته ، وهي نريه — في الوقت ذاته — المكان الذي يجب أن يتخذه خاتم الخطبة !

ولكن ، كيف يمرر خلال بنود العقد القانونية عن حبه .. لقد نص في أحد البنود على منحة قدرها مائة ألف من الفرنكات للزوجة المقبلة — التي يربطه بها العقد — لا تستولى عليها بعد وفاة المانح . كما جرت العادة ، وإنما تنتقل ملكيتها إليها فور إتمام الزواج . وكان هذا السخاء غير المألوف دليلا على ضيقه « وشهادة — تدعو للحسرة — على هزيمته .. فقد أخضع هذا السخاء البراعة القانونية للعاطفة المشبوبة !

وانتزعه من فحص العقد ، مقدم الخادم تحمل إليه « الككاو » . وكانت ترمق سيدها — من طرف عيناها — وهي تقوم بإحضار الفطور ، فادهشها أن تراه ممسكا بأوراق قضائية . وكان يقصص أحد الملفات ، والخادم ترتقب خلسة أساءه أو غضبه ، حتى تجد ما ترويه للبلدة . ولكنه أجهل البلاء رتبها ..



الافطاسر بغير استثناء ، وبدائع من ابدانته : أو لم يكن في حاجة إلى قواد بعد قليل ، حين يتحتم عليه أن يتخذ قرارا ؟ وبينما راح يحضى الشراب الساخن ، فرغ من استعراض سنى حياته الماضية .. استعرضها من وجهة نظره ! فقد كان — مثل كثيرين من الرجال ، وككل النساء تقريبا — عاجزا عن أن يتمثل وجهة نظر شريكه .. وكانت الصور التي تمثلها ، هي صور زواجه في ا ترونش — الذي تم بعد كثير من التردد والإرجاء لم يصدرا عنه هو ! — والرحيل إلى باريس .. باريس التي كشفت له عما كان يجهله في زوجته .. فمن العزلة والحياة الرتيبة ، انتقلت دون ما ارتباك أو تردد إلى الطيرس المزرق . فلما لم تجار في نضوجه ، ولا هو اكثرت لشبابها . ومن هنا حصل على مكتب الاستاذ كليمال في ا شامبيري . بعد ان اعياه المئثر على مكتب في ا جرينويل ! « على اهل ان يجدا في الربف دعة وهدوء . اما مدام فرازن فقد ادى هذا الانقلاب في حياتها إلى ان تولاهها ذلك الشعور بعدم الاكتراث الذي يساور أولئك الذين لم يجدوا من الحياة ما يرضيهم . وسر فرازن حين بدا عليها انها تقبلت العزلة بغير تحبب ، ولكن .. بغير معارضة كذلك !

وانقضى عامان على هذا النمط ، امتازا بالنعم التي يمكن ان يلقاها المرء في وجوده بالقرب من امرأة لم تكف — برغم هدوئها — عن ان تغير في النفس شيئا من القلق ! وعجاة . وقبما كان يخالها قد استكانت إلى الدعة ، والعلاقات الطيبة ، والشواغل اليومية ، إذا بها تهجر مسكن الزوجية لتهرب مع حبيب !

\* \* \*

واخذ الموثق يشعد في غير وعى — وقد رزخ تحت الكارثة التي لم يكن متاعيا لها — سام الذكريات التي تمثلها في العقد المنفى . ومن جديد ، بلغ الهاوية ، ولكنه في هذه المرة سبر غورها ، وقاس عمقها . لقد أصبح ذلك « الموريس » روكتيار — الذي كان يحققره عند وصوله ! — عرضة لثيران غيرته .. فان اديث لم تسافر وحدها .. من المحتمل — بل من المؤكد — انها سافرت معه .. مع موريس . ولابد انه كان يضمها إلى صدره في تلك اللحظة ذاتها ، هناك . في إيطاليا ، البعيدة ! .. ونال السيد فرازن منفذله قرفعه إلى عينيه ، ثم مزقه أربا بأسنانه .. ولم يعد يتمالك نفسه ، فبكى !

لكم أجادت اديث وصفه حين قالت لموريس : « إنه يحيى بطريقته الخاصة » .. وهذه الطريقة لم تكن أنبل الطرق ، ولكنها كانت أحفلها بالعذاب : فهي تضنى النفس بصور محددة قاسية . وهي تشق القلب كما يشق المجرات الأرض ، وتولد الكراهية والبغضاء !

وعاد فرازن قائمك بالخطاب والعقد ، لا يزيد من شقوقه ، إنما ليتلمس طريقا للانتقام . وكان موظفو مكتبه على وشك الحضور ، ومن واجبه أن يتقصى الأمر . وأن يعد أسلحته قبل وصولهم . لابد انها تناولت التقود التي حملتها معها — أو بالأحرى التي سرقتها ، لأن الهبة بين الزوجين تعتبر في جميع الحالات باطللة بمجرد صدور الحكم بالطلاق ! — من الخزانة . فقد أودع منذ عهد قريب مائة وعشرين ألفا من الفرنكات هنا لأحد العقارات ، ولابد له من أن يحتفظ بها أيام من توقع

المشتغلين بالرهونات ، أو طالبها ، أو كاتبها ، أو عاملا تحت التمرين ، أو عاملا - أو موظفا تحت التمرين أراد الاضرار بصاحب العمل - وفي هذه الحال : تكون العقوبة هي السجن فيما الذي يمنعه من ان يتهم ، ورئيس روكفيسار . . . ومن ان يتهمه وحده . . . الم يكن هذا جديرا بان يلقي تصديقا ؟ . . . لقد كان الشاب يعرف معالم المكتب ، والعمليات التي تجرى في المكتب ، وتاريخ العقود ، وغيباب المؤثق . وكان يوسمه ان يلتقط سر قفل الخزانة ، وان يسرق المفتاح من رئيس الكتبة ستره وجهازه . ولما كان لا يمتلك ثروة شخصية . فقد كان مضطرا للحصول على المال ليهرب مع عشيقته . . ثم ، ألا يدينه هربه إلى الخارج ؟ . . لا مراة في أن ما أعلنته مدام غرازن في خطابها كان يكذب هذا الادعاء ، ولكن رسالة مدام غرازن لم تكن صالحة لأن تتخذ دليلا ضدها ، كما انها كانت في صالح عشيقها ، فيكفي إعدامها ! . . إن أي شيء لن يقوى على تبرئة الشاب إذا أعدمت الرسالة ! . . ثم إن الشاب فقد كل وسيلة للدفاع . أولا يجب عليه - إذا شاء الدفاع عن نفسه - ان ينقلب على زميلته ، وان يعترف على الأقل بمعاشرتها والحياة معها على نفقتها . . وهذا ما لا يمكن لرجل شريف ان يفعله . ومن ثم فقد كانت إدانته مؤكدة ! . . وسوف ينتهي فراره الغرأبي بتسليمه إلى حكومته ، ليقتل امام محكمة الجنايات وقد قوى عوده ، وتحطم ، وهانت كرامته ، فيكرر عن ذنب الاثنين . واخيرا ، ستدفع أسرته المبلغ المسروق ، لتخفف من وزره ، وبهذا يتفادى السيد غرازن التبعة . . أو كل خسارة مادية على الأقل ، فإن الخسارة المادية لم تكن هي التي يشبهون بها

المعتد الذي أجرى توثيقه . وما قد أخذت ادبت المبلغ بفضل إهماله الذي لا مراة فيه . وقد يكون من الممكن صنع - أو سرقة - مفتاح الخزانة . ولكن . . كيف تراها اكتشفت تركيب الأرقام السرية التي لا يكون للمفتاح جدوى بغيرها ؟

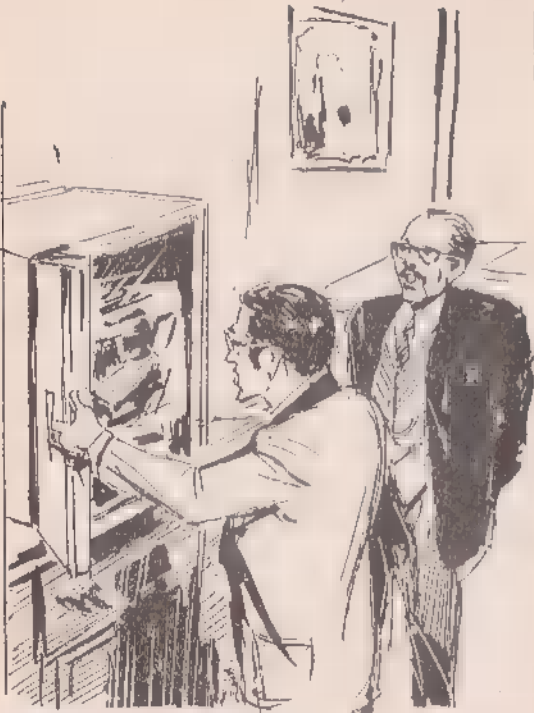
ونحن نقترب من الخزانة التي لم تكن تحمل أي أثر للاغتصاب . وبحث في جيبه ، وأخرج حلقة مفاتيحه ، فتبين ان المفتاح لم يكن بينها . . لابد أنه نسيه سهوا يوم سفره . على أنه كان يمتلك مفتاحا آخر للخزانة ، وإن كان يعهد به إلى رئيس الكتبة . ليستعمله أثناء غيابه . لذلك اضطر إلى ان ينتظر حضور الكاتب ليفتح الخزانة ويتأكد من محتوياتها . ولكن بشهده على الواقعة . ومن ثم سعى إلى مكتبه . فتناول قانون العقوبات ، وشرع يلفتهم المواد الخاصة بالجرائم والجنح التي ترتكب ضد المالك ، وقرأ في المادة ٣٨٠ ان الاختلاس الذي يرتكبه الأزواج للاضرار بزوجاتهم . أو الزوجات للاضرار بالأزواج ، لا تقع إلا تحت طائلة القانون المدني . ولكن نهاية هذه المادة - التي جردته من كل سلاح ضد الخيانة ! - امنحه بسلاح ضد شريكها : « فيما يتعلق بجميع الأشخاص الآخرين الذين يخفون أو يتفهمون بكل أو بجزء من الأشياء المسروقة . فانهم يعاقبون كمتهمين بالسرقة » . . وراجع المواد التي عالجت الموضوع ، فعثر على مادة أفضل من سابقتها . . تلك هي المادة ٤٠٨ التي تناولت « سوء استغلال الثقة » . فقد رأى فيها ظرفا يدعو لتشديد العقوبة ، وذلك إذا كان من أساء استغلال الثقة ، موظفا عاما أو حكوميا ، أو خادما أو مستخدما ، أو من

وعندما انتهى من قلب الامر على كل الوجوه والوصول به إلى النهاية المقصوده . احس بهومه تخف ، ونسى انه وهو يتبين إدانة غريمه وعقابه . وراح يستعرض النتائج البعيدة المدى ، التي ستترتب على انقذامه . دون أن يداخله إشفاق — حتى انتهى بها إلى الحظ من قدر آل روكفيلر المتفطرسين . الذين اكرموا وفادته حين حلف الاستاذ كليرفال ، واتخذوه صديقا . كان في تعاسته يلقي بالآمه على العالم كله وكأنها لعنة ! . . وعاد يقرأ للمرة الاخيرة ذلك الخطاب الذي كان يقيم المعبة الوحيدة في طريق خطته . ثم استجمع عزمه والقاه في النار . . وراقبه وهو يحترق . ويصبح رمادا .

\*\*\*

ودقت الساعة مؤذنة بالناسعة . فآخذ الكتبة — الموظفون — ينوافدون على المكتب واحدا إثر واحد ، فيجلسون إلى مكاتبهم . وإذ ذلك فتح السيد الباب الذي يصل بين حجرته والمكتب . واستدعى رئيس الكتبة وهو مشغول البال . دون أن يحييه . وقال : « فيليبو . . انني لا أجد مفتاح الخزانة » . فاجابه المكتب : « ها هو ذا يا سيدي » فقد عهدت أنت به إلى أثناء غيابك ، ولكنني لم أستخدمه » . فقال : « صدقت . . تعال معي ! » .

وسار الرجلان إلى غرفة المكتب . ثم فتح السيد فزازن الخزانة ، فلاحظ في الحال شيئا من عدم النظام في جوفها . وإذ ذاك تسأل : « هل كنت تبحث عن شيء . . عن وصية مثلا ؟ » . فقال فيليبو في حرارة : « لا ياسيدي . . أقسم لك »



فتح السيد ( فزازن ) الخزانة ، فلاحظ في الحال شيئا من عدم النظام

في جوفها . .

www.14cm.com

.. وهنا قال فرازن : « إذن ، فلست أقوم شيئا .. غيذا المظروف الممزق كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد : مائة وعشرون ألفا من الفرنكات ، عددناها سويا » . فقال الكاتب مرتجفا : « حقا يا سيدى » .

وكان الموثق فى غاية الهدوء . ولم يهض فى أسئلته ، بل أغلق الخزانة بعناية . وقال : « لقد دخل هنا شخص ما » . فرد الكاتب : « هذا مستحيل يا سيدى » . ولكن فرازن قال فى إصرار : « أوكد لك أن شخصا ولج هذا المكان . وستثبت محتوياته أمام رئيس البوليس .. من الذى أغلق المكتب مساء أمس ؟ »

— مورييس روكفيار .

— وهل كان وحيدا ؟

— أجل « فقد تربث ليكتب بعض الخطابات .

فسأله : « إلى متى لا » . فأجاب : « لست أدرى . ولكننى قابلته تحت «البواكى» بعد نصف ساعة فأسلمنى المفاتيح ؟ » . وهنا صاح فرازن : « المفاتيح ؟ .. أو كان مفتاح الخزانة بينها لا » . فأجاب : « أجل » .

فقال السيد فرازن : « لم يكن فى هذا شيء من الحكمة » . وساد الصمت برهة ، ثم عاد يتساءل : « ولماذا لم يحضر بعد ؟ » . فقال الكاتب : « من ؟ » . « واجاب الموثق : « مورييس روكفيار » .

وهنا قال الكاتب بلهجة مفعبة بالحق : « إنه لن يحضر » . فحججه السيد فرازن بنظرة فاحصة ، أرشدته إلى أمرين :

أولهما : أن نبا تكتبته قد ذاع فى المدينة ، وثانيهما ، أن فيلييو — الذى كان فرازن يشك فى أنه يغار من مورييس وينافسه فى حب زوجته ! — سيكون حليفا يثق به ويركن إليه ! على أنه تظاهر بالجهول . وقال : « هذا صحيح ، فقد تقرر أن ينضم إلى مكتب أبيه » . ولكن الكاتب قال : « لا يا سيدى ، غائيه سافر فى منتصف ليلة أمس » .

— وإلى أين ؟

— إلى إيطاليا .

وإذ ذاك نطق الموثق بحكمه فى بطله : « أه ؟ .. أخيرا نهيت ! .. إذن قلعله هو الذى اغتصب خزانتي . وكيف تراه عرف الأرقام البصرية ؟ » . فنكس فيلييو رأسه ، وقد أحاله الخوف والغيرة إلى نمام متواطئ ، وقال : « إن الأرقام مكتوبة فى مفكرتى ، ولكن بغير بيان يوضح ماهيتها .. وقد كتبتها لأن ذاكرتى ضعيفة . ولقد قرأ روكفيار الأرقام ، فلعله حدس ما تم عليه » . فقال الموثق : « إن تفريطك مضاعف . اطلب إلى أحد زملائك يا فيلييو أن يستدعى رئيس البوليس ليتولى التحقيق بنفسه » .

وقم فحص الخزانة رسبيا فى حضور عدد من الشهود . وقدم السيد فرازن بيانا بمحتوياتها ، وأسفر البحث عن أن شيئا منها لم ينقص . وإذ ذاك قال الموثق فى هدوء ، وهو يوجه التحقيق ببراعة ودقة : «بقى أن نفحص هذا المظروف الكبير الذى وجد ممزقا . فقد كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد .

التي تقدر مساحتها بعشرين فداناً . وكان الفضة مائة وعشرين الفا من الفرنكات ، كلها بالعملة الورقية . وقد عدت المبلغ قبل سفرى ، أمام رئيس الكتبة ، الموجود الآن ، والذي يشهد بذلك . « وهنا قال قيليبيو : « تها يا سيدى » .

غادى فرازن : « والمبلغ مسجل على المظروف » . وبفحص المظروف ، وجد انه لا يحتوى إلا على عشرين ورقة من فئة الألف فرنك ، فقال فرازن : « إذن فقد سرق منى مائة ألف من الفرنكات » .

وسأله رئيس البوليس : « وكيف تفسر عدم استيلاء السارق على كل المبلغ الذى كان فى المظروف » . إن اللصوص لا يقتنعون ، وليس من عادتهم ان يتطوعوا بتحديد ما يسرقون ! « فقال الموثق : « لسوف أجلو هذا للنيابة التى ساقدم إليها شكواى فى الحال » .

— هذا شأنك . اترك تشك فى أحد ؟

— نعم .

فتمسك رئيس البوليس : « اترقب فى خدمك » . واحاب فرازن : « لا ، فلو أنهم ارتكبوا هذا العمل لهربوا . كما أنهم لا يستطيعون معرفة الأرقام السرية لقفل الخزنة » . وإذ ذاك قال رئيس البوليس : « حسناً .. سأحرر المحضر الآن ! » . ولكن فرازن قال : « أرجو ان تصحبنى إلى المحكمة » فبى على بعد خطوتين من هنا . « فقبل انضابط قائلاً : « لك ما شئت » .

وقصدا إلى المحكمة لفورهما ، حيث دار بين الموثق ورئيس

النيابة حديث طويل . استأنفاه بعد انحراف رئيس البوليس .. وبينما كان فرازن يهبط السلم ، التقى فى نهايته بالسيد روكفيا صاعداً إلى المحكمة . وكانت الساعة قد بلغت الربع بعد الثانية عشرة . وهو موعد بدء الجلسة .

وتبادل الرجلان النظرات : وحيا كل منهما الآخر !

## ٥ - الأخطار تتهدد الأسرة

من عادة المحامين وموكليهم ان يتبادلوا الاحاديث فى ردهة المحكمة بضع دقائق ، قبل ان يدخل المستشارون قاعة الجلسات . منى تلك الردهة يتبادل الجميع أنباء المدينة . غير ان السيد روكفيا - الذى كان محبوباً لحسن دعابته ، ومرهوباً للذعاع الحادة - بادر إلى ايداع معطفه فى خزانة الثياب ، ثم اتخذ مكانه فى مقاعد المحامين . وكان زملاؤه يتأملونه عن بعد فى فضول خبيث ، وهم يتهايسون عن مغامرة ابنه موريس ، ويعالجونها فى رفق وسهال . فقد راوا فيها رد فعل للتقاليد الصارمة السائدة فى الأقاليم . وفيما كان السيد روكفيا منهمكاً فى إعداد مرامعه ، اقترب حاجب من مقعده ، ومس كتفه قائلاً : « انهم يريدونك فى النيابة يا استاذ ! » .. فنهض لئسوه فى اهتمام ، وقال : « عاندا ذاهب إليهم » .

وكان من المألوف فى كل يوم ان ينتهز المدعى العام فرصة وجود أحد المحامين فى المحكمة ، ليستدعيه لمسائل تتعلق ببعض القضايا الجنائية . ومع ذلك فاق السيد روكفيا لم يخل من

بعض الطلاق ، الذى أوجت به إليه مقابلته للسيد فرازن على سلم المحكمة . . فهمس لنفسه : « ترى هل تبلغ به الحماسة إلى الدرجة التى يرفع فيها دعوى الزنا ؟ » . . إن الزنا جريمة فى نظر القننون . الذى يترك للزوج وحده حق طلب القصاص فى حالة حدوثه ، وهو امتياز لا يلجأ إليه الزوج إلا نادرا . ولكن وجه فرازن كان ينم عن شر . .

وكان السيد « فاليروا » - المدعى العام - يرأس نيابة ( شامبيرى ) منذ سنوات عدة ، تمكن خلالها من أن يقدر نزاهة السيد روكنيار فى مهنته ، وخلقه ومواهبه . . ومن الصحيح أن هناك أقاويل عن احتمال ترشيح روكنيار فى الانتخابات التشريعية المقبلة ، وعما قد تعانته السلطات من معارضة قوية تشعل - إذا نجح فى تلك الانتخابات . . ولكن اتهام السيد فرازن لابنه كان كتيلا بأن يقضى قضاء مبرما على هذا الخطر السياسى . ولما كان السيد فاليروا موظفا طموحا ، فإنه استقبل السيد روكنيار فى ترحاب حين أقبل على مكتبه . إذ لم يجل بخاطره . . منذ وجد نفسه مضطرا إلى الحديث معه - سوى أن أمامه رجلا شريفا فى مخنة ، فمد إليه يده « ويادره قائلا : « إن واجبى يحق على أن أواجهك فى مهمة مؤلة » . . وتوقف عن الكلام مترددا ، ولكن قوة المحامى المعنوية كانت تبدو فى أجلى صورها فى الظروف العصيبة ، ولذلك فإنه شكر المدعى العام لطفه . واتجه إلى الهدف مباشرة ، إذ قال : « لعله أمر يتعلق بابنى » - فاجاب المدعى : « أجل » .

— أتراها دعوى طلاق ذكر فيها اسمه ؟ أم هى دعوى زنا ؟

— لا ، مع الأسف ! — مع الأسف !

لم يكن لهذه العبارة سوى معنى واحد . لذلك تسائل السيد روكنيار فى صوت حازم ، ولكنه متحشرج : « هذا يوحي بأن ثمة حادثا ؟ » . . « هو انتحار ؟ » . . فصاح السيد « فاليروا » . « وقد غطن إلى انه واجس القى أثارها : « لا ، لا . . أظهن ، فقد سافر ابنك مع مدام فرازن : كما تعرف البلدة كلها . ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك . فإن السيد فرازن - الذى أنصرف من هنا منذ قليل - قدم إلى شكوى يتهمه فيها بسوء استغلال الثقة » . . واحتقن وجه المحامى الشيخ : برغم تمالكه نفسه ، وهقف فى إيا : « سوء استغلال الثقة ؟ إننى أعرف ابنى . . هذا مستحيل ! » . . فشرع بمثل الاتهام فى تلاوة الشكوى - التى وقعها الموثق ورقعها إليه مرفقة بحضور الممينة التى أجراها رئيس البوليس . وأصفى إليه السيد روكنيار بانتيه ، دون أن يقاطعه . كان الأمر كتيلا بأن يقوض دعائم أسرته . وإن يطلع أسسه . وقال أخيرا وهو رابط الجأش ، « وإن كان « طعون القلب : « إن السيد فرازن يثار لنفسه بخسة ! » . فاجاب السيد فاليروا - الذى ترك عواطفه تظهر دون تحرج : « إننى أشاركك الرأى ، ولكن النقود اختفت ، فكيف ترفع الدعوى العامة ؟ » .

— إن ابنى ليس وحده فى الاتهام . وإذا هرب طفل فى العشرين من عمره . مع امرأة فى الثلاثين ، غاى الاثنين الذى يعد الخطة ويقودها !

— هذا ما صرحت به منذ لحظات : « إن هذا الخائن بالذات »

وبإصرار . لقد نصحت ، بالتأمل ، وجلالت باربوع وعشرين ساعة للتفكير في الأمر ، ولكنني قوبلت بقرار رمسي ، غلابد للعدالة من أن تتخذ مجراها . اتنى مضطر إلى إحالة الشكوى إلى تاضي التحقيق !

واستجمع السيد روكنيار شجاعته إزاء ضربة القدر ، ولاذ بالصمت ، بينما راح المدعى العام يقلب المسئلة على كل وجه شون أن يستدى إلى حل . وقال : « إن هناك قرائن خطيرة . ودقيقة ، ومطابقة للظروف : هناك أولا التسهيلات التي يقيحها له مركزه في المكتب ، ثم وجوده هناك ليليلة أمس — ومعه المئات — بعد انصراف الكتاب الآخرين . وحاجته إلى المال لتنفيذ مغامرة الفرار الجريئة ، ثم اهتمامه بأن يحدد المبلغ المرسوم بنفسه » ، وكأنه أراد أن يوحى بأنه سيسدده ! . « . ما جواب الأب في امتراز : « وهناك في صفه أدلة أخرى : هناك أسرته أولا ، فلا إنكار في أنها من سلالة عريقة طيبة . . ثم من الذي قال لك إنه سافر بلا مال ؟ . لسوف يعود عندما تنفذ نقوده ، وأنا الكفيل بذلك ! » .

وتعلم عليهما الحديث حاجب أقبل يدعو المحامي الذي كانت هيئة المحكمة تنتظر مراقبته . فصرقه السيد روكنيار بإيماءة وهو يقول : « لسوف الحق بك » . بينما استأنف السيد فاليروا حديثه قائلا : « ولكن ، كيف يتمكن من الدفاع عن نفسه إذا اعتقل ؟ . يجب أن تدرك جيدا أن مركزه سيء ، وأن الأدلة تتجمع ضده . . ولكي يبرئ نفسه : لابد له — على أحسن الفروض — من أن يتهم سواه . . فعمل يقبل هذا ؟ ومع ذلك »

سوف يكون شريكا . . وعلى أية حال ، فلتصبحه — إذا كنت تعرف مكانه — بأن يترتث قبل أن يعود إلى فرنسا ، وساطالب بالتمهل في القبض عليه » . . فمز السيد روكنيار رأسه بقوة ، قائلا : « لا ، لا . . إن الهرب بمثابة اعتراف . يجب أن يعود . وسأنتقب عن أدلة تبرئه ! » .

وبعد أن استغرق في التفكير برهة ، قال : « أما وقد هز مصابنا مشاعرك يا سيدي المدعى ، فهل تأذن لي أن أسالك خدمة . . خدمة جليلة قد تنقذنا ؟ » . . فتسائل المدعى : « وما هي ؟ » . . وهنا أجاب المحامي الشيخ : « اعرض على الأستاذ غرازن أن يسترد شكواه مقابل دفع المائة ألف فرنك . — وهل مستردها أنت ؟ — سادفعها .

— ولو لم يكن ابنك مذنباً ؟ — إنه في مازق كما قالت بنفسك ، وشرفنا يساوي أكثر من هذا المبلغ . . كما أن المقاضاة تطلخه !

وإذ ذاك قال المدعى : « إن الأستاذ غرازن معروف بالتكالب على المصلحة ، ولعل شكواه لا تكون — بالنسبة إليه — سوى وسيلة لزيادة موارده . فاعرض عليه نصف المبلغ » . ولكن السيد روكنيار قال : « لا ، لا مساومة . الدفع مقابل سحب الشكوى ! » . ورغبة في إراحة باله والتملص من الموقف ، تراجع المدعى مستترا وراء واجباته المهنية ، فقال : « انك على حق ، وبودى أن أخدمك يا أستاذ ، وقد ازدادت رغبة في ذلك أمام توضيحتك . ولكن ، هل مما يناسب مركزى أن أقدم على مسعى غير قانوني كهذا ؟ » .



روكيار وقال : « انه غير قانوني حقا . ولكن الوقت صيق .  
ولسوف اذهب لأتراجع أمام هيئة المحكمة . ولن تبث الشكوى  
أن تعرف . وأنت وحدك الذي تعرفها حتى الآن . وفي وسعك  
أن ترجئها . . . إنني أنوسل إليك » . على أن المدعى قال :  
« هذا مستحيل » فليس يوسى أن اذهب إلى مقر أحد اصحاب  
المشاكوى . فقال المحامي الشيخ : « في وسعك أن تستدعيه  
إلى النيابة » . واجاب السيد قالوا : « فليكن ! . . إن  
الوسيلة غالية ، ولكنها أكيدة المفعول . سأقدم الاقتراح  
باسمى ، حتى إذا قدر أن يفشل . كنت أمت غير متبد بعرض  
سندوى على تسليم بالسرقة » . فقال الشيخ : « شكرا » .

\*\*\*

وافترق الرجلان « غذهب المحامي إلى نداعة الجاسة ، وإذا  
المستشارون قد ساءوا الانتظار . وشرع في مرافسته ببراهته  
المعتادة . قام يحدد أحد - أمام حججه المنطقية المرتبة -  
شيئا عن الألم الذي كان يفضيه . ولكن « المجاهد » الممن  
- الذي لم يشعر بالنعب يوما - أحس حين جلس بإرهاق بالغ  
ثقل ثقل الشيخوخة . وبعد مرافعة الخصم . ورد عوهر منه :  
أصبح حرا في أن يتصرف ، فنظر إلى ساعته ، وإذا بها تشير  
إلى الثالثة والنصف . . كان مصير ابنه معلقا على ساعات رخم  
الجاسة الثلاث . لذلك همد إلى انفياسة حيث كان السيد  
قالوا في انتظاره . وأدرك لأول وهلة أن المدعى قد أخفق . .  
وما لبث هذا أن قال : « لقد جاء السيد فرازن . . وأرى أنك  
كدت على صواب » فهو ينتقم لنفسه » . وتساءل المحامي :

« هل رفض ؟ » - فاجاب المدعى : « رفضا باتا ! . . انه بفضل  
حذره على ماله . عبتا حاولت أن أضيق عليه بكل قواى -  
مصورت له المفصحة التي سيثريها حول زوجته ، بل وتحدثت  
عن نقص الأدلة . فكان جوابه انه سيدعى بالحق المدنى أمام  
قاضى التحقيق . إذا أنا لم ادع الشكوى تتخذ مجراها . . وهذا  
حقه . كما ان قراره حاسم » .

وتساءل المحامي : « وماذا لو حاولت من جانبى أن اثنيه . .  
نقد كنا دائما على علاقات طيبة » . فاجاب السيد قالوا :  
ان يكون زيارتك مجدية . بل ستكون البهية ، ومديسة لأينك ،  
ومن ثم فليست أنصحت بها . فقد حدثت عن اسرتك . . . وعملك .  
فاجابى : « إن ابنة المتزع على . وماذا إذا دفع الإبرياء . .  
أخلاء المذنبين ! » . فأخذ السيد روكيار إلى التفكير لحظة ،  
ثم انصاع للنصح إذ تبين صوابه ، فاستأذن من المدعى  
باسطا إليه يده وهو يقول : « بقى على أن اشكرك ، فقد  
عاملتنى كصديق . ولن أنسى لك هذا » . فاجاب السيد  
دايروا ماثرا : « إننى أرتى لك !

وعاد المحامي إلى داره وحافظته تحت إبطه . وكان من  
عادته دائما أن يسير مسرعا بخطى شابة ، راعيا راسه . .  
ولكن وجهه كان شديد الشحوب . وتحت « البواكى » - حيث  
عناد المتسكعون أن يابوا - مر بأصدقاء ادبروا عنه ، بينما  
كان المارة يرمقونه في إصرار واستهزاء . وأدرك أن موظفى  
مكتب غرازن قد أشاعوا في البلدة عار آل روكيار . . آل  
روكيار ! . . كانت هذه الزبنة السالفة . . .

أفكانت سلالمة مفضولة إلى هذا الحد الذي يجعل الناس يقلقون  
النبا بمنزل هذه السماتة؟! .. إذن ، فما أحط الحسد الذي  
تشبه أمجاد اسم عريق ..! لقد حظمت زلة أحد الأخفاد ماضيا  
حافلا بالاداب والشرف ، أتجب أمثلة تحفذي في الرجولة سنوات  
طويلة ..! أقلا يفهم هؤلاء السامعون أن هذا الانهيار يسهم  
هم الخبرين ؟!

وشد قامته ، ثم خفف من إبراعه . ولم يقو أحد على أن  
يقصدي لظفرته . وغالب الشعور بالذلة — إذ راح يواجهه  
العاصفة — وهو يقول في نفسه : « أتجني من بعد آيتنا الكلاب  
ولكن حذار من الاقتراب ، فليسوف أحيى اسرقى ما دمت حيا .  
وسأؤود عنها بقوتي . ولن تربني قط اطلوى من الألم ! » .

ووجد عند بابيه السيد ديلا مورتيللي . جاره في الريف .  
افتراه بطبق عبارات المواساة والعطف .. على أن هذا المعنود  
أظهر له شعورا إنسانيا يمشي مع حاله ، إذ قال في لهجة  
شامخة ، وهو يشير إلى الحصن الذي سبج في الشفق :  
« عندما جاء الإمبراطور سيجمون — في سنة ١٤١٦ — أقام  
دوق أيبده الثامن مأجبة في القاعة الكبرى ، نظما جان دي  
بيلفيل « مبتكر حلوى ( سافوا ) . وكانت اللحوم ذهبية  
اللون . « محلاة بزينات ورايات تمثل أسلحة قوات الضيوف .  
وتلقى كل ضيف التخصيص له ، مقبما إلى أجزاء  
صغيرة متفاوتة الأحجام ، تبعها مراكز المدعوين . إنني أحب  
هذه التفرقة : فما ينبغي للمرأة أن يأكل حسب شهيته . وإنما

حسب قيمته ! » . فرد السيد روكيار وهو يفارق هذا المزيج :  
« إن قطعة واحدة كانت كافية لي ! » .

.. لم يكن في وسعه أن يخدع نفسه ، فيستبدل بالحاضر  
ذكريات الماضي ! واختفى في مدخل الدار ، ثم صعد السلم .  
وبلغ غرفة المكتب ، متجاشيا مخدع زوجته التي كانت تلازم  
الفراش دائما . ولكنها أحست به ، فنادته على أهل أن يوافيها  
بأنباء ابنهما . وألقاها وحيدة ، وقد جلست على سريرها .  
يخيم عليها ظلام المساء الزاحف . ونهيت : « لقد خرجت  
برجريت » . ثم استجمعت شجاعتها وسألته : « أما عرفت  
شيئا عن مورييس ؟ » . فاجاب : « لا ، لا شيء .. وسفذل  
غفلة ملوثة دون أن نلقى شيئا » ولا شك ! .. فثابت  
المرضة : « ما أقسى لهجتك يا فرانسوا ..! لقد سحرته تلك  
المرأة ، كما تعرف . يا له من طلل بائس ! » .. فقال : « إن  
الضعف لون من الذنب ! » . وجزعت للصرامة التي تجلت في  
نبراته . غادرت زر الضوء الكهربائي ، وإذا بها ترى زوجها  
وكانما شاخ فجأة ! فقد كان شاحبا ، غائر العينين ، إلى درجة  
أشعرتها بالخطر .

وهتفت ضارعة : « هناك أشياء تخفيها عني يا فرانسوا .  
الست كما عهدتني : شريكة حياتك التي لا تكتم عنها سرا ؟ » .  
ندما من السرير قائلا : « ولكن لا جديد هناك آيتنا العزيزة !  
الليس في فرار ابنتنا الكافية ؟ » .. فشدت قامتها ، وبسطت  
ذراعيها . واستأنفت تصرعها : « اقرا في نظرتك نذير خدس  
رهيب يهددنا . لا تخدعني كما مضت في الليلة الماضية .

تكرم ، فسوف أتجلد ! » .. وقال مشمئزاً : « أنك تفعلين دون ما داع .. فلا أنباء هناك ! » .. غيبتت : « اقمس لك اننى سألتجده ، فلا تخف ! » .. ولكنه عاد يناديها : « فالنبن .. هدى من روعك ! » .. فقالت : « انتظر .. لسوف نمدتى ! » .. وضعت السجور .. التى هدها المرض - راحتها - وابتھلت إلى الله بصوت عال ان يهبها القوة . وفالقت عيناها بلهب انعكس على الوجه المشاحب انهزول الخالى من اى لجة للحياة ، غيبت زوجها : « رمها يا غالتين ! » .. فالنفتت إليه وكانتا مفر شكها . وقالت : « الآن .. الآن ، قل لى . ان بوسمى ان اسمع . هل مات ؟ » فصاح : « آواه ! كلا ! » ..

لقد داخلها عيون الشك الذى داخله .. ولما كان مثلها وثيق الايمان - فقد انفضى إليها بالانهام المروع الذى اصابهم جميعا . فصرحت في اياء : « هذا غير حقيقى . ليس ابنا لصا ! » .. وقال : « لا . ولكن الناس جميعا يرونه كذلك » .. فاجابت : « وما قيمة ظنهم طالما انه ليس لصا في الواقع .. اننى اعرفه . اننى اوافقة منه » . ولكن السيد روكتيار لخص لها النكبة في عبارة قطعت كل شك : « انه يصعبنا بالعار ! » .. فاك كانت الجريمة التى حكم على ابنه بها ، بوصفه رئيسا للأسرة . لا بوصفه متدينا بخشى ضميره نحسب .. جريمة ضد السلالة ! كلها !

وصاحت في خشوع ووجل : « يارب .. لا تتخل عنا ! » .. وما ان نطقت باسم الله - مناط الأمل الوحيد - حتى اقبلت مرجريت مهمومة . تغالب أساها ، ونظرت إلى ابنيها وأبها وقد

وحد بينهما الألم . ثم انفجرت بانكية كسيل تفجر من وراء متطرة ! واطلقت ادبوعها العنان .. فضمتها ، دام روكتيار إلى صدرها قائلة : « تعالى ! » .. وسألها أبوها : « من الذى أساء إليك ؟ » .. فغالبت حزنها بجهد خارق ، وقالت : « انهم يسبوننا » .. وعاد يسألها : « من ؟ » .. فاجابت : « اننى قادمة من دار مدام سيسى ، إذ كان ريمون هناك .. ولقد قالت لى : « ان لك اخا جبلا » .. وسألتنى هذا ، فנקست راسى ، ولكنها عادت تقول : « اتعرفين ما الذى يرويه موظفو مكتب غرازان ؟ » .. وظللت صامتة ، بينما استطردت هى : « يقولون ان اخاك لم يفتح بالمرأة وحدها » .. وصاح ريمون بصوت خافت : « أماء ! » .. أما أنا ، فقد ظللت واقفة . وقلت : « اتنى كلامك يا سيدتى ، فهذا واجب » .. ووجدت من نفسها الجرة على ان تقول : « لقد سحنا على الخزانة » .. وإذ ذاك قلت : « اننى أمنعك من ان تسمينى إلى اخى » .. وتحولت إلى خطيبي قائلة : « أما انت يا سيدى .. أما انت يا من لا تعرف كيف تحمينى في دارك ، فأتى احلك من وعدك ! » .. وحاول ان يستبقينى . ولكننى لم انصت لرجائه . : « وما انذى قد عدت ! » ..

وغمغت أمها وهى ثقيلها : « يا صغىرى العزيزة ! » .. وصاح السيد روكتيار فوق راسى زوجته وابنته المتلاصقين : « آه ! .. ان الناس يحكمون دائما دون ان ينتظروا دفاعا ! » .. على ان مرجريت ما لبثت ان نسيت شقاءها الشخصى إزاء الشقاء المشترك ، فنهضت وسارت إلى أبيها ، وثبتت بصرها في بصره وقالت : « انت يا من اتق به - اجنى : ان هذا ليس صحيحا

## القسم الثاني

### ١ - صانع التحف المقلدة

إن أقل بحيرات ( لومباردي ) اجتذابا للزائرين هي بحيرة أورنا . فهي تتضاءل بجانب شهرة بحيرة ( ماجير ) كما تتضاءل القارب في مرسى السفينة الكبيرة . ومن ثم يقنع المسافر بنظرة يلقبها عليها من القطار في غير اكتراث ، ودون أن يعنى بأن يعرج عليها . . . وهو يتأمل المعالم الدقيقة للجبال المكسوة بالغابات ، التي تحيط بها ، وبالوديان العميقة ، التي تتناثر فيها القرى البيضاء متوارية في وسطها كما توارى قطعان الماشية بين الأعشاب . ثم يلمح الناظر في نظرة خادفة ثلاث تكته الأشجار - التي تمتد على لسان من الأرض موغل في الماء - ومدينة مستقيمة على الشاطئ ، وجزيرة مكتظة بالبنايات ، وفي انطلاق القطار مسرعا ، يخال المسافر أنه يلمح ابتسامة تنبعث من هذه المناظر التي تكثر وتضيق سحر الطبيعة في ( لومباردي ) . . الطبيعة التي تجمع بين الخشونة والبهاء ، وتلتف شواطئ البحيرة في رفق ولين ، بينما تتجلى صفحة الأفق صافية ، مشرقة ، لا أثر فيها لذلك البخار الذي يشاهد في سماء سويسرا و ( سافوا ) الباهتة . شاذاً مبط المساء ، بدت المناظر قائمة على صفحة مشرقة . وتتكرر تعرجات التلال المتناخقة ، في أحجام أضخم . تلمح نازح المر

.. ليس كذلك ؟ » . فقالت المريضة مؤكدة : « إنه كذب » . وقال رب الأسرة : « أهل ذلك .. ولكن كل الظواهر ضده » . وهو معرض للإدانة . . . فهتفت الابنة والأم معا : « الإدانة ؟ » . فقال المحامي : « أجل ، الإدانة ! . . ونحن جميعا معرضون معه .. فنجح تحمل نفس الاسم ، ونفحدر من نفس الماضي . ونسير إلى نفس المستقبل ! » .

وأشار بيده وكأنه يحس المراتين المفرقتين في الدموع . ويهدد الهارب : « إن لحظة ضعف كافية لأن نهدم جهود الجبال متكاثرة . . . ! ليقه بقدر في قراره المهين - حيث هو الآن - مدى خيائنه : لقد فصمت خلية أخيه ، وعرض مستقبل أخيه للخطر ، وصحة أمه للتداعي ، وثروتنا لأضياع ، واسمنا للتطخخ ، وشرفنا للتلوث ! . . هذا ما صنعه بنا . وهذا ما يسمى بالحب ! ما قيمة أن يكون قد سرق مبلغا من المال ، وهو قد سلبنا كل شيء ! . . ما الذي تبقى لنا اليوم ؟ » . . فصاحت رجريت : « أنت .. أنت الذي ستنقذه ! » . وقالت مدام روكيفار التي رانت عليها - في الضيق - مهابة قدسية غريبة : « الله ! . . نكوناه به مؤمنين ! . . إن أقدار السلالات وفضائلها لا تضع قط ، بل هي تكفر عن زلات المذنبين ! » .

ندو الشمال ، بشكل يجعله يخال أن سهل ( نوقار ) يمتد حتى يلتحم بجبال الألب الشامخة الراكفة !

ولم تكن ( أورتا نوقاريز ) قد تاهبت بعد لاستقبال الزوار . ومن ثم كان المرح غائبا عنها . وكان ثمة فندق واحد ، على سفح الجبل المقدس — امون ساكريه — يدعى غندق ( بلفيدير ) . ويستقبل الزائرين القلائل من الربيع حتى طلائع الشتاء . . . وقد كانت ( أورتا ) متوجة بثل ثام عليه عشرون هيكلا صغيرا . تناثرت بين الأشجار ، تصور حياة ومعجزات القديس «فرانسوا الأسيسى» . على أن المرء لا يكف عن اكتشاف منازل ريفية بين الخضرة الممتدة على طول الشاطئ ، يأوى إليها أغنياء الإقليم طلبا للراحة ، فلا تكاد نوافذها ترى مغلقة قط . . . ويفوح دائما من حداثتها — التي تبدو عليها مظاهر العنابة — شذى الزهور التي يستنشقيها المرء في فبطة ، على النقيض من روائح موائد الفنادق التي تسمم جو (بالانزا) أو (بافينو) ، تنفسد على الزائر استجمامه !

نفى غندق بلفيدير . وفي شهر مايو . نزلت مدام فرازن وموريس ووكيفار ، هاربين من المدن الكبرى التي قضيا فيها وقتا سيئا ، فحصلها الهدوء — بعد الصخب — واعتدال الأسعار ، على البقاء حتى نهاية أكتوبر . . . وما لبث أن أقبل خريف رائع ، في أعقاب صيف مر على عجل . ولولا قصر النهار ، وحبس البرودة في الجو ، والأصفرار الذهبي الذي صبغ أوراق الشجر ، لما ظن الإنسان ، وهو يتطلع إلى الشمس المشرقة ، أن الشتاء وشيك الحلول !

وفي ذات صباح ، جلس موريس في حجرة الاستقبال — المتصلة بمخدعهما — منصرفا إلى ترجمة كتيب إيطالي يحمل عنوان « حياة القديسين جيوليو وجيليانو » . . . وهما قديسان اقليميا من بحر ايجه في القرن الرابع ، فنشرا المسيحية في (أورتا) . . . على أن مقرة مقتبسة من إحدى مؤلفات «لاماريتين» نشرت بنصفها الفرنسي ، شغلت الشاب أكثر مما شغلته أكثر العبارات الإيطالية استعصاء . وأرسل بصره خلال النافذة . وقد شرد بآله ، وغفلت عيناه عن مجموعة الأشجار التي كانت تقوم كالباقة عند طرف شبيه الجزيرة ، في بقعة تقع أسفل النافذة مباشرة . . . وقد بدا الماء ساكنا ، شامكا ، تقوسحله جزيرة كانت يلتقي العشاق والمفانن ، وصفها الشاعر خلال سيرة القديسين بأنها كزهرة من زهور الكاميليا ، فوق صفحة نضية !

وما لبثت نظرات موريس الشاردة أن بلغت قمم الجبال — التي حجبت الأفق — وكأنها تريد أن تتجاوزها لاقلم بما خلفها ! . . . وفيها كان مستغرقا ، دلف طيفا بيض إلى الحجرة ، فاحتنى فوق كتفه ، وأطل على الكتاب المفتوح . واستلفتت بصره العبارات الفرنسية ، التي برزت بحروف واضحة بين السطور الأجنبية : « قال لاماريتين : إن مال الطفل إلى البيت الذي ولد فيه . فاز نفسه تتألف في الغالب من المشاعر التي خبرها فيه . إن النظرة التي تتبعث من عيني أمنا جزء من نفسنا ، يتقلقل في أغوارنا خلال أعيننا ! » .

وأغلقت مدام فرازن الكتاب بلطف ، فإذا حبسها — الذي لم يكن قد فطن إليها — يجفل من

حافلة بذلك الأمور التي لا يجسر المشاق على الإنشاء بها ، ولا يتماثلون أن يفكروا فيها .. وقالت تسالمة في غير اكتراث : « في أي يوم من الشهر نحن ؟ » « عاجاب وقد عاودته مسكنته : « في الخامس والعشرين من أكتوبر » . ومنجاة عاودته الهواجس من ناحيتها ، إذ قالت : « لقد انقضى عام ، فهل تذكر متى كنا على موعد فوق مضبة ( كالقير دي ايمك ) ؟ » . هناك قررنا أن نهرب معا .. ومع أنه لم يمض سوى عام واحد ، إلا أن حبى لم يعد يكفك .. « مهنتا معلبا : « ادب ! » ، ولكنها عادت تكرر : « لا ، لم يعد يكفك » . واضافت ببساطة ، وعلى اساريرها ابتسامة حزينة : « انظر إلى نفسك .. إنك تنصرف إلى العمل » . فقال : « أو ليس من الواجب أن نفكر في المستقبل يا ادب ؟ » .

— لا ، ليس من الواجب التفكير الآن .. ما الذي بنقصد ؟

وانتهز فرصة السؤال ليقول : « لقد فعدت نقودى ، ولا أستطيع أن أنسى أن نناقشا أصبحت نسته من نقودك » . وقبلت قائلا في حرارة : « إني أود أن يبقى صداقتك دون أن يمس . ولقد سألت صديقا لي من رجال الصحافة في باريس ، بأن يبحث لي عن مركز في الصحافة . ليس بوسعي أن أحرر بابا مقتبسا من الصحف الأجنبية .. لقد تعلمت الإنجليزية في المدرسة الثانوية ، كما تعلمت الألمانية فيما بعد لأعد رسالتي للدكتوراه . ثم إنني أتكم الإيطالية . وبالجمع بين هذه وبين عمل قضائي ، نستعين على الحياة » .

واصغت إليه وعلى وجهها ابتسامة خفيفة « ثم راحت

تتحدث وجهه بالوجد الذي كان يأنفه منها ، وقالت : « لنفككم غدا عن المستقبل .. غدا وليس اليوم ! » . فتسائل : « ولماذا نضيع يوما ؟ إن من واجبنا أن نحدد غورا موعدا لرحيلنا » .. فنهت : « رحيلنا ؟ » .. واجاب : نعم .. إلى باريس ! .. فلم تستطع إخفاء ضيقها ، وصاحت : « باريس دائما ! إنك لا تكف عن الحديث عنها .. كأنها وسواس بطاركك » .. فاجاب في وجوم : « إني هناك أستطيع أن أكسب عيشي » . فانسابت بين ذراعيه في لين ودلال ، وسعت بشفتيها إلى شفتيه الحراوين القابعتين تحت شاربيه ، وهي تفهم : « لقد سألتك عما واحدا من حياتك .. عما احببناه بلا ماض ولا مستقبل ، نعب في كل يوم من أيامه من حينا ، وننسى خلاله من أجل بقية العالم . ترى ، هل تذكر ؟ » .. فاجاب : « أو لم أملك أكثر مما طلبت ؟ » .. فتسالت في دلال : « ما يزال لي يوم .. فنان السنة تكمل غدا » .. وغهم في وجد : « غدا يا ادب ! » ، فقالت وهي ترتجف في مهب الذكريات : لا تقصد اليوم الذي بقي لنا . وبما أنه الأخير ، فما أجدره بأن يكون أجمل أيام عاينا الذي انساب قطرة إثر قطرة . فلنكف عن الحديث عن المستقبل حتى غدا ! أتعذني ؟ » .. فابتسم في نشوة وقال : « أعدك » . وإذا ذلك قالت : « إذن ، فساذهب لأرتدي ثيابي على عجل ، ثم لنخرج فنناول غدا غدا في الجزيرة ! » .

\*\*\*

وغابت عن الحجرة ، فحاول في غيبها أن يستأنف

المترجمة ، ولكن بصره وقع مرة أخرى على الفقرة الفرنسية المقتبسة من لامارتين : « إن مآل الطفل إلى البيت الذي ولد فيه ... » فتوقف عن القراءة من جديد : « لقد كانت ادبتي على حق ، فان الحاضر لم يكن كافيا له ، ولن يغنيه قط عن الماضي ، لقد نواها الشريكان على إقصاء المستقبل عن ذهنيهما ، ولكن الماضي .. الماضي الذي لم يجد جراد على الكلام عنه . لقد كانت نظراتهما تنفوس فيه . في الوقت الذي يظل لسانهما فيه مغلولين ، حتى لقد عدا الصمت — بالنسبة لموريس — نوعا من العذاب .. ترى ماذا « هم » يفعلون في هذه الساعة ، وراء الجبال المقسارية .. « هم » ، أولئك الذين لا يعرف انباءهم ؟ !

وما لبثت ادبتي ان ظهرت عنسد مدخل الحجرة ، فقالت تستجدي إجابته : « أتراني جميلة في هذا الصباح ؟ » .. وكانت ترتدي ثوبا صليبا من القيل الأبيض — يشي بفاتن ثامتها « وإن لم يهصر عودها بضيقه ! — وثيقة يعلوها ريش أبيض أضفى عليها بهاء ورواء . لقد جدد العام — الذي قضياه معا — ثيابها ، وإن لم تعد عيناها المتاجعتان ترسلان ضراها كعهدهما فيما مضى .. كسا ازدادت استدارة خديها وقل شحوبها . أما جسدها النحيل ، فقد بدا انه ازداد وزنا . وبوجه عام ، شمل شخصها كله تغير نم عن ارتواء بالحب ! .. وتألها موريس بإعجاب « دون ان يوجه إليها الإطراء الذي كانت ترجوه !

ويما شجر ميناء ( أورنا ) خلال طرمق شديدة الانحدار ، رصفت بقطع من البلاط المستدير ، نمت الأعشاب خلالها عن

قلة من كانوا يسلكون تلك الطريق . وأعترضت سبيلهما — في الميدان الممتد أمام الساحل الرملي الذي تجهعت عنده القوارب — نقاة صغيرة يعلو شعرها القصير قلنسوة (بيريه) حمراء ، كثيرا ما صادفها الماشقان في نزعاتهما ، مما أوحى إليهما بآنها تقيم في مكان قريب . وحملت الفتاة في وجهيهما — ولا سيما وجه موريس — طويلا ، دون ما استحياء . حتى إذا تجاوزتهما ، قال موريس : « إنها لطيفة » « فندت عن زميلته زفرة لسي نمت في لحظة خاطفة عن حقيقة سنها وقالت : « لا تنظر إليها . غانني أغار ! » .. فراق له أن يداعبها لهذه الغورة العاطفية : « فائلا : « نقارين ؟ .. أو ليس هذا من حقى أنا الآخر ؟ » .. فتساءلت : « يا الله ! .. ومن ؟ » . فاجاب : « من ذلك الإيطالي الأسمر ذي الشاربين ، الذي يقيم في الفندق ، والذي ينسى عشيقته — أثناء الوجبات — ليحلق فيك بنظرات مأخوذة ! » .

واغرقت المرأة في الضحك هاتفة : « اورنزو ؟ .. فصاح : « اراك تعرفين اسمه » . وإذا ذاك قالت : « لقد ذكره لى . لقد أفصح لى ، بعينيها المحلقتين ، عن عاطفة اثارت ضحكى ! » .. واصطنع موريس الضحك اصطناعا . على انهما لم يكادا يستقران في احد القوارب ، ويجذبان مبتعدين عن الشاطئ .. حتى غشيها من جديد ذلك الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان .. كان الحاضر ، الذي يرمعانه ويصونانه بكل حيلة ومهارة ، والذي أقصيا كل الذكريات والاحتمالات حتى لا تشوبه شائبة .. كان هذا الحاضر يرتج من استياحه لإنشاء حاجات عارض !



تري أية أسوار يجب أن يحاط بها هذا الهوى لوقايته من الناس ، ولما ينقضى بعد عام واحد على مولده . . . ؟ كان هذا الحب — الذى ضحيا من أجله بكل شيء — محاصرا بضغط الحياة من كل جانب . . . بل أنه كان محاصرا بقلبيهما الخافقين أيضا ، كذلك الجزيرة التى تبعدت أمامهما محاصرة بالماء !

وكانت المرأة أول من أحس بالأسى الذى ران عليهما ، فنبضت عن مجلسها وقتت منه ، وبدلا من أن يسرى عنها راح موريس يروى لها أسطورة القديس « جول » . . . التى لم يكن فيها ما يهم أيا منهما . . . وراح يقول : « لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى مأوى للأفاعى ، فلما أراد القديس جول أن يذهب إلى ( أورتا ) ، رفض أصحاب قوارب الصيد أن يميروه قارباً ، فما كان منه إلا أن بسط معطفه على الماء ، وجذف بعصاه . . . » ، فقاطعته أدبث مخنقة : « يالك من عالم ! » . ولكنه استطرد قائلاً : « إننى أواظب على قراءة هذه الأسطورة » ، فصاحت : « لكم أكره كتابك ! » . . . وأدرك السبب فى كراهيتها الكتاب : ففى ذلك اليوم الأخير من العام الأول لهواهما . . . فى ذلك اليوم ، كانت مشاعرها من الإرعاف بحيث كان يجرحها كل شيء ويؤلمها كل قول . . . حتى أكثر الحديث براءة وسذاجة !

ورسبها يقاربهما عند سام ينضى إلى الشاطئ ، فربط القارب إلى حلقة حديدية مثبتة إلى البر لهذا الغرض ، وولجا الكنيسة الرومانية العتيقة التى ضمت تحفا أثرية بيزنطية اكتشفت حديثاً تحت طبقة سميكة من الطلاء . كما كان هناك منبر من

الرخام الأسود ، وقابوت ، ولوحات من نقش « غيرارى » و « لوبنو » . . . ولم يشعرا بمقمة وهما يريان مناظر الماضي فى الكنيسة ، فما أجدد العشاق بمناظر دائمة الجدة والطرافة . لأنهم يخشون الأحاسيس الفاترة ويصدونها بدافع من خوف غريزى . فضلاً عن أن هذين الحبيين كانوا يسلكان فى الهوى ريباً ضيقاً لا عهد لهما به ، فلا غرابة فى أن يخشيا أن يفتاب عواطفهما مال أو فتور !

\*\*\*

وكانت قمة المرتفع الذى تتألف منه الجزيرة مشغولة بأكملها بمباني مدرسة للاهوت ، تشبه الحصن فى طرازها . ودار العاشقان مع انحناء فى الطريق الضيقة « فاذا هما قد انتقلا إلى بقعة منعزلة تماماً ، بين جدارين شاهقين ، فى جزيرة . . . وبدا لهما أن ليس فى العالم إذ ذاك سواهما . . . أو ليست هذه أبنية العشاق جميعاً . . . ؟ لقد كانوا يتوقان — فى السام الماضى — إلى أن يقضيا بقية عمرهما فى مثل هذه العزلة ، فلما وجداها ، إذا بهما يفران منها معا ، متجهين إلى الشاطئ . . . وهناك ، كان ثمة شيخ يصطاد السمك فى غمرة من اشسعة الشمس . وتحت ظلة — على مقربة — جلس طفلان حافيان . يلحوان بقذف الأحجار إلى الماء . بينما بدت المنازل الريفية بين الأشجار الممتدة على طول الشاطئ ، والتى أخذ الخريف يجردها رويداً من أوراقها . وانعكست صورة ( أورتا ) على مياه البحيرة الهادئة ، فاذا منظر الحياة الوداعة ، فى هبة الظهيرة ، يبعث ارتياحاً فى نفس العاشقين القلقين !

وتناولوا الغداء على درج السلم المؤدى إلى الهيكل . ثم مضوا فترة من الليل يطوفان بزورقهما في البحيرة ، بحثا عن مكان مجهول يبعث النشاط في أحاسيسهما ، وما لبثا أن يكما شطر البناء . حتى إذا بارحا الزورق ، راحا يفكران في طريقة يقتضيان بها بعض الوقت . فقال موريس لأديث ، حين بلغا الميدان الصغير : « هلا عدنا إلى الفندق ؟ » .. فصاحت محتجة على هذا السجن الاختياري : « اوه ، لا ! ما تزال الشمس مرتفعة فوق الجبل ، فلتفسر متلهلين في الطريق العامة » .. وكانت الطريق — بعد المدينة الخالية من الأرضة — تمتد بحفاة البحيرة ، بمتدرجة في الارتفاع ، حتى تطلو ( مون ساكريه ) — الجبل الذي يشرف بأشجاره وكثائسه الصغيرة على شبه الجزيرة — وتمتد على طول أسوار « الفيلات » التي ازدانت مداخلها بالنخيل وأشجار البرتقال . وحين بلغ العائشان « فيلا » متواضعة تكاد تتداعى — كانا قد لحاها من الطريق خلال بابها الذي ترك مفتوحا — تسامت أديث أريج ورود وأزهار ، فاهلبت بحبيبتها : « انتظر .. إن لهذه الزهور شذى بديعا ، وأنها الآخر زهور الموسم » . فقال : « لندخل ، وسأطلب لك بعضا منها ! » .

ودخلا ، فإذا بهما في حديقة حوت مجموعة بديعة من الأعمدة الهشة ، والأبراج الصغيرة نصف المحطمة ، وأروقة ناقصة ، فكانها صورة مصغرة لمدينة من مدن الفن غدت انقراضا .. ولكنها كانت حطاما بمنظها « منسقا » في شكل زخرفي . وفي وسط الأحجار المتناثرة المتراسة بنظام خفف من آثار الزمن

الهدامة ، قام تثال صغير من الرخام تحيط به شجيرات الورد .. تمثل « الحب » الذي استوى مبتسما على قاعدة عالية وقد شد قوسه أمامه . ولم تر « الشابة » سوى هذا « الحب » المحوط بالورود ، فقالت : « إنه لفاتن ، وكأني يشوء النهار بعائقه ! » .. فقال موريس : « كاننا في سوق للتحف القديمة .. ولعلنا في دار غنان يهوى العاديات الجنائزية .. فان الإيطاليين لا يحجمون عن الجمع بين الجبال والموت ! » .

واقترب منهما رجل في باكورة الشيخوخة ، يرتدى قميصا أبيض ، ويمسك في يده أزميل النحاتين ، فحياهما بإشارة تتم عن وقار يمتزج بالإكرام والتبلى ، وراح يتحدث بالإيطالية مع الشاب ، بينما انهمكت أديث في اقتطف الأزهار بإذن منه . وما لبثت أن انضمت إليهما وفي يدها باقة ، وقالت : « هاهي ذى باقتي . سأمنح كلا منكما وردة » . فطلق رب البيت يشكرها ويعبر عن عرفانه بصنيعها ، دون أن تفقه حرجا . وإذا ذاك قام موريس بتقديره إليها قائلا : « السيد أنطونيو سيكاردى .. إن السيد يقد التحف الأثرية .. وإنها لمهنة جميلة ! » . فتنظمت أديث إلى عشيقتها متسائلة ، وإذا ذاك قال : « سأوضح لك ذلك فيما بعد » .

وفما كانا مغمرين — بعد أن استأذنا مضيفهما — أخذت المرأة الشابة تتندر هازئة بهذه المهنة غير المالوفة : « صانع تحف مقلدة ؟! » .. فقال موريس : « ولم لا ؟ .. إن هذه التحف تستخدم في تزيين الحدائق . وأولئك أتينا بجوار

المقاعد — في الخنادق الغناء — عمودا بهشما ، أو تمثالا لإحدى النحوريات الخرافيات ، أو حجرا ذا طابع خاص ، لكان ذلك بديما جدا . إبنى اعرف رجلا فاضلا — في الحي اللاتيني — كان يصنع خبوطا كنسيح العنكبوت ، توضع على زجاجات الخمر ألقى تقدم في المسهرات أو المآذب الكبرى لتوحى بأن الخمر محقة ! » .

— وهل يربح كثيرا من المال — من مهنته هذه ؟

— أجل ، كثيرا — هذا مستحيل !

— لقد روى لى أن جميع الإغنياء المحدثين — وكم من محدثين اتروا من التجارة وما إليها ! — قد شغلوا بفتنه ، وأصبحوا يزينون المنازل الجديدة التى يشيدونها بتحف ملأه !

— حسنا ، ولكن .. تمثال الحب .. لمساذا يقوم الحب وسط هذه الأطلال الزرية .. كان من الممكن الاكتفاء بالزهور ، فقال : « لقد سألت الرجل في ذلك » ، فسأله : « وبماذا أجلك ؟ » .

— أحابى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة نامضة ، كابتسامة الجيوكندا ، بأن من المؤكد أن « الحب يستمرى العيش بين الخرائب والأنقاض ! » .

وصاحت ادith : « عجيب هذا ! .. فيبينما نرى الإيطاليين ينحتون الرخام ليضعوا قطعة منه في مقابرهم فيحبلوها إلى قاعات استقبال أنيقة ، إذا بهم يختارون النحف التى تشير إلى

الموت ليزينوا بها حدائقهم ! » .. وراحا يصعدان في بطن جبل ( مون ساكريه ) : الذى كان يرتفع على مستوى المدينة نحو إلى مائة متر . فلما بلغا القمة : كان الليل قد أرى سدوله غاضفى بهاء سحرى على غابات الصنوبر والأشربين والكستناء والأرز . التى كانت تحتضن معابد القديس « فرانسوا الأسيسى » العشرين المثارة . التى شيدت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر . على طرز متباينة منها المربعة ومنها المستديرة . ومنها ذات القباب ومنها التى بدون قباب ، ومنها القوطية والرومانية . وأكثرها بيزانطية . وكان فى مكان الهيكل — فى كل معبد — منظر يمثل فترة من حياة القديس ، تبدو فى تمثال من الفخار بالحجم الطبيعى : فكانه استعراض تاريخى صامت جامد . وما كان يكمل قداسة المكان ، تماثيل للأطفال راعوا أيديهم فى ابتهاج إلى السماء . أو أشعاعات رسمت بخيوط ذهبية موحية بوجود الله !

ولم يكن مورييس وادith يدعان يوما يمر — منذ استقرارهما فى « أورتا » — دون أن يذهبا إلى ( مون ساكريه ) ، إذ أم يكن يبعد عن فنتق بيلغدير بأكثر من بضعة خطوات . وقد اختارا المعبد الخامس عشر دون بقية المعابد ، إذ كان يقال أن الرسوم التى ضمنها من صنع « ميشيل أنج » ( ميكائيل أنجلو ) . وكان هذا المعبد على شكل أسطوانى « تملوه قبة وبرج قائم على أعمدة صغيرة من الجرانيت ، مما كان يذكرهما بكنيسة ( كالفر دى لينك ) ، حيث اتخذوا قراى الرحيل . أما الأقواس ذات الحديداب الخفيف — التى كانت تسمى على طول الردهة

المرتفعة على مستوى الأرض يبيض درجات — فكانت كالإطارات ، تبين خلالها مناظر الغابة ، أو المعابد الأخرى الجاثمة بين الخضرة ، أو قوّة إحدى الآبار ، أو جزء من صفحة السماء ، أو ركن من البحيرة ، أو جزيرة القديس جول التي كانت ، ببرجها القائم في المقدمة ، أشبه بحصن كبير وسط البحيرة الصغيرة !



وكان من الطبيعي أن يتجهوا إلى معبدهما المختار ، فراحا يصعدان الدرب الموصل إليه ، وقد بدت أشجار الأرض كأملياف سوداء على صفحة الأفق الضاربة إلى الحمرة . وهنا وهناك كانت المعابد البيضاء تتوارى تحت الأمان ، كأنها بيوت تفيض بالود والمداينة .. وامسكت أدبث ورودها يلحدي بديهما ، بينما أحادلت كثفى حببيها باليد الأخرى ، وتنهدت هامسة : « لقد كانت أمسية جميلة كهذه ؟ » . فتسأل : « أية ليلة .. » . وكان جوابها : « منذ عام .. أفتراك ناديا على شيء ؟ » .. فقال وهو بشيخ بوجهه : « لا » . ولكنها عادت تسأله : « وهل أن تقدم قط على شيء ؟ » . فاجاب في شيء من الجفاء وقد ضاق بالحاجها : « لا .. مطلقا ! » .

ومالت إلى الامام لتسمى إلى شفتيه ، وإذا بها ترى في عينيه نظرات بعيدة أثارته مخاوفها . كان ذلك الذي قام بينهما طوال هذا اليوم الأخير من العام الأول في غرامها « يبدو واضحا في عيني موريس .. » . وإذا ذلك نطقت بما كتبت الحكمة تصدها عن قوله : « أين شامبرى يا موريس ؟ » . فاجاب بسرعة وفي

إيماءة صدرت عن ثقة زادت من هلع المرأة : « هناك ! » .. إذن فقد كان يصوب نظراته — في أكثر الأحيان — نحو هذه الوجهة .. إذن فحبه لم يمتد شيئا ! وانبتقت الدموع من عيني المرأة . ولم يعن الشاب بسؤالها عن سبب البكاء ، ولكنه حاول أن يسرى عنها بأن عانقها متسائلا : « لكم أحبكم يا أدبث ! » . فأرسلت آنة أسمى :

— أكثر من أى شيء ؟ — أكثر من أى شيء !  
— وحتى الموت ؟ — أجل  
— أو لا يفوقه شيء ؟ — محال !

نصاحت في رغبة ضارية : « ولكنى لا أريد أن أموت .. إنها أريد أن أعيش ، فهل ستجبنى غدا إلى هذه الدرجة لا .. » . فتسأل في دهشة : « ولماذا غدا ؟ » . فتجالت : « لأننى خائفة ! ألا ترى محى أننا لن نستطيع أن نعيش على هذا الموال ؟ » .. وإذا ذلك هف موريس : « آه ! هانتذى تعسرفين ! لا ، لن نستطيع المضى في العيش على هذا الفسق . فليس بوسعنا أن نتغلب على المستقبل ، والماضى ، والناس .. ! ولكلك كنت نرغضين الخوض في هذا الأمر ! » . فصاحت : « امسكت يا موريس .. مه ! » . ووضعت يدها على فمه ، ثم عادت تقول ضارعة : « غدا .. غدا أمذك .. سامطيمك ! ولك أن تقرر مصيرنا .. ولكن ، غدا وليس الليلة .. هذه الليلة الأخيرة من حقى أنا ! » .. وحل فمها محل يدها على شفتيه !

ومر النهار سريعا . وأخذ الوجه الأخير الذى كان يسمي الجبال في الاضمحلال شيئا فشيئا ..

يستطيعون تأمل البحيرة من عل . وكانت الشمس حامية ،  
ولكن المرء يستطيع — في شهر أكتوبر — أشعتها بدلا من أن  
يتحاشا . . . ولم تنبش ادبث بينت شنة ، سواء عن حزن أو  
عن شرود بال ، ولكنه ما لبث أن كان السباق إلى قطع جبل  
الصمت الذي أصبح يفرق بينهما بدلا من أن يوحد بينهما ! .  
إذ قال : « كان لابد أن يأتي هذا اليوم يا ادبث . لقد كنا  
سمعيين هنا ، ولكن هناك من يفتكرني في باريس . وسيكون  
هذا بداية حياة جديدة » . . . وكان يرجو منها تشجيعا ، فلما  
لم يتلق شيئا ، استطرد في ارفك : « سنهيء لحننا جسوا  
عائليا ، وسيكون لنسا بيت . ثم إنني ساعمل على تعديل  
وضعنا ، والحصول لك على طلاق من زوجك . وهو ما لم  
نكوني نرغبين حتى الآن في أن أشغل به . لقد فصلنا جميع  
المرى دون أن ننظر إلى الوراء ! » .

وارادت ادبث أن تروغ من هذا القرار . . . فلقد كانت تفرغ  
من مفارقة إيطاليا ، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع  
إطلاقا . وقالت : « ما أجل الطقس في هذه الساعة ! لقد كنت  
أحس أمس ببرودة ! » . فجارها في صبر قائلا : « برودة ! .  
إن الهواء عليل حتى ليخال المرء أن الوقت لم يزل بعد صيفا ! » .  
سقطت قائلا : « ومع ذلك فقد حان الخريف . انظر ! » .  
كانت شيطان البحيرة — المرتفعة ، الموشاة — تترامى تحت  
أقدامها ، وقد ظهرت في مواجهتهما تضاريس الجبال ذات  
الانحرافات المناسقة « بنينا انتشر هنا وهناك هيكلا أو قرية ،  
أو برج يحدد معالم المناظر الطبيعية . أما الأشجار والقباب  
فقد تبدل لونها في أيام معدودات . كل منظر بالتحفة المنافرة

غلالة رمادية كانت أشعة الشمس الآتية تتخللها فتبعث فيها  
رمقا من الحياة . وما لبث موريس أن هبط درجات المعبد ،  
وسار صوب الاتجاه الذي أشار إليه مفسد لحظات ، وكأنه  
مسلوب الإرادة لا يظن إلى ما كان يفعل ! . ثم التفت فرأى  
حبيبته وأتمة بلا حراك ، بين عمودين ، وقد تجلى قوامهما  
الأبيض على الجدار الذي كان أقل بيلضا . . . فلما كما كانت  
تقف منذ عام على مضبة ( كالفر ) تنتظره ! . . . وغلب مرة  
أخرى على أمره ، فغمغم : « ما أجملها ! » . . . أما هي ،  
فكانت تشم الورد وتقاتل المساء ! وارتد ذهن موريس إلى  
الزيارة الغريبة التي قاما بهما في الأميل ، فقال لنفسه :  
« الحب ووروده ! » . . . ثم صاح « ادبث ! الست قادمة ! » .  
لقد أخذت البرودة تشيع في الجو ، وليس معك معطف ! » .  
وفيما كانت في طريقها إليه ، اتجه ببصره نحو الأفق ،  
وتصور بلدة مختلف لنفسه : « إن الأملال باتية هناك ! » .  
ولكن ألم يقل له فنان ( أورما ) بابتسامته الغريبة إن « الحب  
يستمرى العيش بين الخرائب والانتقاض » ؟ !

## ٢ = العيد الأول

أراد موريس — في يوم عيد الميلاد الأول لحيهما — أن  
يحول زميلته على الرحيل . . . فبعد أن تناولوا غداءهما ، اصطحبها  
إلى الطريق التي تقضى إلى ( مون ساكريه ) ، والتي تتخللها  
شرفات صغيرة محوطة بسياج من الحجر ، أقيمت لمن

سوى أشجار الصنوبر التي كانت محمولة بفلالة ذهبية من الضياء ..

ووقف العاشقان متكئين على سياج إحدى الشرفات ، وقد اشاع جمال المناظر - التي كانوا يوشكان أن يفقدوها - شجى كان يثير الألم في نفس ادِيث ، كما جرى لها من قبل في ( البانوا ) . وأخذت تستنشق عير الخُريف - الذي كان موشكا على الفناء - وقد اتسعت طاقتا أنفها ، وتوترت أعصابها ، وسرت في بنفها رعدة . أما موريس فلم يستطع أن يحول عينيه عن ذلك الوجه الذي لم يكده يذكر أنه رآه قط هادئا ، بل كان دوما حائلا بالعواطف ، وكان يبدو وكأنه نارا مستعرة تلتهم ما في نفس صاحبتها ، وتنعكس خلال العينين ! . لقد تجمعت في صفحة ذلك الوجه الصغير بعض خطوط دقيقة رفيقة ، تتم عن حركة الدم وهو ينساب في المروق تحت بشرة صفراء ، وأريج ينبعث من شعر أسود ، وجمال الدنيا بأسرها ! . واستطاع موريس أن يلمح - بنظرة واحدة - أثر العام الماضي على المرأة . . كان الشباب المستعاد ، والحرية ، واللهو ، والمدن المغاصه بالفتون - التي زارها - قد ساعدت على ازدهار حسنها ! . . كان قلبها يضطرب - عندما رحلا - بشهوات مستعرة : أما الآن فقد هدأت واکتملت في وقت واحد . . قط لم يحدث له أن قدر سحر إعرائها كما قدره إذ ذاك . . بل أنه كان يشعر بحزن مستعذب كلما فكر في أنه قد يفقدها !

واحست ادِيث بنظراته الملححة : فاسترشت وأشدت إلى



وأرادت ( ادِيث ) أن تروغ من هذا القرار .. فقد كانت تفرغ من مفادرة

( إيطاليا ) ، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع -

الافق بسركة واسعة من ذراعها ، وكأنها تحتويه بينهما .  
وقالت : « هذا أجمل مما أتيت لنسا في الأيام الأولى » . فلم  
يتمالك أن يجهر بأخر فكرة منته له : « وأنت أيضا .. أنك  
أجمل مما كنت ! » . وعجبت لهذه الفحبة غير المرتقبة ، فأجابت :  
« أصبح هذا ؟ » . فقال : « أجل .. انتظري إلى الأشجار ..  
أنها أخف مما عهدناها ، كأنها تخفتت من حمل لا نفع له . ومن  
الممكن الآن التطلع خلال أبنائها إلى مسافات شاسعة . وكذلك  
النظر إلى عينيك بقود إلى أغوار أعماق من ذي قبل » .

— حتى أغوار قلبي ؟! — حتى أغوار قلبك !

وابتسمت وهي تستعرض كل ما يجعله أي شاب عن قلب  
أية امرأة . ولما كانت لا ترتاب في مدى سلطانها عليه ، فقد  
رأت أن الفرصة مواتية كي تشير من ناحيتها أمرا كانت تنأى عن  
الخوض فيه منذ زمن ، كان غرضها أن تتخفف من جميع  
الأكاذيب ، وأن تشد عشيقتها إليها برباط لا انفصام له ، وذلك  
بان تحيله على أن يقبل أن يشاطرها ذنبا يستحيل عليها أن  
تكتمه بعد الآن . فان قبوله خليق بأن يكون أعظم دليل على  
الحب الذي يصيبها من مورييس . ولو أنها كانت في مكانه ،  
لما أحجمت عن أن تهيب ذلك الدليل . ولكن المرأة حريصة بأن  
تكون على حذر من الرجال ، إلى أبعد مدى ، لأن رايهم في  
الشرف عجيب !

إن حقها في اخذ ونقل المبلغ الذي منجها إياه السيد فرازن .  
كان أمرا لا يحتل أي شك في نظرها . فاية منحة هذه التي  
يملك المانح استبقاؤها لديه ؟ لقد ذهبت إلى درجة التخلل من

أي لوم قد يثره ضميرها إزاء الطريقة التي استولت بها على  
المبلغ .. نفيم تهمة الطريقة ؟ إن النساء لا يفهم جميع  
ما يعارض مع مصالحهن فيها كاملا ! لقد قيل لها إن المال  
بخصها . فوجدت في هذا ما يكفيها ! .. إنها ما شعرت بأى  
حرج عندما سرقت زوجها .. فقد كانت تكرهه ، بل إنها لم  
تعتقد قط أنها سرقة ، فهي لم تأخذ سوى المبلغ الذي كان من  
حقها فقط . مع أنه كان في وسعها أن تستولي على أكثر منه .  
ثم إنها قدمت — من جانبها — شبابها وجمالها ، ودفعت الزمن  
من حياتها ، مرطبا بالدموع ، فاستطاع أحد أن يرد لها تلك  
السنوات التسع التي قضتها في نفور مكبوت ، وإشهار  
مراكم ؟!

\*\*\*

ومع ذلك . وفي اللحظة التي همت فيها بان تجهز بكل  
شيء ، تولاه نوع من التردد . وما لبثت أن قالت في أعذب  
صوت : « إذن فالسعادة تخلع على المرء جمالا ؟ .. إن هذه  
أولى سنى السعادة في حياتي ، منذ طفولتي ! .. آه ! ليتك  
تعرف ماضى حياتي ! » . فتهتف بها : « لطالما سألتك أن  
تحدثني عنه يا أدب .. أرويه لى : .. إنك لم تعودى  
تقوين على صون الأسرار ! » .. وكان ما روته قصة معسدة  
ومنتحة ، ككل سيرة في التاريخ : طفولة سعيدة مدللة ، في  
وسط راق مقرف . ثم إنعلاص أيها الذي ابتلى بالميسر ، وكان  
إنعلاصا لم يتحمله ، فقاده سريعاً إلى القنوط ، والإفراط في  
الشراب ، فالمرض ، فالوفاة .. ثم الأزواج في الريف ، مع أم

مضعضة القوى ، حزينة . والثورة النفسية انثى اجتاحت ادبث على هذه الحياة الرتيبة .. وحى الشهوة المتأججة . تاكل قلب الفتاة الشابة التى ورثت عن أبيها تهورد وإسرافه . والتى هوت إلى درجة الاضطراب إلى تدريس العسزف على « البيانو » لابناء القادرين من الجيرة ، وهى ترتقب بفارغ الصبر ذلك الحب الذى كانت تأمل فى أن يواتبها بالحرية ! وقاطعها الشاب مقتبها : « تلك كانت حياة تمسمة » . وظنت انه يرثى لها ، فابتسمت شسكرة . وإذا كانت مستغرقة فى ذكرياتها « فانها لم تظن إلى الانتباه الذى راح يديه نحو كل صغيرة وكبيرة من كلامها .. وقالت : « تقريبا ! » . فسألها : « وهل كنت إذ ذاك جميلة ؟ » . فاجابت : « ما اظن ذلك . فقد كنت نحيفة كجذع الكرم ! » . ولكنها كانت تمرق غمتها . إذ أردفت فى دلال : « .. الذى يستخدم فى إيقاد النار ! » . وعادت تستأنف قصتها . فقد أخذ فرازن يلاحقها . وكان يثير استنوازاها بعينيته الغائرتين ، والعناد الذى استشعرته وراء ما كان يتظاهر به من دعة . وثار عليه ، فقرر أن يكون أول من يتقدم — من كل الذين كانوا يتقربون إليها — لادلل بدها . وكان يمتلك ثروة طيبة ، ومركزا محترما فى باريس ، وفى وسعه — لو شاء — أن يتخذ مكتبا للتوثيق فى جرينويل أو أمة بلدة مجاورة .. وكان زواجها منه « زواج مصلحة » فى ابشع صوره .. فقد كانت تكره الفقر ، وكانت أمها — التى لم تألفه — تومته هى الأخرى وتخشاه . فالمسنون من الناس لا يشغلون بغير الحياة ، أما الحب فلا يحرك فيهم ساكنا ! وهكذا كانت الظروف العائلية تسد على الفتاة كل المنافذ ..

واختتمت قصتها قائلا : « وهكذا .. بعثت نفسى ! » . ولم يكن موريى قد قاطعها خلال ذلك « بل راح ينصت ودقات قلبه تتسارع كشخص ينحدر إلى هاوية . حتى إذا كفت عن الكلام ، لفظ فى جهد الكلمات التى كانت على طرف لسانه منذ لحظة : « وصدائك ؟ » .. فاجابت : « مهلا ، فسوف تفهم كل شيء » .. وكان ثمة نفر قليل من الناس قد خرجوا للتريض فى الطريق المشمسة .. كما كان ثمة اطفال يلعبون فى الغابة ، بعيدا عنهم . وبذلك كنا وحيدين تقريبا . ولكن وجود الناس فى تلك اللحظات الحرجة التى كان العاشقان يجتازانها ، والتى كانت المرأة قد أراجت أوانها بلباقة حتى ذلك الوقت .. كان وجود الناس — وإن لم يضايقهما فى شيء — قد حرم المرأة سلطانها الأكبر فى الجدل .. سلطان القبلات ! ولقد أدركت — إذ لم يكن فى وسعها سوى أن تدرك — سر قلق حبيبها واهتمامه . وكلمت فى ذلك من قبل . كان هذا الموضوع يبعث عذاب لها منذ وقت طويل « ولطالما حاولت استبعاده بجهود كثيرة ، وبأكانيب ، وبإغراض عن الحديث فى الماضى ، فان الحب لا يحسب للنتائج حسابا .. وكان كل ما يهبها هو أن تقضى ذلك الموضوع عن نطاق هوائها .. بل كانت فى قرارة نفسها ترى أن التخلص من هذا الموضوع ضمان لديمومتها ارتباطها !

وبينما كانت تشخذ ذكائها بهمة ، وكأنه سلاح تحاول أن تفرض به تبريرا كانت تبغى — مخلصا ، صادقا — أن يحسم الأمر ، عاد موريى يقول بصوت خفيض : « صدائك ؟ .. »



الم يدن لك صدق ! » . وفي نفس اللهجة الأمرة التي أخذها عن أبيه ، قال : « تكلمى .. يجب أن تتكلمى ! .. هيا ! .. » . وربقته مدهولة ، مرتبكة ، وقد داخلها نوع من الذعر . إن هذا الشاب الكبير ، الذي بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة ، والذي كان جد لطيف - بل جد محبوب - والذي خالت أنه في مهبنتها .. لكم تحول فجأة إلى سيد آمر .. إذن .. متى لم تكتشف بعد كل أركان القلب الذي استحوذت عليه ! .. ودفعتها الغريزة إلى الإمضاء بأقل ما كان لديها من الحقيقة ، حماية لحبهما ! فقالت : « صدائى يا مورييس ؟ .. إنه ملكى فعلا ! » . ولكنه تسائل في إصرار : « ومن أين جاك ؟ .. إنه لم يكن من اهلك إذن ؟ .. آه ، لقد فهمت ! .. لم يكن هو » الذى نصر عليه في عقد زواجك ؟ .. اجيبى ! » .

وحاولت أن تسترضيه بهجارتها ، فقالت : « أجل ، هو الذى منحنى إياه . وماذا فى ذلك ؟ .. إنه ملكى ! » . ونمالك نفسه - مراعاة لوجود المارة - وقد استفبد به ذعر ينوق ذاك الذى تولاه . على أنه شاء أن يختم استجوابها قائلا : « لا ، إنها النعسة .. إنه ليس ملكك ، فأنا خير بهذه العقود . لقد كان منحة تتقاضىها إذا عشت بعد موت زوجك . هكذا هو » . وإنى لوقن من ذلك ، فاستجمعى افكارك ، واحضرى ! » .. فجمد كل كيانها إزاء هذا الإنذار الذى اتسبب من بين شفتيه الحبيبتين .. الشفتين الرقيقتين ، الحمراوين ! .. إن الأمر لم يعد - بالنسبة لها - سعيًا إلى تحويل عشيقها إلى شريك فى الذنب ، ليكون ذلك أعظم ضمان للحب ، وإنما أصبح الأمر

يقصر على إنقاذ هذا الحب ! ولم تكن تلك سوى نبرات صوتها التى كانت تدرك مدى تأثيرها عليه .. ثم ، ألم يكن بما اعترفت أن تؤكد هو الحقيقة بعينها ؟

وهفت : « لا تعاملنى هكذا يا مورييس ، فأنت مخطيء ! إن صدائى ملك لى ! إذ آل إلى مباشرة ، بفعل إصرار أحد أصدقاء أبى . مهل تريد دليلا ؟ .. لقد كنت أعطى أمى - أثناء وجودها على قيد الحياة - ريعه ، وكان لى الحق فى صحبه . أفرأيت خطاك ؟ .. لا تعاملنى بهذا الشكل ! » . وأخذ المؤلف السابق بمكتب فرازن يستعيد - فى غمرة الارتباك - كل معلوماته فى القانون ، باجئا عن سند ! ثم قال « إنها منحة ، على أية حال .. منحة منه . والمنحة عرضة للإلغاء فى حالة الطلاق » . ولكنها راحت تؤكد له فى حرارة : « لم يكن صدائى من هذا النوع .. أقسم لك ! » . فقال : « حاولى أن تفكرى بدقة يا أديث ، فالأمر خطير إلى درجة تجعل حياتى مهددة » . فهفت : « حياتك ؟ » .. وكان جوابه : « نعم .. أو شرفى . وهما - بيان ! - اكنت تستغلين بنفسك هذا الصداق ، وتستولين على ريعه ! » . فاجابت : « هكذا كنت » .

ومن حديثه اهتمت إلى الطريقة التى يخلق بها أن تقبها فى الإجابة ، فاقبلت على الكذب فى شراهة . لقد كان من المتفق عليه فعلا ، أن المائة ألف فرنك - التى منحها إياها السيد فرازن - ملك لها ، ولكن استثمارها كان بإشراف الزوج .. ولم تكن لتبقى بعد دعوى الطلاق ! وفى كل الأحوال ، لم تكن لادم فرازن الحرية فى التصرف فيها .. فلا فائدة استثمارها :

ولا في أن تسحبها وحدها ، ولكن ، ما الذي يهم من كل هذه الحجج ؟ . على أن موريس ظل سادرا في أسئلته ، وكأنه من قضاة التحقيق . . فقال : « أين كان ذلك الصداق مودعا ؟ » . فأجابت : « في مصرف « يونيفرسال » ، في شكل سندات عملت على تحويلها كما سبق أن رويت لك . فدعني ا . . . ولكنني مضى في تساؤله : « اكانت مودعة باسمك ؟ » . واجابت في إصرار : « باسمي » . . فسألها : « أين هذا المصرف سحبت المبلغ قبل سفرنا ؟ » . وكان جوابها : « من هنالك » . . وماد يتسائل : « اكان بوسمك أن تسحبني من فرع شامبيري هذا المبلغ بتوقيعك وحده » . . وأكدت له ذلك ، فقال : « إذن فقد تزوجت على اساس انتمثال ممتلكات الزوجين » . . وكان جوابها في هذه المرة ايضا : « هو ذلك ا » .

\*\*\*

وكان قد سألها مرارا في هذا المدد - منذ باحت له بحبها ، ثم منذ فرارهما - مستقبلا عن مصدر ثروتها الشخصية ، فكانت تلقى في روعه انها ميراث عائلي . فلما ابتكرت خرافة المصرف - وقد توهمت انها لا توقظ شكوك الشاب - حرصت جاهدة على التثبت بها . . وكانت إجاباتها الدقيقة ، السريعة ، تطابق إيضاحاتها السابقة ، وجديرة بأن تلقى في مجموعها تصديقا ، فلم يكن من البعيد عن المصدق أن يستشير الأسرة - « دانيهاري » - قد تدخل قبل توقيع العقد ، مستغلا حب السيد فرازن ، للحصول على هبة مباشرة ، مطلقة ، نهائية ، بغية ضمان مستقبل الفتاة ، وليكمل لها - في ذلك الصين - مزيدا من الاستقلال والكرامة .

فلماذا ارتاب موريس في مثل هذه الحقائق ؟ . ألم تقض هذه الحقائق على هنائه بما فيه الكفاية ؟ . لقد كان شططا منه أن استسلم لمثل هذه القوابة التي أفاق الآن منها ثائرا ، وإن قيل - في رضى مثين ! - أن يؤخر السعى للحصول على عمل ، حتى انقضاء هذا العام من عمره - على أنه لم يكن يعتقد لحظة واحدة أن ثروة اديث - التي كان يتوق إلى عمل كي يتم نقصها - نبتت من ذلك الأصل المسم . . ولكن ، ها هو ذا الأصل يتكشف له ليحطم عزة نفسه ، وليهدم فيه كل احترام لنفسه . . وحتى إذا كانت هذه الثروة حقا خالصا لزميلته ، إلا انها جاءت في الواقع من رجل هدم هو حياته العائلية . ومن ثم فإن افقه قدر تسرب منها إلى حياته ، إنها يعتبر خزيا لا يقوى على تحمله ، مهما يكن الثمن !

وراح - في حيرته - يحسب الرقم الذي بلغه دينه ، ثم سألها : « إن تقودك مودعة في المصرف الدولي بميلان . فهل تعرفين كم نقصت ؟ » . . فأجابت اديث : « إنها أنت الذي تتولاها » . . فقال : « لقد بلغ النقص ثمانية آلاف فرنك تقريبا » . . وإذا ذاك قالت في لبونة ، مظاهرة بالاحتجاج : « إذن ففصن لم نبذر كثيرا » . . والواقع أن هذا المبلغ ، إلى جانب ما كان يحمل هو ، كان قليلا بالنسبة إلى نفقات عام كامل انقضى في رحلات واسفار . ولكن الحياة كانت رخيصة في ( اورتا ) - حيث قضيا ستة اشهر - كما أن الملاهي كانت قليلة ، وزهيدة النفقات . ولقد ارتدت اديث - بعد فترة قصيرة من التذنب - غبات تؤثر البساطة والاعتدال ، وتتنع بالقليل من النفقات . . مكتفية بالحب !

تري كيف ؟ ومن اين ، يحصل على هذه الآلاف الثمانية من الفرنكات ؟ .. لسوف يرى نفسه مجردا من الكرامة والشرف ما لم يردّها ، ولسوف تصبح الحياة مبنا يقتله . وأخذ مورييس يوسع صاحبه قسوة ، نتيجة ما داخله من شعور عميق بالاضعة : « هذا حسن .. اننى مدين لك » وسأوفى الدين ، ثم ننظر فى الأمر بعد ذلك ! » . فتعبدت وقد خارت قواها ، وخبت عزميتها ، وغلبت على امرها ، وقالت : « أى حديث هذا الذى يدور بين حبيبين .. وفى عيدنا الاول ؟ » . واخفت وجهها فى راحيتها ، ففسار إليها - وهو أشد منها تعاسة - وحاول أن يقضى راحيتها عن وجهها قائلا : « اسمى يا اديث .. إني لا اتهمك انت بالذات . فنحن نعيش معا كها او كنا زوجين ، ومن ثم فليست أفكر إلا فى غرامنا . لقد اخطأت .. إننى ما زلت شابا صغير السن ! » . فاسلمته يديها دون أن تخشى أن يرى عينيها المفرورتين بالدموع ، وقالت : « اولست اتقبل كل شيء منك بالشكر والعرفان » . فقال : « ولقد كنت أود أن تكون هذه حالى .. ولكن » أن يكون ما تقبلته « منك » أنت ، وليس منه « هو » ! .. لقد ثار لنفسه ، وإذا كنت قد قوضت بيته ، فانه قد طعن هنائى .. فتساءلت : « أو ترانى أفكر فيه ؟ » .. ولكنه استعطرد فى أسى وإصرار اليم : « لقد كنا نعيش فى غير هم ولا شاغل . ولكن هذا المهد قد انتهى ! » .

وكان فى لهجته من القنوط ما حيلها على أن تلقى بنفسها بين ذراعيه هاتفة : « اصمت ! » .. وادارت أن تجره إلى خارج

الشرقة التى تركا فيها ثقتهما تنسرب وتنبهد ، فقالت : « تعال إلى الغاية يا مورييس .. تعال اجلس فى الظل ، خلف عيونا . هناك تكون فى خلوة ، ويخف شقاؤنا ! » . فقرر فى التو أن يستجيب لها ، وقال : « أجل .. لننصرف بن هنا ! » . وكانت الأشعة تتخلل أشجار الصنوبر ، راسمة هالات مضيئة حول أوراق الشجر الذابلة المتساقطة على الأرض ، فبدت هذه الهالات على الطريق الظليلة ، وكأنها بقع رخوة يجب تخطيها . ودارا حول المهد : ثم اختارت اديث ركنا ظليلا منسزلا ، حملت حبيبها على الجلوس فيه ، ثم احتوت وجهه بين راحتيهما وأغرقت بالقبلات . وبدأ الشاب مستسلما لفزلها فى البداية ، ولكنه ما لبث أن دفعها عنه فجأة ، وصاح : « لا ، دعينى ! .. انصرفى .. إن إرادتى تتلاشى عندما تلاصق شفقتك شفقتى . إننى لم أعد شيئا مذكورا .. لم أعد أكثر من قلب ينبض بين جوانح ميتة ! » .

— إننى احبك

— وأنا احبك كذلك !

واستوى على قدميه ، كمن ذهب عقله ، وأوما إلى البحيرة التى كانت تتألق خلال الأمان ، فارتعدت أوصال اديث - إذ ادركت ما كان يرمى إليه - وهتفت : « ولكننى احبك أكثر من ذى قبل . ما عايك إلا أن تأمر فاعطيك واصفى إليك » .

— اتجيبين معى ؟

— وإلى اين تقودنى ؟

فقال مومنا نحو البحيرة : « هناك ! » . فانكشمت بحركة غريزية وهتفت : « امكت ! » .. وكما اقتضته بالرحيل ، على

مضنية ( كالنيردى ليمك ) ، اخذ هو - في هذه المرة - يحاول إقناعها : « تعالى ، فان العام الاول في هوانا قد مات ! تعالى . فان حبنا قد مات . » ولن يفتقدنا احد . إن الماء ليس قارسا . ولنزلق إليه من احد القوارب ! لقد غدوت مجردا من الشرف ، فهل تجيبين معي ؟ . » وامسكت اديث بذراعه بقوة ، وصرخت مذبذورة : « لا ، لا ، لا . . . إني احبك » وإذا احب الإنسان نفسه لا يرغب في الموت . إن الإنسان إذا احب لا يتورع عن الكذب ، والسرقة ، والقتل . ولكنه لا يرغب في الموت ! والعشاق الذين يتفحرون ، لا يحبون غرامهم ! . . . وتخلص موريس من قبضتها ، دون أن يشفق من أن يجرح شعورها ، وصاح : « دعيني . . . لا تلمسيني ! » . . . وانطلق هاربا . وب نفس سرعته : هرعت المرأة في أثره . . . وكف الاولاد عن لعبهم في الفأبة ، لينصرفوا إلى متابعة السباق !

على أن موريس كان قد ابتعد عنها ، فلم يعد في وسعها اللحاق به . وبهم لغوره إلى فناء « بونشيوني » ، وهو مكان كان قد اكتشفه في نزواته مع اديث ، يقوم فيه برج مربع عال ، هو الطلل الباقي من قصر قديم ، وقد حفت به جدران مهدمة ، تظللها الاعشاب والنباتات المنسلقة . . . وكان موقعه في الطرف الأقصى لبحيرة اورتا ) ، على تل اكتسى بأشجار الكستناء ، وأطل على مساحة شاسعة تنتهي في الجنوب عند ( توفار ) ، وهي مدينة بدیعة تقوم في نهاية سهل ، يليه جبل ( مون روز ) الذي تشرف قمته الثانية على سهول أخرى تحف بها جبال بدت ثلوجها متألقة تحت الشمس - وكان المكان قفرا ،

لا مئيل له في البطاح المجاورة ، من حيث أنبساط الطبيعة وتجاولها أهله . وكان موريس يتكرر من التردد عليه ، عندها كانت صاحبتة تتركه لنفسه يضع ساعات ، وقد برح به التعب . . . وهناك ، كان يحلو له أن يسرح البصر صوب بلاد . . . وهو يستشعر وطأة الغربة !

ومكث موريس في تلك البقعة طويلا ، وهو ينكا جراح نفسه ويحيى مواتها . . . ترى لماذا لم يداخله في تلك الساعة سوى الشعور بالشقاء ، برغم ما كان يبني أن يغير شهادته من عواطف جياشة لا يلد إلا أن هناك شيئا آخر غير الحب . . . شيئا بلغ من سلطانه أنه كان من القوة بحيث نزل بالحب إلى المرتبة الثانية - وإن لم يستطلع القضاء عليه - فافسد بذلك ما كان في الحب من الوان السعادة ! . . . إن الحب لم يكن يشغل الحياة بأسرها قط ، بل أنه لم يقو يوما على أن يعيش في معزلة . منفصلا عن بقية الحياة . . . وهو إذا ترك وشأنه لم يهد سوى قوة جامحة هدامة ! وهكذا وقع في نفس موريس أن حبه قد أوقع - ولا بد - كارثة حلت بمن كانوا في الجانب الآخر ، خلف تلك الجبال التي كانت تحجب الأفق . . . فهل في وسعه أن يلقي التبعة على الظروف وحدها . . . لا ! إنه لو استعاد الماضي في صراحة ، لوجد أن هذا الماضي يدينه . لقد تكشفت له نفسه ، برأى أنه مسئول عما بدر منه من رعونة وضعف : مسئول عن قبول الرحيل مع تلك المرأة ، في حين أنه كان خليقا بأن يدرك أن موارد لن تلبث أن تنضب قبل مضي وقت طويل . . . مسئول عن القرارات التي أدلت بها اديث إليه دون أن يطالبها بدليل واحد عليها ، مع أنه كان من السهل عليه أن يلصق نفسه بها . . .

مستول عن انصياعه لغوايتها ، وموافقته على الاستمتاع معها بالحاضر ، دون أن يربط بين هذا الحاضر وبين أى ماض أو مستقبل .. ومستول كذلك عن استسلامه لضراعاتها عندما ألحت عليه في أن يمنحها من حياته عما يقضيه في نسيان .. عما يقضيه في هناء .. عما يقضيه في كسل وخسة !

وتجلى له أنه إذا أراد الإبقاء على شرقة ، فلن يتسنى له الإنقاذ إلا على أيدي أسرته .. فقد رأى أنه بغيرها ضائع ، لأنه لن يستطيع - وقد لا يستطيع لأمه طويل - أن يسد تلك النقود التي لم يكن راغباً في إنفاقها . ولم يداخله شك في أن الأسرة ستخف إلى نجدته لو أنه استغاث بها ، إذ كيف تنكص عن ذلك ؟ أو ليست متضامنة معه في عاره ؟ أو أنها كانت متضامنة في عاره ، فهو إذن مطالب بإزاءها بالتزامات هرب منها . لقد كان الابن الفضل في أسرته منذ مولده ، وقد ارتبط نحوها بالتزامات أهلها ، فحكمها إذن حكم العقد المفسوخ ؛ هذه الأسرة التي ندين لها بالعون في أوقات المحن ، وفي الخطر .. بأى حق نسيها في انطلاقه وراء سعادة انانية تكاثفت نعماتها كلها ضده ؟ لقد فرقت كبريأؤه بينه وبين أبيه ، ولكن أمه خليقة بأن تكون موضع ثقته ، فيطلب منها المبلغ اللازم لتحريره .. فان هذا المبلغ هو كل ما يتبقى أن يناله في الحال ، حتى يسفرد كرامته وشرفه في نظر نفسه ، قبل كل شيء !

وما أن عقد النية على ذلك ، حتى عاد إلى الفندق فكتب إلى دمام روكفيلار . ولم يكد يتم الخطاب ويسلمه إلى البريد ، حتى عادت أدبث ، ولحقها في نهاية المرددة ، نبهت إذ رآها بهذه السرعة ولم تمض إلا ساعات قليلة على ابتعاده عنها . لقد

ظلت - منذ عام - تشغل كل أيامه ، وكل خفقة من قلبه ، فهل تراها قد وجدت نفسها مجردة من هذا السلطان ، بهذه السرعة ؟

أما هي - فقد وقفت حين وقع بصرها عليه ، وقد انعقد نساها . ثم هرعت إليه فالتقت بنفسها بين ذراعيه هاتمة : « أهذا أنت ؟ أهذا أنت ؟ » .. فأجاب في حنان ضاسف : « يا حبيبى .. يا عزيزتى ! » .. وقالت : « إذن فأنت هنا .. ما أسعدنى ! » . وأومات إلى البحيرة في ذعر ، لتوضح له عما جال خاطرها . وقالت : « لقد جئت من هناك .. سرت على طول الساحل الرملى . لتجلس .. ألا تريد ؟ » لم تعد سائى تقويمان على حملى .. لكم استبدب بى الخوف » .

ولم تكف عن التحديق فيه ، فوجد في منظرها الفتنة القديمة . وكان الخريف يلهمها بإغراء ناعم ، فوقف الحب منتصرا على الاطلاع .. . واقتبلا على ارتشاش هواء كانا يهلما أنهما مسوق إلى النقاء !

\*\*\*

ولم يمودا - منذ ذلك الحين - يتحدثان عن الماضى . وكان وريس من ناحيته ينتظر ردا على خطابه . أما أدبث ، فلم تجسر على سؤاله ، وإنما راحت تضاعف من لغتها كى تروق له . بيد أن هذه الفتنة ذاتها كانت قد تغيرت ، فلم يعد فيها إثارة ولا احتدام دائب ، إذ أن خوفها من فقدان حبيبها جعلها وادعة خائفة ، تذوب ضعفا وحنا . وكانت تسعى لاجتذابه إلى الحديث ، وتجهد في البحث عن الموضوعات التي تاذ له قراءتها ، وتعزف له المقطوعات المستعينة التي يقرأها . في

حين انه لم يعد يعاملها إلا في ترفق . وكان كل منهما ينعم بهذا  
الوئام الناعم المتجدد ، ولكن .. في شيء من الضيق ، إذ أن  
وجودهما معا بات مجردا من البهجة ، ومن الثقة ، ومن  
الاطمئنان !

وكان ثاني أيام شهر نوفمبر قاسيا عليهما أكثر من سواه .  
فقد أراد مورييس أن يخرج للنزهة وحيدا ، كى يستعيد ذكريات  
أسرته في ذلك اليوم الذى كان يحتفل فيه بإحياء ذكرى  
الأموات . ولكن اديث توبلت إليه أن يصطحبها ، فقبل في غير  
إبتهاج ، وذهب يفتظرها عند ( مون ساكريه ) ريثما تستكمل  
تأهبها وتلحق به . وسألته حين وافته : « إلى أين نذهب ؟ » ،  
فاجاب : « إلى المقابر » ، كما يفعل كل اناس اليوم . وكان  
عليهما أن يجتازا - في طريقهما إلى المقابر - حقلا غير مزروع ،  
كان فيها مضى جزءا مقبرة ( أورتا ) ثم ازيلت عنه الأرضة -  
وفصل عنها . وكانت المقبرة تضم قبورا غير ظاهرة ، ولا يعرف  
اصحابها ، إذ لم يكن ثمة ما يبرزها للنظر : فلا أسماء ، ولا  
صلبان ، ولا ارتفاع فوق مستوى الأرض . ولما كان ذلك اليوم  
هو عيد جميع القديسين ، فقد نثرت أيد مجهولة باقات البنفسج  
هنا وهناك ، فحولت القفر إلى حديقة !

ووقفت اديث ومورييس في ذلك المكان المنعزل الذى أحاطت  
به أشجار الكسنة ، وقد بدت أوراقها معلقة في الهواء . تكفى  
لنحة من نسيم لإقصائها عن الأغصان . وهبت مع دنو الليل  
نسمة عليلية ، فتساقطت بعض الأوراق ، وراحت تدور حول  
نفسها في الهواء ، ثم استقرت إحداها على قبعة المرأة الشابة  
.. واثار مشاعر مورييس - في ذلك اليوم المفعم بالانفعالات

الحياتية - أن رأى هذا الرمز الحزين ، فوق ذلك الوجه  
الساخن البشرة ، ذى العينين اللتين تشعان لهيبا .. ونوق  
ذلك القوام الذى كان - برغم وقوفه بلا حراك - ينضج بحرارة  
الحياة !

وإذ طال صمته ، أرمات اديث إلى الزهور وقالت : « ما أجمل  
الزهر ! » .. وأخذ فكارها يحومان حول الموت الذى غطاه  
الزهر . وأفانق العاشقان إلى نفسيهما على مهل ، فقاملا الأشجار  
التي كانت تقوم في صف حبيهما عن الانظار ، ثم دنا كل منهما  
من الآخر .. وتمانعا .. فوق القبور !

### ٣ - الأطلال

استدعى مورييس - في اليوم الثانى بعد تلك النزهة - إلى  
مكتب الفندق . وقيل له : « إن ساعى البريد يدليك ، بشأن  
خطاب مسجل » .. وعرف مورييس المخطوفات الصغرى التي  
استعملها « بوب » ، فاسرع إلى فض الأخفام ، بينما كانت مديرة  
الفندق تاملها في عجب ، بعد إذ قرأت بيانات التسجيل . وكان  
الخطاب المجلد بالسواد يحوى على ورقة مالية من ذات المائة  
فرنك ، وإذن مصرفي قيمته ثمانية آلاف فرنك « على المصرف  
الدولى سيلان - بتوقيع أخته « مرجريت » .. وهتف الشاب  
لنفسه : « الآن أصبح سيد نفسى ! » .. كان الاعتزاز بالنفس  
هو أول ما خامره بعد اللوان . وحين أطمأن ، فطن إلى حافة  
الخطاب المجلة بالسواد ، فالتفتض قلبه . لقد وقع حادث سيئ  
هناك أثناء غيابه - والمرء في ميعة الشباب - وبعد ذلك أحيانا  
- لا يتصور قد احتمال فقدان أولئك الذين يحبهم ، بل أنه ينادى

عنهم وهو واثق من انه سيجدهم عند عودته . ثم يتبدد هذا اليقين في المستقبل « عند وقوع أول مصائب . ولما كان موريس قد فارق أهله ، وحرّم أنباءهم ، وانصرف إلى نزوات الحياة . واستغرقته أنانية الهوى ، فقد كان حريا بأن يجهل ذلك القلق الذى ينهش الصدر فى نهم وحشى عندما تعاوده الذكريات . وكثيرا ما كان يتذكر أسرته بل كثيرا جسدا - فيتمثل الفراغ الذى خلفه فيها . . ولم يكن وجود ايكث كافيا لطرد اطباف الذكرى دائها ، ومع ذلك فانه لم يفسور قط حدوث وفيات فى الأسرة . على انه منذ بضعة أيام - أى منذ بدا فصل الخريف يخلع تقلباته على هناء العاشقين - كان موريس يتمثل وجهه امه الشاحب ، اكثر من ذى قبل ، ويحس على وجهه اللبسة الأخيرة التى ربت بها يدها الباردة وجهه ، فعاد يستشعرها برغم مرور عام !

ولم يكن مثاهبا لتلقى الصدمة . . ما السبب فى أن مرجريت هى التى كتبت له ؟ ثم ، على من تفرض كل هذا الحداد ؟ ولم يجرؤ على الإجابة عن هذا السؤال . . فقد كان الجواب يفرض نفسه فرضا . وتناول موريس قبعته وغادر الفندق والخطاب فى يده . . كيف يقرؤه فى مكتب الفندق ؟ لا ولم تكن الشرغسة بالمكان الملائم ، ولا الطريق المحفوفة بالأشجار « ولا الغابة . . فقد تلحق به اديث بعد هتية ، فتفاجئة ، فى حين أن الحزن الاليم الذى حمله الخطاب كان حزنه الخاص ، وما كان راغبا فى أن يقتسمه مع أى شخص . . فان اقتسامه يخفف من حدته ؛ فى حين انه كان يريد أن يحس بوخزاته !

وحين أصبح خارج الفندق ، قرأ السطور الأولى ، ثم انطلق فى الطريق كوحش جريح مطارده . وأخذ يواصل انطلاقة كلما منح أثرا للنزول ، إذ كان ينشد خلوة يبكى فيها دون أن يراه أحد . ومن ثم يمشى شطر برج « بوتشيونى » . ولم يتوقف إلا عند قمة التل ، فى أسفل البرج . وكان لاهث الانفاس ، فتهاك على العشب النامى بين الجدران المنهارة ، إذ ظل يعدو وكأنما كان فى وسعه - أو فى وسع أى امرئ ! - أن يفر من القدر المحتوم ! وما أن استرد أنفاسه ، حتى استبد به الخوف ، وراح يعتصره . وكان الخطاب المؤلف من بضع ورقات قد تجهد فى قبضته . . ولم يجرؤ على قراءته كله ، فقد كان يعوزه جهد عظيم حتى يستطيع أن يواصل القراءة ، ومن ثم أخذ يقرأ على دفعات . . كانت الرسالة تحمل إليه من الفواجع فوق ما كان يوسعه أن يحدس . وقد جاء فيها :

« شاميرى ، فى ٢ نوفمبر

« عزيزى موريس : عهد بخطابك إلي ، فكنت أنا التى فضضته . وكنت أنتظره منذ امد طويل ، إذ كنت موقنة من انه سيجيء ، أو تجيء أنت . . لقد انبأنى امنا بذلك ، لانه ما كان بوسعك أن تتسانا إلى الابد ! ولقد أدركت وأنا اقرا خطابك أنك لا تعرف عنا شيئا منذ رحيلك ، فوجدت فى ذلك تعطلا لصمتك المستمر . ولعلك فهمت الآن انه لم تعد لنا ام . وأنا إذ انبك بهذا ، استجمع كل الاسى الذى لا اريد أن أفقده ، لانه يقربنى منها . فابك معى يا أخى المسكين . . ابك بدمع سخين وعوض ما فاتك من بكاء . ولكن لا تدع القنوط يجرئك ، فانها لا تريد ذلك . .

« لقد غادرتنا في الرابع من أبريل الماضي ، اى منذ سبعة شهور ، فقد أخذت قواها متضائل طيلة الشتاء في بطن ورمق . ولم تكن تتألم ، أو أنها لم تكن تشكو » على الأقل ! ولم تكف عن الصلاة ، وفي ذات مساء ، غاضت روحها وهى تصلى ، دون أن يبدو عليها ما ينذر باحتمال موتها . وكنت وائى معها . فتدخلت إينا ، وحاولت أن تنقسم ، ونهيت باسم أدركنا بما أنه اسمك .. ثم مال رأسها إلى الوراء « وانتهى كل شيء ! .. » وكانت قد حدثتني عنك قبل ذلك ببضعة أيام ، وكأنها كانت تعلن رغباتها الأخيرة ، على ما فهمت فيما بعد . وكانت تتكلم ببساطتها المبهودة ، فقالت لى : « لسوف يعود موريس . ولكنه لن يعبر أكثر مما هو مذهب . إنه ما يزال يجهل الأمر ، ولكنه لن يلبث أن يعرفه ، وسيحتاج إلى كل شجاعته . فعديتى أن تحسنى استقباله إذا ما عاد . وأن تصلحى بينه وبين أبيه ، وأسرته ، وأن تدافعى عنه .. وأخيرا » ألا تخلى عنه مطلقا ، مهما يحدث ! .. وما كنت بحاجة إلى أن أعد ، ومع ذلك فقد وعدتها . ولما وصل خطابك « لم أتردد في فضله ، وأنى لأتوب عن أمى .. ومع اننى لا أضارعها « إلا أننى أحاول بكل قلبى .

« وأعلم أن أمنا لم تكن تراك مذنباً ، وكذلك أنا .. وكذلك أبونا ، وإبنى لوائية من ذلك . ولكنه قال لنا إن الضعف نوع من الذنب ، وإن ذاك الذى كلفته أسرته في سنى عمره الأولى ، حتى بلغ مبلغ الرجال ، ليس حراً في أن يجر عشيرته كلها إلى الهوان بأعماله . على أنه لا يتحدث الآن عنك قط . ولكنى أوقن

أنه كثيراً ما يفكر فيك ، ويعانى من هذا التفكير . فتذكروه بدورك يا موريس — كما تتذكر أمنا في مرقدها الأخير — إذ أنه قد تغير .. وتغير كثيراً . لقد أدركه الهرم في أيام قلائل . وهو الذى كان يحتفظ بشبابه في مشيته ، وأساريره « وصوته . وهو يعمل دون هوادة ، إذ يجد في العمل سلوى ونسياناً للحن أنه قد تغير .. وتغير كثيراً . لقد أدركه الهرم في أيام قلائل ، وقد وعدت بالآلومة على ذلك . وفي الوقت ذاته ، جدير بك أن تعرف ما حل بنا جميعاً ، ما دمت لم تغلق أبوابنا منذ عام .. فما يزال أبونا يتبع بكائنه ، حتى أن أحداً من عملائه لم يسحب منه ثقته ..

« أما هوبير — الذى كان من حق أن يمكث عامين في فرنسا — فقد حصل على إذن بالعودة إلى المستعمرات ، ورحل في شهر مايو الماضى قاصداً السودان ، حيث يحتل بحاميته مركزاً آميماً في داخل البلاد ، عند (سيكاسو) . وهو موقع معرض للأخطار ، ولكن هوبير هو الذى طلب أن يمين فيه . أما غيليسى فما تزال في مستشفى هانوى ، وهى شديدة القلق من أجلك . وقد روت لنا أخيراً مصرع اثنتين من المبشرات البلجيكيات ، ذبحتا على حدود الصين .. وبدلاً من أن تجزع ، فإنها مفتبطة لاستشهادهما ، وآسفة لأنها لا تملك أن تجود بحياتها من أجل ذاك الذى تدعوه « الابن الضال » ، وما اظنك إلا تعرفه ! .. لقد ورثت عن أمنا تقواها العارمة . فليحفظها الله لنا في مقربها بالطرف الآخر من الدنيا !



« أما اسرة مارسيلاز فقد بارحنا » برغم توهمات جرمين . . إذ ان شارل باع مكتبه ليتخذ مكتباً آخر في (ليون) . وكان رحيلهم هذا قاسياً علينا » وإن رأى أبونا أنه أمر معقول ، لأنه اتاح لزوج أختنا ان يصبح على مقربة من أسرته التي تقيم في (غليفرانثي) . كما تعرف . وفي ذلك نفع له ! وقد قضوا الصيف معنا في ضيعة البرج . وتودعت وجنات بيم وأدريين . وإن ظل الصفيح جوليان . وهو أحبهم إلى . شاحب اللون قليلاً . على أن هواء (سانوا) أكثر ملائمة له من هواء (ليون) الملبد بالضباب . ولذلك تركته جرمين ليقضى الشتاء معنا . وهو يشيع الحياة في بيتنا الذي خيم عليه الحزن . .

« وبهذا أختم عرضي للأبناء . لقد كانت أمنا . في الماضي . هي مجمع اخبار الغائبين ، ومصدر انباء الآخرين لهم . وهانذا ترى أنني أحاول أن أحل محلها . أما ما بقى ، فسأذكره دون ما عتاب ، إذ يبدو لي أن هذا خير أسلوب . وسأفرض لك في البداية ، ولن تلبث أن تدرك أن شقاعنا هو شقاؤك . ولابد أنك لا تعرف ما جرى عقب رحيلك مباشرة » وإلا ما لزمنا هذا الصمت الذي أضلنا . لقد رفع السيد فرازن دعوى ضدك . أجل ، ضدك أنت . منهما إليك بسوء استغلال ثقته . وهكذا توصف الدعوى التي كانت موضوع لفظ القوم . وهو يتهكم بأنك أخذت من خزانته مائة ألف فرنك . وقد ادعى بالحق المدني ليجبر العدالة على تعقبك . وبما أنك غير موجود هناك فقد صدر الحكم عليك غيابياً . وسأشرح لك الأمر بنفس الكلمات التي استعملت : لقد رفض المستشارون إدانتك ، ولكن

موظفي المكتب . لا سيما السيد غيليو . شهدوا ضدك في الجلسة ، وصرحوا بأنك كنت تعلم أن الخزانة كانت تضم المبلغ . ثم أنك كنت آخر من غادر المكتب ، وكأنت المفاتيح في حوزتك ، كما كنت تعرف الأرقام السرية لفتح الخزانة . ومن ثم فقد قضى بإدانتك ، وبسجنك عاماً ، مع مراعاة الظروف المخففة . ويبدو أن هذا هو الحد الأدنى ، إذ روعيت المؤثرات التي كنت خاضعاً لها . ولكن عليك أن تفهم أنهم أدانوك . . وكان هذا في الشهر الماضي ، ولم تكن أمنا على قيد الحياة . وعندما أنبأني أبي ، كان وجهه منتفماً ، حتى أنني خشيت أن يصاب بضر ، ولكنه كظم أساه كعادته دائماً . . وكنت أفضّل لو أنه بكى . ولكنه ليس ممن يبكون ، بل هو يكتم آلامه . وهذا أسوأ ما في الأمر . .

« ولقد الصق الحكم على باب بيتنا » ونشر بالصحف . ويبدو أن القانون يقضى بذلك ! إن كل الخدمات التي أداها آل روكينيار السالفون للوطن ، لم تشفع في تفادي إلصاق هذا الحكم على بابنا . . . وهناك كذلك المائة ألف فرنك التي يجب أن تسددها للسيد فرازن . ومن رأى أبي أن يبيع الضيعة ليدفع المبلغ . وهو يقول إن مدة غيابك تثبت . لسوء الحظ . أنك أفدت من هذا المبلغ ، وأن عمك . من وجهة الشرف . شبيه بالسرقة ! أما شارل ، فمضى عكس ذلك ، إذ يعتبر أن الدفع اعتراف بخنك . وأن هذا ما يجب أن نتجنبه بأي ثمن . ولكنه لا يراعى شرف الأسرة . ولذلك فأنني من رأى أبي . وعلى كل حال ، فقد عينت المحكمة حارساً قضائياً آخرى لتقديم تروية أمنا ،

ليحصل على حصنك . ولما كنت قد بلغت رشدى ، فأتيت طلبت  
إلى أبى أن يسلمنى حصتى ، وهى التى أرسلها لك الآن . ولقد  
دهش أبى لطلىبى هذا ، ولا أدرى ما إذا كان قد أدرك الباعث .  
على أننى عرضت عليه خطبك فأبى أن يقرأه ، وقال ما أنقله  
لك بنفسه : « لا .. إنه فى نظرى ميت ، ما لم يعد ليثبت  
برأته ! » .. لذلك أضفت مائة فرنك لنفقات عودتك . فعليك  
أن تعود .. وهاتئذا ترى ما سببت لنا من متاعب : فباسم أمنا  
التي كانت عودتك آخر رغباتها وآخر أواصرها . وباسم والدنا  
الذى سلمت قلبه ، هذا القلب البالغ القبل والحنان .. وباسم  
فيليبى وهوبير اللذين يتألمان من أجلك .. وباسم جيرمين  
وأخلك الصغرى .. وباسم جميع أهلنا الذين لم يأتوا على مر  
السنين سوى كل عمل مشرف ، والذين يستحلفونك ألا تهزم  
فى يوم ، عمل جيل بأسره .. باسم هؤلاء جميعا : عد ! إننى  
أنتظرك ! وستجدنى دائما بجوارك ، وسأساعدك ، فأتى ألقى  
هيك .. فعد ، ومن الميسور إصلاح كل شئ ، بعد ذلك ، ما دمت  
غير مذنب .. بل من المستحيل أن تكون كذلك ..

« وإننى لأرى جليا — خلال رسالتك — أنك غير مذنب .  
وحتى إذا كان ثمة خطر يهددك ، فان عودتك واجبة ، لأن من  
العدل أن تنال نصيبك من العذاب ، وما أظنك من الجبن  
بالدرجة التى تجعلك تتهرب . بهذا أختم خطابى ، وكفى أرجو  
أن أوفق إلى إقناعك . أما إذا كانت « هى » أقوى سلطانا منا  
جميعا ، وإذا لم تر العودة فورا ، برغم كل تضحياتنا وآلامنا ،  
فسأظل أنتظرك طيلة حياتى .. حياتى التى كرستها لأبيننا

وأك ، فاعلم أننى لن أتخلى عنك قط . أفلم أعد أمنا بذلك ؟  
لقد كنت أنت آخر من فكرت أمنا فيه « هذا أحزنك خطابى »  
تتذكر وصيتها لك بأن تكون دائما شجاعا « وتذكر قول أبينا :  
ما ضاع حق طالما أن صاحبه لم يموت ..

« وداعا يا موريس .. وأنى لأتبعك : أخبك — مرجريت » .

\*\*\*

ما كان أضال الحزن والمهوان اللذين استحوذا على موريس  
— بعد اعترافات عشيقته الناقصة — إذا قيسا بذلك المسبل من  
العذاب الذى أنصب عليه من رسالة مرجريت ! .. وكيف يتحمل  
الصدمة وهو الذى أصاح لحظات لنداء الموت ، لمجرد شبهة  
مشينة تفس الشرف ؟ .. كانت البحيرة القابعة تحت قدميه  
سادرة فى مناداته ، تعرض عليه النسيان ، والصمت ، والسلام !  
.. ومع ذلك فإنه لم يرها إذ ذاك . فان نداء العشييرة أخذ يتردد  
فى صدره ، وبدلا من أن يستسلم للضعف ، استجمع كل قواه  
ليواجه النكبة التى أحاطت به . إن التفكير فى الموت أمر طبيعى  
لدى العشاق إذا ما خامرهم الشكوك فى خلود هوائهم . ولكن  
موريس لم يفكر فى مساعفته ، فهى شئ شخصى يتعلق به وحده  
— وإن كان قد فكر من قبل فى أن من حقه ألا يعيش إذا  
فقدتها — وإنما فكر فى أن أسرته بأسرها كانت مهددة ، ومصيرها  
متوقفا عليه ، وإذ ذاك شعر بأنه لم يعد ملك نفسه ، وأنه  
مرتبط بأهله — شاء أو لم يشأ — وأن العزلة التى ضررها حول

نفسه لم تكن سوى سراب وهباء . على انه في الوقت الذي فقد فيه خيال المحبين الأزلى الذى يصور لهم الحب عزلة تعاد بينهم وبين الناس جميعا . . في هذا الوقت بالذات ، راح ينهل العزاء والراحة النفسية من ذلك التضامن الذى كان يفرض نفسه عليه مرضا ، كما ينهل الإنسان من معين طافح بالطاقة والنشاط !

وكان أقصى الآلمه ، هو عجزه عن أن يبكى أمه بحرارة وحرية . . وأن يبكيها وحدها . وشعر بحسد للأبناء الذين يتركون العنان لأحزانهم — أمام توابيت أمهاتهم — دون أن يتألموا أنفسهم . ألم تكن له يد في هذه النهاية التى لم تجل بخاطره قط ؟ . وتذكر أن الطبيب لم يلبس من المريضة « وإنها ذكر ان شفاءها كان يتوقف على إخلاصها للراحة والهدوء ، فكيف كان لهذا الكيان الواهن ان يقاوم العاصفة ؟ . إن العاصفة التى أثارها قد اجتاحت « البيت » وقوضته ، وشقت شمل الأسرة ، فرحل آل مارسيلاز ، وانطلق هوبير ينشد قسما من الشرف لاسم أصبح مضغة في الأنواء . . وما هى ذى الريح تحمل نذير الخراب مثلا في بيع الضيعة العريقة . ولم يعد في البيت سوى أبيه المكهل ومرجريت . . ولكن ، لماذا لم تتزوج مرجريت ؟ . أترى خطيبها كان من الخسة بحيث حاسبها على وزر غيرها ؟ إنها لم تتحدث قط عنه في خطابها . . بل إنها نسيت نفسها « وهى تعدد مصائبهم ، وكان كل ما قالته هو : « حياتي التى كرستها لأبينا ولك » ، ولم تشر بأية إشارة أخرى إلى تضحياتها . لم ينبج من الكارثة شخص واحد ، اللهم

إلا المذنب الذى راح يتذوق كل ملاذ الحياة ، تحت سماء صافية !

ذلك لأنه وإن لم يكن مسئولا عن التهمة المشينة التى رماه بها السيد فرازن ، إلا أنه قد آثم في حق أسرته عندما اعتقد أنه حر في أن يخونها . . ولقد أتهم عشيقته التى كان تهورها من أساليب العار والخزى ، والتى كان حبها سببا في دفعه إلى الحضيض . ولكن ، هل كان الحب حقا هو الذى هوى به إلى الحضيض ؟ . ذلك الحب الذى طالما اشتهاه في شبابه الحافل بالعواطف المشبوبة والدراسة الدائبة ، والذي كان يهب على قلبه كتلك النسمات اللذيذة التى كانت آلات الموسيقى المعلقة على الأشجار — كما ورد في الأساطير — ترتقبها لتمس أوتارها ؟ . . لقد كان يعزو إرهاب مشاعره إلى الحب ، كما كانت تعزى نغمات الأوتار إلى التسميم . . ولقد كان يعزو إليه النضوب والانفعاعات التى كانت تعترى المعين الدافق في أعماقه . . . وفي هذه الرحلة الخلطفة خلال حياته ، تذكر عيني أدبث ، ونمها ، وحركاتها . . أجل ، لقد كانت نغمات قلبه ناجمة عن دلال هذه الحركات ، وعذوبة هذا الصوت ، واللهب المنبعث من تلك العيون . . إنه قد يهجر هذه المرأة ، ولكنه لن يتنكر لحبه !

ومن ناحية أخرى ، ما الذى يأخذه على أدبث ؟ هل دار بخلها أن بأساة اليمه ستحيق بأسرة كاملة بسبب زلتها ؟ لا ، بكل تأكيد ! لقد استولت على تلك النقود كما تستولى على القلوب ، دون أن تفكر في شر ، وإنها عن يقين بأنها تمارس حقا

من حقوقها . ولو انه أفضى إليها بما حدث ، لتولاها الذهول .  
ولما أحجبت عن العودة معه إلى (شامبري) لتعلن أمام القضاة  
— بأعلى صوتها — براءة عشيقها . ولكنه لم يكن راغبا في هذا  
الكرم . بل كان من الأفضل أن تظل دائما في جهلها ، والا  
تمرض نفسها لاي خطر . فهل يسافر الليلة ؟ لا ، ليس  
الليلة ، وإنما غدا صباحا ، ودون أن ينبئها . وبعد أن يكمل  
صداقتها غير المشروع فلا ينقص منه شيء ! ولكن .. ماذا يكون  
مصيرها إذا هجرها هكذا ؟ أما تزال عليه واجبات نحوها .  
وهي التي كان الحب جماع حياتها ؟ .. وحاول مورييس أن  
يتصور مستقبلها ، فآذا به يراها ممزقة القلب ، مشتتة النفس ،  
تلعنه ! ثم تعود فتبكيه ، تباعا . وتشكوه إلى الغابة المقدسة ،  
والمهاكل ، وإلى كل شهود غرامها . لسوف يساعد فعلا على  
تعذيبها ! .. ولكنها — من ناحية أخرى — كانت تمتلك في  
نفسها موردا قويا : مرونة ، ورغبة جامحة في الحياة تمكثها من  
المقاومة والصمود والبقاء على قيد الحياة ! ألم يرها تقاومه في  
وجل ، وفي ثورة ، عندما تكلم عن الموت ؟ وأحس بقلبه يتلوى  
حين فكر في أنها قد تجد عشيقا آخر . « وان اللهب المتأجج في  
جوانحها قد يدفء يوما رجلا سواه .. نهفت لنفسه : « لا ..  
كل شيء إلا هذا .. لست أريد هذا ! » .

وكانت هذه هي المعركة الأخيرة في سبيل حبه ، وهو قد  
اعترف في الواقع ، منذ اللحظة الأولى ، بهزيمته . فان موت  
أبيه ونداء أسرته ، والحكم المشين الذي صدر ضده ، لم تكن  
تدعه له مجالا للاختيار . ومن ثم لم يبق له سوى أن يدير أمر

سفره . بحيث يخفف من شقاء أديث ما استطاع . .. إنه لم  
يعد يبقى بقاء معها . ولكنه كان يتعذب إلى درجة تكاد تدفعه  
إلى الآتين ، وهو يتخذ قرارا سريعا بفراقها !

وكانت أديث تنتظره على درجات سلم الفندق بصبر نافذ .  
فما أن رآته حتى هزعت لمقاتته ، وغيمت وقي لهجتها شيء من  
الشكوى ، لا القانين : « أخيرا ! » .. وحاول أن يبتسم قائلا :  
« نهار سعيد يا أديث » . وراحت تنفوس في وجهه بكل حنان  
واهتمام ، فلاحظت آثار الدموع ، وإذا ذاك قالت : « لقد  
أصبحت في خوف دائم من أن تفارقني ! » .

— خوف من ماذا ؟ — من ألا تعود !

نهفت : « يا عزيزتي .. » ، ولكنها قاطعتهم مستأنفة . حديثها  
في لهجة جادة : « إنني أعرف أنك ستخرج فلا تعود يوما ..  
الا قل لي إن هذا اليوم لم يحن بعد ! » ، فصاح : « كفى  
يا أديث .. لسوف أظل أحبك على الدوام ! » .

— دائما ؟ ومهما يحدث ؟ — مهما يحدث !

وتناولت يده فرفعتها إلى شففتها في تبذل . ثم قالت في  
استحياء : « قيل لي إنك تلقيت أنباء من فرنسا ، هذا  
الصباح » . فقال « أجل » . وإذا ذاك سالته : « وهل هي  
طيبة ؟ » . ووجد من الشجاعة ما مكته من أن يوميء بالإيجاب  
.. أما وقد احتفظ بأساه لنفسه « فقد أحس بأن هذا فراق  
بينهما فعلا . على أنها عادت تقول : « أما أنا فلا أرتقب أنباء  
قط .. إنك كل فؤادي وحياتي ! » .. فنهفت تنديها إلى

الشرقة ، حيث وضعت مائدتها الصغيرة في وقاء من الهواء »  
راح يسائل نفسه : « ترى هل لدى القوة على الرحيل ؟ » .

## { - العودة

كانت ادِيث في فراشها ، وقد رفعت رأسها فوق خائفة  
السريـر « واعتذلت لتتمكن من مشاهدة عشيقها وهو يسوى  
هندامه ، وقد وضع المصباح على الأرض حتى لا يسقط النور  
على وجهها . وسألته بصوت مثل بالنعاس ، وهي لا تكسـاد  
تقوى على فتح عينيها : « لماذا تغادر فراشك في مثل هذا  
الوقت المبكر ؟ » . فأجاب : « لقد شبعتم نوما .. واوشك  
النهار أن يطلع » . وأطلق المصباح ، فانسحب إلى الحجرة —  
بعد برهة — ضوء باهت تسال خلال خصائص النافذة . وعادت  
ادِيث تقول : « أن الوقت ما يزال ليلا يا موريـس .. » . وإذا ذلك  
سألها : « ألا ترين قيسا من النهار ؟ » .. ولكنها أجابت :  
« ما هذا بضوء النهار ، وإنما هو نور القمر » . فقال :  
« استأنفى النوم يا ادِيث « فما يزال الوقت متسعا أمامك » ..  
فجالت : « أجل ، غيظني أحسن بخمول .. خمول مستعذب ! » ..  
وتهاكت على الوسادة ، وأغلقت عينيها .. وكانت تحتفظ  
بفتنة مثيرة ، حتى في نومها « فدنا من السريـر » وانحنى متأملا  
وجيها على ذلك الشعاع الواهن المتسلل خلال النافذة . وهو  
يفكر : « إن هذا اللهب الضئيل المنبعث من عينيها ، والذي  
أذكى غرام حياتي .. هذا اللهب قد خبا ، بالنسبة لى . لن  
أعود أراه وهاجا .. بل إننى لا أرى جريان الدم تحت بشرة



لقد من السريـر ، وانحنى متأملا وجيها على ذلك الشعاع الواهن المتسلل  
خلال النافذة

وجنتيها ، ولا لسان أسفانها مع أن الشفتين متفرجتان . . وإكاد  
أنتبين معناء شكل فيها ، وأنفها ، وتلك الكتلة السوداء من  
الشعر الذي أشم عبره . . أما جسدها فسوف أحرم منه ! .  
وقلبه التأثر بدرجة طاغية . . كان كل شيء يقزيه على البقاء  
. . وانحنى ، ومس جبينها ، فأحس بحرارته العذبة . . بينما  
أشرقت على وجهها ابتسامة مبهمة ، وظلت عينها مغضبتين .  
وغادر مورييس الغرفة ، فلم يلق في ردهة الفندق غير  
صبي راح يتلاعب وهو ينظف الأرض . ولم يجتذب هندامه انتباه  
الصبي . وكان التاع الذي حمله مؤلما من حقيقة صغرة  
ومعطف شتوي وعسا . وكانت أقصر طريق إلى محطة (أورثا)  
هي تلك التي تخترق (مون ساكريه) . وأخذ القمر يفقد نالقه  
أمام فلالع الصباح ، ويتسلل خلال الغاية في خوف ورهبة .  
وكانت أشعته تنساب خلال جذوع أشجار السوفير النامقة ،  
فتبتد إلى الأوراق الذابلة المتناثرة على الأرض ثم تستقر على  
وأجهات المعابد . وحين بلغ مورييس المعبد الخامس عشر ،  
كتب عن السير ورفع رأسه ، فإذا الأعمدة الصغيرة الرشيقة  
تبدو بيضاء متباعدة ، وقد انعكست منها ظلال سوداء على  
الحائط . وصعد الشاب الدرج ، ثم استدار ليمتدح للمرة  
الأخيرة المنظر الطبيعي المألوف . وكانت حواف الأبواب ، ومباني  
بعض المعابد الظاهرة ، فتواثب حوله وكأنها طلياف . وتبين  
الجبال القائنة في مواجعتها ، وبعض أجزاء من البحيرة . ولم  
يكن في وسعه أن يرى فندق بيليفيدير الذي كان المنحدر بحجبه ،  
مع أنه كان ينشده بالذات . وراح يحفر المنظر على صفحة  
ذاكرته : هذه الأحجار التي كان يركلها بتدميه ، والأشجار ،

والمعابد ، وكل هذه المعالم غير الواضحة لن تلبث الشمس أن  
تعيد إليها بهاءها . . لسوف يراها مائلة بأكلها أمام عينيه -  
ما ظل محتفظا بذاكرته - لما كان لها من فتنة خاصة ، فكانها  
المعالم الإضافية التي تحيط بصور أصلية لتميزها وتبرزها . .  
وكانت تلك الصورة الأصلية - زهرة الشباب الفريدة -  
ما تزال تسيطر سحرها عليه ، على البعد . . وبدلان أن  
يهرب ، وأن يضي في فراره دون أن ينظر إلى الوراء ، مكث  
جامدا في ذلك المكان الذي كانت « هي » تحبه . والذي جاءته  
ممسكة بالورود بين يديها . في اليوم السابق ، لسيد حببها الأول  
. . اليوم الأخير في عمر هائلها !

لقد كانت نائمة في غرفتها ، مستسلمة للخمول العذب .  
وعندما تنهض للحاق به - بعد ساعة أو اثنتين ، أو قبل ذلك -  
منجد على منضدة الزينة خطاب النعي الذي يعلن إليها الفراق  
بكلمات حنون . . ولن تفهم الخطاب لأول وهلة ، ولكن الأوراق  
التي يضمها المظروف ستجלו لها الأمر . فهناك بيان حساب  
الفندق ، مؤشرا عليه بأنه دفع . . وبعض أوراق النقد ،  
وإيصالات بالمبلغ الذي أودع باسمه في المصرف الدولي بـيلان .  
مضافا إليه الإنصاف الذي أرسلته مرجريت روكفيار . وقد  
حوله مورييس إلى أدبث . إذ ذاك ستدرك الانتساب الذي  
انقض عليها - فان الأسرة التي تغلبت عليها من قبل قد  
استردت منها حببها ! - وستطلق صيحة ألم مدوية . . ولسوف  
يسمعا تتردد في أعماقه ، مهما يكن بعيدا عنها !

وأخذ نور القمر يذوب في ضياء الصباح والبرق ساعة

وموريس مستند إلى أحد الأعمدة ، يكاد يعجز عن ان يحمل نفسه على الرحيل ، وهو يقول لنفسه : « من أين تراني استمددت الشجاعة على ان احطم قلبها وقلبي ؟ » إنها ما تزال جد قريبة مني ، ولو أنني عدت إليها « فلن تعرف من الامر شيئا ، وسوف تستيقظ في لين ودعة . ولكن لا .. لن اراها بعد اليوم قط ، فهناك من الأوصار ما لا يستطيع الحب فخصها . إنني أدرك أن استعادة ليست حقا .. وانني لأعذب أدبت وأحبها . أما الأذى الذي الحقته بي ، فلم يكن عن طسوع خاطرها ! إنني لا أذكر سوى أنني أحس الضياء في قربها . ومع ذلك فأنني لم أعد أقوى على العيش معها ! أدبت . اغتذرين الماضي ؟ لقد أعطيتني زهورا في الليلة الأولى ، ثم منحنتني شفتيك الشبهتين بالزهور ، في غير ما تردد . وعندما قلت لي : « ساكون لك ، ولك وحدك ، عندما تشاء » ، أحسست مقدما بلهساتك يديك الناعمة تتغلغل في جسدي . اه ! إن الوجد المتهب الذي يشوب لمساتك الدللة ، والألم الذي سينتابك بسبب خطيئي أنا ، وضعفك .. كلها تجعلني ارتعد من المستقبل . فلا تظني أن حبي قد نقص ، وأنني سانسك يوما يا أدبت .. إن هذا لن يخطر ببالي ، بل إنني قد ازداد حيا لك ! .. ترى أية ذكرى ستحفظنيها لي ؟ .. لقد عاش حينا بين خريفين ، وأنتك لتفضلين هذا الفصل الذي يتقد فيه إغراء الطبيعة .. لقد وجدت لونه الذهبي في عيتيك « ووقتته المحومة في احضاتك ، حيث اكتشفت اللذة العارمة .. أما الآن ، فاني أرى الخريف ممثلا في زهور الأقحوان في مقبرة ( أورنا ) ، وهي تخفي الموت تحتها .. أجل ، الموت - قهلا أدركت .. ؟ إنني

لم أودعك ، فقد انتهى كل شيء . وهكذا الموت بالنسبة إلينا . لسوف تبكين ، وستكلمين ، وستمشين ، وستكونين في نظر القمر مخلوقا حيا طامحا بالدلال والشباب .. أما بالنسبة لي - أنا الذي لن أعرف عنك شيئا - فستكونين ميتة ! والحق أنه من الخير أن تكوني ميتة ، لأنك لن تلعنيني إذ ذاك . أنا الذي أحبك ، والذي اضطررت إلى ان أنزع هوانا ذبحا ! »

\*\*\*

وانتزع من اساءه - الذي كانت إرادته تتبدد فيه رويدا - صفر قطار .. فهل تراه غفل عن الوقت ؟ لا ، لابد أن هذا هو القطار السريع القادم من ( نومار ) ، والذي يسبق القطار الذاهب إلى ( دومودوسولا ) بدقائق ، وقد جاء هذا التنبيه في الوقت المناسب ليرده إلى عزمه « مفاد المعبد ، واجتاز الغابة راكضا ، حتى بلغ المحطة وقد بدأ الصباح يشرق على القمم ، واخذ ضوء القمر يتلاشى في الفضاء . وأبشاع موريس تذكرة إلى ( كوركوتيو ) - وهي محطة جد قريبة من أورنا ، ولكنها في اتجاه مضاد لمقصده - خشية أن تهتدي أدبت إلى اتجاهه إذا حاولت اللحاق به !

وكان الخط الحديدي يمتد عبر البحيرة حتى مدينة ( أومينا ) ، فجلس موريس في عكس اتجاه القطار - في العربة - واتكأ على النافذة ليلتقط ببصره صور هذه الأماكن الجبية . وسرت في مياه البحيرة رعشة خفيفة مع مقدم الصباح . ولاحظ أنشجار شبيه الجزيرة فارعة ، وارفة .. هناك ذاق طعم السعادة .. وغادر القطار مدينة ( أومينا )

يلقى نظرة أخيرة على (أورتسا نوناريس) ، وأن يستوعب بعينه وفؤاده هذا المنظر الطبيعي الذي كان يولى منه . وكانت الثواني التي تزيد من ابتعاده أشبه بإحجار يلقي بها إلى عاوية ، فيسمع ارتطامها حجرا إثر حجر ! .. وإن هي إلا ساعة ، حتى بلغ (دومودوسولا) وهي مدينة إيطالية صغيرة ، تقع على جبال الألب الكبرى ، وتشرف على نهر (توسا) السريع الانحدار ، الذي يصب في بحيرة (ماجرا) . ومن هناك كانت العربات ذات الجياد تنطلق لتربط بين إيطاليا وسويسرا ، مجتازة المنطقة العليا من ممر (سبلون) . وكانت هذه العربات تقطع المسافة التي تفصل وادي (أوسولا) عن حوض (الرون) — وقدرها أربعة وستون كيلو مترا — في اثنتي عشرة ساعة ، بفضل جيادها القوية التي كانت تستبدل بانتظام على طول الطريق .

ولم يتكبد موريس في السفر — إلى (دومودوسولا) — سوى غرناكت قليلات . وكان الشاب قد أنفق معظم نقوده — كي يرضى ضميره — بما نحو أدبث . ومن ثم استعان بدليل السكك الحديدية ، فبين أن السفر عن طريق (تورين) أبسط نفقة . وبقليل من الحساب ، وجد أنه إذا دفع نفقات سفره في الدرجة الثالثة من (أورتسا) إلى (دومودوسولا) ، ومن (بريج) إلى (شامبري) ، فلن يتبقى له سوى ثمن ثلاث أو أربع وجبات متواضعة . . وهكذا تكون عودته « عودة الابن الضال » حقا ! وتحمل — في غير تذهر — هذه الفاقة التي حشرته مع صغار العمال — إذ اضطر لأن يشاركهم مقادهم في القطار . وكان

اهتمامه بهذه الصفات يباعد بينه وبين اللوعة التي كان خليقا بأن يعاندها لو لم يجد ما يشغله . . فقد كان عليه أن يعرف الطرق التي يسلكها ليتصيد في نفقات السفر ، وكان عليه أن يتجنب الفنادق الغالية في (بريج) . . فوجد أن ثمة بيتين للضيافة فوق الجبل هما ماوى (سمبلون) وماوى (سان برنار) اللذان كانا يستضيفان الفقراء من عابري الجبال دون أجر . بل إن السباح أنفسهم لم يكتفوا بتخرجون عن الإقامة مؤمنا . وكان جاره في الرحلة من أبناء مدينة (بيمونت) « موزده بما كان ينقصه من معلومات ، وقال : « إن الملجا مفتوح دائما . . ليلا ونهارا ، ونهارا وليلا ! وفوق ذلك تستطيع الحصول في الليل على حجرة في الطابق الأول دون أن تستأذن أحدا ! » .

وهكذا هانت عليه مصاعب الرحلة . . فما كان عليه سوى أن يجتاز ممر (سبلون) على قدميه ، وينام في الماوى . لذلك بارح القطار في (دومودوسولا) ، ومن في أنفة بجوار العربة التي تجرها الجياد ، والتي كانت واقفة أمام المحطة ، حتى إذا امتلأت بالركاب لم تتأخر في اللحاق به ، تجرها جيادها الخمسة بقوتها المسالوفة . وكان موريس إذ ذاك في بداية الطريق المساعدة إلى القمة ، فحلق الحوذى في ذلك الشاب الأنيق الذي حمل حقيقته في يده ، وانطلق دون أن يخشى على حذائه من أن يتلفها السير ! ولوح الحوذى بسوطه في الهواء ليسترعى نظر موريس ، ثم أشار بحركة رشيقة — كتلك التي تقدم بها باقة ورد إلى أحد السادة — وعرض عليه مكانا في العربة ، فاجابه موريس : « شكرًا . . اثنتي ماض على قدمي »



.. فصاح الحوذى : « هذا مستحيل .. هذا مستحيل على ساقى «السيد» ! ثم أنك ستتأخر كثيرا ، وأعتقد ان «السيدة» فى الانتظار ! » . ولكن الشاب قال : « ليس هناك من ينتظرنى » . وإذا ذاك قال الحوذى : « أه ! هذا من سوء الطالع ، فما أحلى أن بجهد المرء عند وصوله ناراً مشتعلة ، وحساء سخا ، وامراً ! » . ثم جمع اعنة الجباد ، واستطحها ، فان هى إلا لحظات حتى غابت العريسة عن بصر موريس . واصبح وحيدا ، فاستأنف السير « صاعدا فى بطن » وقبل أن يبلغ دروب الالب الضيقة ، التفت يملى بصره بالابتسامات الأخيرة المنبعثة من الجمال الإبطالى الرائع ، الذى تجلى فى الوادى المنعرج - حيث يجرى نهر (توسا) - وفى المنحدرات المكثلة بالأشجار ، بل وعلى الحواف الجبلية الوعرة التى كانت تكسوها الأدغال الذهبية اللون .. كان منظر هذه البطاح تحت الشمس - حبيبا إلى النفوس - برغم مشاق الجبال الوعرة ! وكانت الفلاحات الساعيات إلى الكنيسة - إذ كان اليوم من أيام الأحاد - يحطن اعناقهن بمناديل ملونة « تدلت اطرافها على ظهورهن ، كما ارتدين ثيابا مزركشة . وكمن يبادرن المار بتحية الصباح فى بشر مس شفاف قلب الشاب ، فانتابه شعور بأنه قد قضى على نفسه بالنفى طواعية .. انه تكن أدب وطنه ٤ . أدب ! لأبد أنها استيقظت الآن وعرفت كل شيء !

وإذ تذكر ذلك ، أسرع فى مشيته لينسى فى الاجهاد لوعته؛ وقسم الكيلو مترات الاربعة والمستين إلى ثلاث مراحل : الاولى

طولها ١٨ كيلو مترا - وتنتهى عند ( ايسيل ) - والثانية طولها ٢٢ كيلو مترا - وتنتهى عند القمة - والثالثة طولها ٢٤ كيلو مترا وتنتهى عند ( برييج ) . وخطر له أن يتناول الغداء فى ( ايسيل ) ثم يسعى إلى القمة - التى ترتفع على سطح الأرض بألفى متر - فى موعد العشاء ، ويبقى هناك فى المأوى ، على أن ينحدر إلى ( برييج ) مبكرا ، فى صبيحة اليوم التالى ، ليتمكن من اللحاق بقطار لوزان وجنيف ، الذى يتصل بإقليم (السافوا) عند الحدود الفرنسية . وبهذا يصل إلى (شامبيرى) فى الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين .

اما ( ايسيل ) التى تقوم على مشارف سهل صغير مزدهر . فهى آخر قرية تسبق سويسرا - وفيها يحس الإنسان فعلا بأن عليه ان يودع إيطاليا مجسورا ! - وهى مشيدة بشكل مستطيل على حافة طريق نابليون . يحف بها جداران جبليان بتفراوح ارتفاعهما بين اربعة آلاف وخمسة آلاف قدم ، ويكفى ان تتطلع إلى الخلف كي تبصر المروج الخضراء ، ومجموعات من الشجر كالباقات ، وما يشبه فجوة من نور خلال الجبال . ولم يكن ثمة ما يبعث الحياة فى القرية الصغيرة سوى جلجلة العربا التى كانت تبدل جيادها فى ( ايسيل ) « وتوفر عملا لرجال الجمارك الذين كانوا بادى اليقظة والمهابة ، كانوا جنود ، مما دعا إلى تسميتهم بحراس الأموال . إلى أن كان شهر اغسطس من سنة ١٨٩٨ ، فبدى فى مد الخط الحديدى عبر جبال الالب ، فازداد عدد سكان القرية إلى اربعة أمثاليه بمرح سحر ، واقامت مسكن للعامل ، و « فيلات » مسفرة ذات حدائق

للمهندسين ورجال الاعمال . وقد اجتمع كل هؤلاء في شوارع  
البلدة في يوم الأحد . فلما بلغها مورييس كانت الاجراس تنق  
بؤذنة بالخروج من الكنائس ، فاخترق موكب النساء العائلات  
إلى بيوتهن والمساح في أيديهن ، بينما انصرف الرجال إلى  
لعب الكرة ، وتصاعدت من الحانات — مع أبخرة المطابخ —  
انغام « الجيتار » و « الهارمونيك » .

وتناول مورييس غداءه في مطعم حثير ، مقابل ثمن بخس .  
ومع أناس صاخبين ، صائحين ، وبدل من أن يستغل فرصة  
النهار للتمجيد بالرحيل — إذ كان الليل يحل مبكرا في شهر  
نوفمبر — أخذ يثلكا عن غير قصد . وكأنه كان يؤثر البقاء وسط  
هذا الصخب المزرى على الوحدة . . . أو كأنه كان عاجزا عن  
المضي في اجتياز الحدود . لأنه رأى في هذا الاجتياز حسرة  
مادية لانصمام عرى حبه . . الحب الذي كان متعلقا به إلى  
درجة الجنون . وفي ذلك الملهم الذي تكاثف فيه الدخان —  
والذي كان الضجيج المنبعث منه يلهيه عن آلامه — خيل إليه  
أنه ما يزال على صلبة باديث . . وإن بعدت !

وقبيل شلال « كوندو » الجبلى ، حيث تتدفق المياه من  
بساقطها ، وجد الحد الفاصل بين الدولتين ، فلما اجتازه ، أحس  
بالظلام يطبق على فؤاده ، ولما بلغ المنطقة الضيقة التي يجب أن  
يجتازها بين صخرتين ، ورفع رأسه فرأى غول الشفق الوردي  
تتلاشى . وباغته الليل مبكرا — أكثر مما توقع — فلم يتمكن  
من سلوك الطريق المختصرة التي تجنبه طريق « الجابى »  
الطويلة ، واضطر إلى سلوك هذه ، فبلغ قرية سميلون

مكدودا ، في ساعة متأخرة . . وهناك تناول عشاءه واستراح .  
حتى إذا استأنف السرى ، كان الظلام والصمت ينتظرانه عند  
نهاية القرية « فاستقبلاه كما لو كانا رفيقيه الطبيعيين في رحلته  
الحزينة . وأحس بأنه كان يؤدي واجبا لا مناص منه برغم كل  
الظروف . . فلم يقتل بديه هباءة ؟ أو ليس على القتلة أن  
يكرهوا عن خنوبهم ؟


وكان ، وعد شروق القمر قد حان . . على أنه لم يظهر إلا حين  
اقترب مورييس من القمة . . حوالى الساعة الحادية عشرة .  
وعلى ضوءه الزاهى : ألفى مورييس نفسه وحيدا في مكان مقفر  
موحش . تحيط به الثلوج وكأنها تخلع على الأشياء كلها لباسا  
موحدا . ولم يكن يسمع حتى وقع قدميه ، بينما كان ظله يتبعه  
كرفيق مزعج ، يستطيل ، ثم يتضاؤل . . ويختفى ، ليعود إلى  
الظهور . وقضى الشاب وقتا طويلا وهو يتطلع بعينه نحو  
الأفق . يستكشف المأوى ، وقد تقطعت أنفاسه ، وتخاذلت  
ساقاه . سيكون قد مر به دون أن يراه ! لقد بلغ به الإعياء حدا  
لم يعد معه يحس تقدير المسافات ! ومع ذلك ، فما جدوى هذه  
الجهود التي كان يبذلها ؟ يا عليه إلا أن يترك نفسه أيهوى على  
جانب الطريق . . فعلى الثلوج يحلو النوم . . أو الموت ! وبهذا  
وضع حسدا للتفكير ، وللمسير . وصاح بأعلى صوته :  
« ادبث ! » . . وما أن رجع الصدى صوته ، حتى كف عن  
السرى متنفضا ، وقد خيل إليه أن أحدا كان يناديه . . ألم تكن  
هى التي نادته مرة أخرى . . بل مرة أخيرة ؟ . . إنه لم يعد  
يحس لقدميه وجودا ، فليدع نفسه تنساب إلى ادبث في هدوء .

كما تنساب اشعة القمر في الثلوج - وأصابه الأعياء المفرط والبرد وخفة كثافة الهواء - والبأس أيضا - بهذين - والذي يتوقف عن السير في مثل تلك الحال من الإعياء - يكون هلاكه مؤكدا « ولا يقدر له أن يقدم قديما على أخرى ، إذ يغدو كالة تحطمت تروسها ..

وهتف مرة أخرى : « ادبث ! » ، ثم ابتسم - ولم يكن ثمة ألم يفقاه .. وكان من أسهل الأمور أن يجلس وينتظر - وكانت في مواجهته - إلى اليمين - جبال ( مونت ليونى ) الثلجية ترسل وميضاً برتقانياً ، وكان ثمة حركة تسرى في كباتها .. وخيل إليه أن الأفق كله كان يتحرك متقهقرا ، متطلعا إلى إيطاليا .. وبعث الاسترخاء في نفسه شعورا مستعذبا « ولكن غريزة البقاء ، أو لعله حب الاستطلاع ، أبقي عينيه مفتوحتين برغم هجوم النعاس عليهما . إلا أنه لم يحس برغبة في الابتان بآية حركة . وخيل إليه - في سكون الجبال - أن ضياء القمر والثلوج تتسع حتى لتهلا الفراغ كله ، وترقى إلى النجوم . وفي غمرة هذا الاستفراق ، اضطر إلى قطع تأملاته ، إذ عسوت الحقيقية من يده دون وعى ، فافاق من غشيته على صوت ساقطها . وغطن - حين أحس بعناء تحريك أعضائه إلى الخطر المحدث به . وقال لنفسه فجأة : « هل أموت هنا ؟ .. وحيدا ، في هذه القفار ؟ » .. إنه يموت ، يا ادبث ، وهو الذى يظن أنه راجع إليك ! » .

وغابت ادبث عن خياله ، كطيف يغيب في أعماق البحر . لبحل محلها منظر البلاد التى نشأ فيها ، والهضبة التى تقوم

عليها المزرعة ، وأمرته .. وهتف لنفسه : « انهم ينتظروننى ! » . أتفاننت ذكرى هذه السنين الأولى من حياته - التى حلت محل رؤى فترة الغواية والشهوات - تمية سحرية ضد الموت ؟ . لتدخف شبابه إلى تجدته ، فاسترد شيئا من القوة والنشاط . وأخذ يرفع قدميه - واحدة بعد أخرى - وكأنه يفتزعهما من وحل سميك غاصتا فيه . وسار ، أو بالأحرى جر نفسه جرا ، ليقطع مسافة لم ترد على بضعة أمتار . وإذا ذلك ، شعر بالخوف ، فعصد إزاء الخطر الذى أحس بوجوده إلى جواره ، يصحبه في كل خطوة ، في هذه العزلة ، كعدو يتربس مترقباً لحظات ضعفه وخوره - وكان يعرف أن ثمة أكواخا من الخشب أقيمت على جانب الطريق - بالقرب من القمة - ليلوذ بها السائحون ، إذا فاجأهم العاصفة أو الريح الزمهرير .. فبات كل مطلععه أن يعثر على أحد هذه الأكواخ . وفي تلك اللحظة ، لمح في أسفل ( مونت ليونى ) ضوءاً خافتاً « لا يكاد يبين في الليلة المشرقة .. ذاك هو الملجأ الصغير ، المتصق بالجبل ، والذي ترك بابيه مفتوحاً ، بل ووضع عنده مصباح يرشد إليه .. إذن ، فقد كتبت له النجاة ! .. ولم يحول بصره عن ذلك البريق المشجع . وما لبثت معالم المبنى أن ظهرت بوضوح ، فإذا هو مبنى كبير مرتفع ، من الأحجار الضخمة ..

وصعد أخيراً في درجات السلم ، وولج المكان . وأعلن وصوله نباح اتبعته من حظيرة نائية للكلاب . ولم يصادف أحداً في الردهة التى كانت اشعة القمر تنفذ إليها .. فهل سيفرك وحيدا مع قفوطه وهوميه ، وقد بلغ  . وهم بأن

يستلقى على الأرض ، لولا أن تفكر ما قاله له الرجل الذى كان يرافقه فى الخطار : « فالمرء — إذا ما جن الليل — مستطيع أن يأوى إلى حجرة فى الطابق الأول ، دون أن يستأذن احداً ! » .

وسعد إلى الطابق الأول : فلجأ إلى أول باب ، ولكنه وجد « موصداً » . وعالج الباب انثنى ففتح ، وإذا به فى حجرة بسيطة . ولكنها مريحة . تسهت سريراً ذا ملاءات نظيفة وغطاء كثب . ومنضدة للزينة « وأخرى ذات أراج ، ومقعدين أو ثلاثة . وبسائط » . وابتسم مقتبلاً بهذا الأثاث . وبدأت المبالغة فى الكياسة والكرم ، إذ كانت هناك زجاجة « روم » وكوب به سكر ، وضعا بشكل يلفت النظر . وهذا الشراب من روعه . وما أسرع نسيان الخطر لدى شباب فى الخامسة والعشرين من عمره . وقال لنفسه فى غيبطة : « كائن فى بيتى . ومع ذلك ، فكأننى لص ! » . وتاهب ليستبرى الحياة من جديد . ولكن الفكرة جعلته يجفل . . . كأنه « لص » حقاً . . . ألم يحكم بإدانته فى قضية برقة ؟ . ونفصت عليه الذكري العابر سروره ، فسارع إلى النوم . وبعث دفء الغطاء السميك فى جسده حرارة عذبه . وكان التعب قد هده « غواته التنعاس فى الحال ، دون أن يخطر له أن تلك أول ليلة يقضيها بعيداً عن أديت ، وبعيداً عن إيطاليا ، منذ هجر منزل الأسرة !

\*\*\*

واستيقظ فى اليوم التالى ، بعد الموعد المناسب للسفر إلى ( بريج ) بكثيرة . وما أن علم رهبان بيت الضيافة بتطورات رحلته ، حتى استبقوه فى رعايتهم يوماً آخر . على أنه رفض أن

يسقط عربة البريد فى سفره . وإن أبت عليه عزة نفسه أن ييوج بالباحث . . . وقضى اليوم فى راحة ، وشبه نسيان . ونولاد فى هذا المكان المنعزل ، القائم على ارتفاع ألفى متر . مرح يشبه مرح الأطفال ، تخللته فترات مفاجئة وقليلة من الأسى والوجوم . وراح ياكل كالوحش المسعور ، كما تمشى فى رحاب بيت الضيافة ، ليخفف من التيبس الذى أصاب قدميه . واخذ بداعب كلاب الصيد — ذات الشعور الطويلة — وهى فى حظائرها . ويتأمل تأثير الشمس على الطلوج ، وتباين أشكال قطع الجلد الناعمة الدقيقة . وتولته الرغبة مراراً فى أن يبقى فى الجبل أبداً أطول ، ثم أوى إلى غراشه مبكراً . وما كان فى وسع من يراه أن يتصور أنه قد نارق — منذ أمد وجيز — . اعز حبيبة ، وأنه كان فى طريقه إلى فرنسا ليهلم نفسه إلى السجن . . . ففى غمرة الأحزان المتكاثفة ، تسوق إليها المصافقات وأحات غير مرتقبة ، تعالج ما فى فطرتها من ضعف يعرقل صمودها للألم ، وتذكرى غريزة حب البقاء الجامحة التى نعضدنا على الرغم منا !

وغادر مورييس بيت الضيافة فى الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء ، بعد أن تناول قليلاً من الخبز والجبن ، كان الأب الراهب المكاف برعاية الأغراب قد أصر على أن يحلما معه إلى الغرفة فى الليلة السالفة ، ليكونا له فطوراً فى الصباح . على أن مورييس رأى من الحكمة أن يحمل معه نصف هذا الزاد من قبيل الحيلة ، إذ لم يكن مطمئناً إلى أن ما تبقى فى جيبه يكفل له زادا بعد أن يخف نفقات السفر . ولم يكن أحد من فى المكان

.. ذلك لأن الحزن شيء لا غنى عنه للشباب، وهم إذا سعوا إلى الحب، فإنها يسعون عن رغبة متأججة في الحياة، أكثر مما يسعون عن رغبة في المتعة! .. وما أشبه ذلك الذي يهرب من الهناء بمسؤول لا يأسي على فقدان كل النعم!

وهكذا راح مورييس يكافح البرد والثلج والليل والخوف بجملد قوى، فإذا الصراع يذكى في كيانه حرارة الحياة. وأقبل نور النهار رويداً .. ولكن الشاب لم يفد منه كثيراً، إذ كان الضباب الأبيض قد أحاط به من كل جانب، كما يحيط البحر بالجزيرة الصغيرة! وبدأت له الطريق البديعة - التي تكشف للبصر عن جبال الألب البريتية، وجبال (البنتش) الجليدية، والمرتفعات الرائعة المحيطة بوادي (الرون) .. بدت له هذه الطريق وكأنها سُقت وسط قطن متراكم. وكان يرى أحياناً شجرة من أشجار السنوبر تهوى من مكانها تحت ثقل الصقيع، وتستلقي على بعد عشر خطوات منه .. وفي فجرة هذه المناظر الرتيبة، نعلن إلى أنه وقد وصل إلى (بريج)، خاتمة هذه المرحلة من كفاحه!

وقضى في القطار يوماً بدا طويلاً مرهقاً - برغم اقترابه الحديث من مسقط رأسه. وفي الساعة السادسة مساءً، هبط في (فينيه)، وهي أقرب محطة إلى «شامبري». فان الخوف من أن تكشف شخصيته فيقبض عليه وهو يغادر القطار في البلدة، أوحى إليه بهذا القرار. ومن ثم سار على قدميه في طريق (أكس) فلما مر بأسفل هضبة (كالفيري دي ليمك)، توقف، وهتف متأولاً: «أديث!» .. وعطف إلى يمينه ما بعدت

قد استيقظ بعد، فرحل متسللاً كما حضر، وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه كما وجده ليلة وصوله. واستقبله الظلام - بدلاً من القمر الذي كان يرجو أن يسير على هدى نوره - وأحس بالجليد متراكماً على السلم وهو يهبط الدرج .. وكان مضطراً إلى أن يسير مسرعاً، إذ كان هبوط الجبل أقل سهولة من صعوده. وعندما بلغ الطريق - التفت ليمتأمل المبنى الأسود في الظلام .. وخالجه الأسف وهو يودعه!

وسار إلى المستقبل المجهول في غير وجل، وقد استرد ثقته بنفسه .. فقد سكب السلام - المخيم على الجبل وعلى الرهبان - سكينه وطمانينة في قلبه، دون أن يلمن. وانطلق بخطى ثابتة ليستعيد مكانه في «بيت الأمرة» الذي أضلته عنه نزوة عارضة! .. كانت المصادفة التي يدين لها بنجاته قد ردت إليه - في الوقت ذاته - صوابه .. وكان في عودته إلى الحياة العادية ينهج نهجاً خالياً جريئاً - يتحاشاه سواء عادة - ويستمرى، تضحيته في جهاسة وشنف! .. وكان الجليد قد تساقط مساعات حلوية خلال الليل، إذ أن الطريق لم تكن مبهدة واضحة، فواصل السير وهو يخشى أن يضل. واحتار تفقن أو ثلاثة نحتت في الصخر، وكان الظلام فيها كثيلاً. حالكا، حتى أنه ظن - عندما بلغ نهاية أحدها - أنه قد فقد بصره، فراح يتلمس طريقه بطرف عصاه التي أمسك بها في يده اليمنى. بينما بسط ذراعه اليسرى إلى الأمام، برغم أنها كانت تحمل الحقيبة، ومضى يغوص مستنقعات الماء المتساقط من الصخر. وأدرك أنه بلغ نهاية النفق عندما أحس بالهواء البارد، قبل أن يرى النور بفترة طويلة. على أن صعاب الطريق شحذت همته

هذه الأيام الثلاثة بينه وبين ادبث .. ولما كان يحبها ، فقد اخذ يلوم نفسه على قسوته . ثم اقترب من الحاجز الذى كان مقاما على حافة الهوة الجائشة تحت الهضبة .. وكانت انوار ( شاميرى ) تتألق ، فاجتذبتة . ولكنه قال لنفسه : « المقبرة ، ثم البيت ! » .. ومن ثم اثر امه بالزيارة الاولى . ولكنه وجد دار الموتى مغلقة ، فلم يستطع ان يلجها . ثم سلك بعض الطرق الملتوية ، حتى بلغ البيت . وكانت ثمة ساعة تدق الثامنة .. وكان موريس مترورا ، جائعا ، على اين يولى وجهه إذا لم يوله نحو هذا المكان ؟

وضغط زر الجرس وقلبه يدق بعنف ، ففتحت له الباب خادم جديدة . وبدلا من ان يدخل فى غير كفة ، سألها بعصوت متحسرج : « الأنسة روكيفار ! .. فقادته إلى البهو ، وتركته . وفكر فى الهرب — تحت وطأة الذل والخزى — إلى أى مكان آخر فى الدنيا . أمة قوة غريبة تلك التى راحت تدفعه دفعا حتى انتهت به إلى بيت أبيه ؟ .. وما لبثت مرجريت ان اقبلت . فارتفعت عليه هاتفة : « انت .. اهذا انت يا موريس ! » .. وبينما كان يغالب البكاء ، قالت له : « إننى انتظرك منذ امس ! » .. وقادته إلى غرفة المائدة ، فاستسلم لرعايتها وهو محطام ، خائر القوى . ولم يكن غطاء المائدة قد رفع بعد العشاء ..

وسألها فى شيء من الوجع : « وأبى ؟ » .. فجاوبت : « لقد احتبس نفسه فى مكتبته بعد العشاء ، وانكب على العمل ، وبينما انهضت أنا فى تغيير ثياب جوليسان الصغير .. ساخطر أبانا

بمقدمك ! » .. نهفت : « لا يا مرجريت .. لا تذهبى .. وسألتة فى دهشة : « لماذا ؟ » .. ولكنه لم يجب بأكثر من : « لست أدرى » .. ثم تمتم بعد صمت ثقيل : « أقرينه قد تغير كثيرا ! » .. فاجابته : « أجل » .

وكان جائعا ، ولكنه لم يتو على تناول شيء من الصحف التى احضرتها مرجريت من المطبخ بنفسها . وادركت ما به ، حين راته مستغرقا ، فتمسكت ثم ركضت إلى حجرة مكتب أبيها ، وصاحت به : « أبى .. أبى هنا ! » .. وكان السيد روكيفار يتكيا على أحد الملفات ، فنهض فجأة بحركة عنيفة ، إلا أنه نبالك نفسه مسرعا وقال : « لقد تأخر كثيرا » .. وهتفت فى ضراعة : « الا تقابله ؟ .. إنه جد نعس ! » .. ففكر روكيفار ، ثم قال فى عناء : « سأقبله غدا ، فى السجن ، لأدبر الدفاع عنه .. وليس الليلة ! » .. وإذا أجهشت مرجريت بالبكاء ، ضمها إلى صدره قائلا : « أما انت « شاعتنى به ، وإذا كان مكودوا فاسهرى على راحتته . فلن يزج به فى السجن قبل غد ! » .

— الا اصفح عنه يا أبى .. من أجل خاطر امنا !

— آمل يا مرجريت ان يثبت يوما أنه اهل لصفى . أما الآن ، فليست أقوى على ان أنسى بهذه السرعة ما الحق بنا من ضرر برحيله .. إننى أرغب فى أن يدرك مدى هذا الضرر ويقدره ، فان هذا ضرورى لنا — بالنسبة لماضينا — وله ، بالنسبة لمستقبله ! .. لا تبكى ، فإنى لم أكف عن حبه . بل إن عودته تطلع صبرى ! » .

## القسم الثالث

## ١ - رفيق الشدائد

عندما دخلت مرجريت إلى غرفة مكتب أبيها — كما دنتها كل يوم — لتوقد المصباح ، وتسدل الستائر على النوافذ ، ولتخفف عنه هبومه — قبل كل شيء — وجدته يتتبع هبوط الظلام السريع . وقال لها حين رآها : « أهذه أنت ؟ إن الضوء لم يكن كافيا ليسمح بالعمل ! » . واعتذر عن شروذ ذهنه كما لو كان قد ارتكب خطأ . على أن مرجريت كانت تعرف سبب انشغال باله الذي لم يشأ أن ينصح عنه . وقصصات : « إن هؤلاء السادة لم يحضروا بعد ؟ »

— إنني انتظرهم من لحظة لأخرى .. لا يد أنهم راوا موريس في السجن بعد ظهر اليوم .  
— ومن الذي سيقترع ؟ العله الأستاذ هاميل ؟

— إن الأستاذ هاميل تقيينا . ولما كان موريس مقيدا في النقابة ، فقد طلبت من النقيب أن يتولى الدفاع عنه .. وهو تقليد برعى . ومع أن الأستاذ هاميل برعى مهنتنا ، بما يشرعها ، منذ نصف قرن ، إلا أنه يرى أنه قد تقدم في السن . وأنه تخصص في مسائل القانون المدني إلى حد لا يمكنه من تولي الدفاع في هذه القضية . وهو يريدنا أن نكل هذه المهمة إلى الأستاذ باستار ، وهو أشهر من يترافع أمام محاكم الجنايات ، كما أن له في الواقع تأثيرا كبيرا على المحلفين .

ولقد غادر روكنيار غرفته مبها بعد — بعد ذلك بوقت طويل — يتسلل إلى حجرة ابنه « على أطراف أصابع قدميه . وحجب ضوء المصباح الساخر بيده ، ثم انصت برهة إلى الأنفاس الخفيفة المنتظمة التي كانت تتصاعد من ابنه النائم . وإذا ذلك ! أضاعت ابتسامه رقيقة ذلك الوجه الذي عصف به الأسى .. وهتف الأب لنفسه : « ها هو ذا ها .. هذه هي النقطة الجوهرية . ولمسوف أنقذه ، وأنقذ معه السلالة كلها ! » .

وحين سمعت الفتاة اسم باسثار بدا عليها شيء من الامتعاض ، وقالت : « لقد سمعته وهو يتراجع يا ابنتك . إنك تجيد الكلام خيرا منه ! » ، فتأثر المحامي الشيخ لهذه الإجابة وقال :

— إننى لا أجيد الكلام يا صغرى . . . أننى أقول ما أعرفه فقط !

— لماذا لا تتولى أنت الدفاع عنه !

— ماذا ! هذا مستحيل ! ألا تدركين الأمر !

فتقدمت إليه ووضعت يدها على كتفه . . ثم أسندت رأسها على صدره وتمتت قائلة : « ألم تصفح عنه ؟ » .

— إنه لم يسألنى الصفح !

— ذلك لأنه يتألم !

— نعم ، ربما . إن القدر يضربه بقسوة ، ولكنه هو الذى استغفر القدر !

— تذكر أمنا !

فانحنى ليقبل جبهة ابنته قائلا : « لا تطلبى منى أن أكون ضعيفا يا مرجريت ! لقد زرتك مرتين فى السجن ، فوجدته سادرا فى كبريائه . . ثم أنه لم يعبر لى عن أى أسف لمسلكه الذى جلب علينا كل هذه الأضرار . . . إننى لا انتظر منه غير كلمة لأصفح عنه ، ولكننا لا نتبادل غير عبارات تافهة !

— إنه يبكى أمنا عندما يكون معى . . أما معك فهو لا يجرو على ذلك !

— إن واجبى يقتضىنى أن انتظره . . وسأنتظره !

ولما كتبت مرجريت مطامئة الرأس ، فإنها لم تر العذوبة الحزينة التى انتشرت على الوجه الشائخ مخففت من صلابة أقواله . ورددت الفتاة قائلة : « إنه يتألم ! إنه تحس ! » . فقال السيد روكييلر : « ونحن ؟ ألسنا نقضب ؟ ! » . ثم رفع رأس الفتاة بركة ، ومالها بدورها — مقرا مجرى الحديث : « ماذا فعلت بعد ظهر اليوم ؟ » . فاجابت : « لقد خرجت فى نزهة مع الصغير جوليان ، ثم كتبت خطبا مطولا إلى هوبير » .

— آه ! لقد كتبت له أنا أيضا .

فلقد كان هوبير هو الآخر يبعث قلقا لهما ، إذ تضمن آخر خطاب ورد لهما من السودان ، أنباء عن إصابته بالحمى ، ومرضه فى كوخ منعزل دون أية عناية طبية . ومع أنه هو نفسه كان يهزأ من هذه الوعكة التى لا خطر منها ! إلا أن عبارة خاصة فى الخطاب — صيفت فى قلب وداع حنون ! — صدمت أبساره وأخته وأحزنتهما حزنا عميقا . . ومن ثم صمنا وقد انقبض قلوبهما . ثم أشعلت مرجريت المصباح لتطرد الظلام الذى كان يملأ العجرة بطوالح الشؤم . . وبينما كانت تسدل الستائر ، إذا بطرق على الباب ، فقال السيد روكييلر : « هاهما قد جاءا »

ولم يكن لدى الفتاة متسع من الوقت لتبرق منصرمة خلال الباب المؤدى إلى المسكن قبل دخول الضيفين . . بل إن أباهما كان قد تقدم بالفعل لاستقبالهما . . ودخل الاستاذ هاميل أولا ، يتبعه الاستاذ باسثار .



كان النقيب يتمتع في نقابته محامى ( شامبرى ) بمركز محترم ، فرضته سنه المتقدمة ووزارة مادته القانونية وحياته الوفيرة . وكان شيخا في الخامسة والسبعين من عمره ، نحيفا بحيث يكاد يتراجع في مسترته الرسمية — ( الرندجوت ) — البالية ، التى كان يؤكد في إصرار أنها مستيقى ما بقى هو على قيد الحياة . فإذا حل الشتاء ، لم يجد غضاضة في أن يلتحف بمعطفه الذى بلل كماه . وكان يجلل وجهه الحليق تاج من الشعر الأبيض الأشعث . كما كانت وجنتاه الشاحبتان تيدوان شفاقتين . ومع أن قامته المفاعرة انحنت كما تحنى الأشجار الهزيلة التى تمثت بها الرياح ، إلا أن خلقه لم ينحن قط . فما استطاع شيء أن يجعله يحيد عن مبادئه الراسخة ، التى اعتنقها منذ شبابه وسار عليها مترسبا تقاليد أسرته ! وكان فاتر اللبحة ، مترعما ذا صوت آمر ، يظهر من الصلاة في التمسك بمبادئه نفس القدر الذى يظهره من الجمالة في علاقته بالناس . وكانت غلبته تلك تنبئ في الظروف العادية والظروف الهامة على السواء ، فلم تتأثر نفسه بما تعاقب عليها من رخاء وشدة . . على أنه عرف الشدائد — على الأخص — في سنى حياته الأخيرة ، وفي الوقت الذى يحق للإنسان أن يخلد إلى الراحة . فلقد جلبت عليه تصرفات ابنه السيئة وإسرافه ، الخراب ، فاستأنف الرجل عمله من جديد — ببسالة ! — ليكسب قوته اليومى !

على أنه قلما كان يتراجع في قضايا ، إذ كان « المستشار » الذى يلجأ الناس إليه فيها فح من الأمور التى ما كان يسدى

فيها غير الرأى المقرون ، الصائب . ولم يكن يرى قط خارج مكتب استشارائه الصغير ، الحقيق ، الذى كان يقصده الناس ليعرضوا على صاحبه — بصيغة خاصة — قضايا المصلح والتحكيم ، كما كانوا يعرضونها على قاض عظيم . . فإذا خرج ، ففى المساء ليذهب إلى الكنيسة بخطى لا تخلو من السرعة ، وقد بدا عليه التأثر والخشوع وعدم الاكتراث بالأمم الخارجى ، مصفيا إلى صوت الله الذى كان ينتظر نداءه بصبر مستسلم .

وبالرغم من فارق العمر بين روكيار وبين هاميل ، فقد توطئت بينهما صداقة من تلك الصداقات القديمة التى تدعم أواصرها الحياة المتشابهة والكتاح المشترك ، إلى الحد الذى يجعلها تتساوى مع صلات الدم . . فقد تعهد هاميل نشأة روكيار المهنية ، كما آزر هذا هاميل في محنة انهيار مركزه المالى ، مناضلا ضد الدائنين ، حاصلا على تاجيلات وإمهالات ، منظما على أحسن وجه عمليات البيع وشداد الدينون . فلما أصيب ابن هاميل الأصغر بحدوره ! — بنفس الضربة ! كان أخوه الأكبر قد تخلص من متاعبه وخرج من ورطته ، إلا أن الأب كان قد بدأ يحس بالمجز وبرودة السنين .

وقد فرضت عليه شهرة باستنار أن يضمه في المكان القالى له . وكان هذا الشاب — فهكذا كان يحلو للمحامى الشيخ أن يدعو برغم سفيه الخمس والأربعين — لا يكف عن مضايقته نوع من ألحقة في المناقشة ، وينظرته إلى القضايا من زاوية اتعلمها ! . أما في مساحة الحكمة ، فقد كان موهوبا كجيش منلح ! . . كان ساخرا لأدعا ، مستهزئا ، فكيف صوته

كما يفعل أى من قوى الحنجرة ، وحركانته كائى ممثل بارع ، ومن ثم أهله كل ذلك لأن يقوم بالدور الاول فى الجلسات ! ..  
وبذقته المرسلة ، وقسمات وجهه الدقيقة ، وصلعته اللامعة — كاللآلئ البراقة ! — واعتزازاته وارتعاشاته ، كان يسيطر على الجلسة كلها ، ثم ينتهى به الأمر إلى أن يطوى الحلفين والقضاة والخصوم فى ثنانيا رداؤه الذى كان ينشره كالعلم ! ..  
هذا التفوق الذى لا يمكن إنكاره « والذى كان يتمتع به باستار فى محاكم الجنايات ، كان من الواجب أن يوضع موضع الاعتبار . وعلى هذا « وبالرغم من أن هاميل كان « خادما الحقيقة المطيع » الذى يكره بهرج الفصاحة وزخرف المظاهر ، إلا أنه أثر أن يطرح مبادئه الخاصة جانباً فى هذه القضية ، حتى يزيد بذلك من الضمانات التى تكفل تبرئة ابن صديقه .

ومع أن روكفيلار لم يكن من المعجبين باستار ، وكان كثيرا ما يتحدى له فى الجلسات — فى غير موادة — ليكتشف عن تمثيلاته والاميه بأسلوب سهل يتمثل فى الاتجاه مباشرة إلى الهدف « بسرعة الفرسان ، إلا أن ذلك لم يمنع باستار من أن يخف إلى معاونته معاونة تفرضها الزمالة ، وسارع إلى قبول الدفاع عن موريس بحماسة وإصرار !

\*\*\*

وبعد تبادل المجاملات ، لخص النقيب الموقف فى بضعة كلمات :

— إنك تعلم يا صديقى العزيز أنى رجوت زميلنا باستار أن يخف إلى معاونتنا ، بعد أن بلغت من الشيخوخة حدا

لا استطيع معه استقارة العواطف . وعلى هذا فسوف يتراجع هو ، على أن أتولى أنا بمساعدته . وقد درسنا ملف القضية معا « وأينا ابنك فى السجن « إلا أن نمة صغوبية تصادفنا .  
فقال الوالد فى لهفة : « وما هى ؟ » .

— إن باستار يستطيع أن يوضحها لك أفضل منى .

فهز هذا رأسه « الجميل » ! ولما كان يعلم أنه لا فائدة من اللجوء إلى العبارات الضخمة فى هذا المكتب ، فقد قنع بعرض واضح مختصر : « نعم ، لقد درست ملف القضية . إن الدليل المادى على إساءة استعمال الثقة ثابت من أقوال الموثق وحضر رئيس البوليس . أما أنا فلا أجد أدلة ضد ابنك ، وإن كانت هناك قرائن خطيرة : فقد كان يعلم بإيداع المبلغ ، وكان آخر من ظل فى المكتب بعد أن حصل على المفاتيح ، وامكنه أن يكتشف سر الخزانة الحديدية من مفكرة رئيس الكتاب التى كان الرقم مقيدا فيها ، ولم تكن له موارد خاصة كبيرة ، وكان يريد اختطاف زوجة رئيسه . كل هذه الوقائع جعلوا منها مادة لإقامة الدعوى . يضاف إلى ذلك : السفر إلى الخارج ، والتزام الصمت ، والعودة المتأخرة . ثم ان أقوال المدعى غيليو — خاصة — مملوءة بالمرارة والحقد ! ولابد أن تكون الفيرة قد ملأت قلب هذا الشاب من زميله الذى كان مفضلا عليه . فقد وبخايرنى الشك فى أنه كان يجب مدام فرازن حبا يائسا . فقد كانت امرأة لا تقاوم ! حقيقة أنها نحيلة ، ولكنها ذات عيدين جميلتين ! إن هذا النوع من النساء لا يستهوينى ! » .

وفي هذه المرة ، تكلم روكيار فقال : « إننى لا أفهم ! » . .  
فقال باستار : « سوف تفهم . . فان الأمر من الواضح بحيث  
يخطف الأبرار ! فلقد قرر فرازن لزوجته فى العقد ، منحة  
قدرها مائة ألف فرنك . . فتساءل روكيار : « فى حالة  
بقائها على قيد الحياة من بعده ؟ » .

— ٧ ، بل فوراً ! ولكن كان من الطبيعى النفس على إلغائها  
فى حالة الطلاق . . فان النظام الذى تم الزواج فى ظله هو نظام  
انفصال الممتلكات . ولما كانت مدام فرازن تجهل القانون ، فقد  
افترضت أنها تملك هذا المبلغ ، وأنها بتركها منزل الزوجية  
يسمح لها الحق فى أن تأخذه معها . إنه تعليل سخيف ! ولكن  
لا عجب فهو تعليل امرأة ! . . ومن هنا أفهم السبب الذى من  
أجله حرص المسارق على ألا يسحب غير مائة ألف فرنك ،  
من مبلغ المائة والعشرين ألف فرنك ، الذى كان بالمطروف . أن  
هذا ليس سرقة ، وإنما هو استيلاء حق . . وقد ظننت مدام  
فرازن أنها تباشر حقها !

فقال روكيار ، مبتدئاً اهتمامه بهذه الحجة الدامغة : « نعم ،  
إن العقد يفسر كل شيء ، ا . . فبدأ باستار يتقصد حساسة ،  
ويحرك ذراعيه الكبيرتين « قائلاً : « إن هذا معناه البراءة  
المؤكدّة التى لا جدال فيها . فأى محلف يستطيع أن يصمد أمام  
دليل كهذا ؟ إننى لم أحصل إلا فى النادر على أمثال هذه الأدلة  
القاطعة ، أمام محاكم الجنايات ! » .

غفزه النقيب قائلاً : « إنك لا تدافع دائماً عن أبرياء ! » .

ولما كانت نفس باستار مـ حبيقت من معدن رخيص ، فإنه لم  
يشعر بأن ملاحظته هذه كانت فى غير محلها . وبأن وجود والد  
المتهم كان يفرض عليه أن يكون أكثر تحفظاً . . وبعد أن توقف  
برهة استأنف كلامه : « لا يكفى ، وريس أن يعلن أنه برىء ،  
فما دامت السرقة قد وقعت ، فإن المحلفين سيبحثون عن مذنب ،  
ومن واجبنا أن نكشف لهم عنه . وقد لاحظت دائماً أن الاتهام  
أقوى أثراً من الدفاع . . فهو يحول الاهتمام عن مكانه ليركزه  
فى مكان آخر . ولما استخدم هذا الأسلوب بنجاح دائماً .  
إما فى الحالة التى نحن بصددها ، فإن المتهم معين كل  
التعيين ! » . . وتناول مجموعة المواد القانونية وراح يقلب  
صفحاتها ، بينما كان مسنمعه بصفيان إليه دون أن يلاحظه :  
اعلم أن مدام فرازن لا تتعرض لآى خطر . . فإن المسادة ٢٨٠  
تحميها : « الاختلاسات التى يرتكبها الأزواج بقصد الأضرار  
بزوجاتهم ، والزوجات بقصد الأضرار بأزواجهن . . لا يمكن  
أن تكون محلاً إلا لتعويضات مدنية » .  
فغضب الأستاذ هاميل قائلاً : « إننا نعرف ذلك ! » .

— إن أفراد الأسرة الواحدة لا يسرقون بعضهم البعض  
ومن ثم ليس فى إهانة اللشام عن مدام فرازن ما يعرضها  
للعقاب . بل هناك ما هو أفضل ! إن إحساسى لا يخدعنى قط !  
لقد حصلت على عقد زواج فرازن « إذ فكرت فى اننى لابد أن  
أعثر فيه على شيء . وقد حصلت على نسخة من العقد بواسطة  
أحد وكلائى فى ( جرينوبل ) ، فوجدت فيه الدليل على أن مدام  
فرازن ، بأخذها مائة ألف فرنك من الخزنة الحديدية الخاصة  
بزوجها ، إنما ظننت أنها تستوفى حقها لها !

فأمن الأستاذ هاميل على ذلك بقوله : « حسنا جدا » . وردد باستار نفس العبارة ، ولكن بلهجة مغايرة . أما روكيفيار ، الذى كان التصال قد ألهب وجهه بإشارة الأمل فى الخروج من هذه المحنة « فقد لخص الموقف فى كلمتين : « الآن ، نحن مسلحون » والنصر أكيد » . ففازر إليه النقيب بعينين حزينتين كستهما الشيوخوخة بزرقة باهتة ، وقال : « هل تراك نسيت يا صديقى الصعوبة التى حدثت لك عنها فى بداية مقابلتنا ؟ » . فعادت الكتابة إلى وجه روكيفيار ، وقال : « أية صعوبة ؟ » .

وهنا عاد باستار يحتل مكان الصدارة الذى لم يكن ليتخلى عنه مختارا ، إذ قال : « هاك هى : إن خططنا المحكية ، التى لا يحتل نجاحها أى شك فى رأى ، قد تفشل بسبب عساد ابنك ! » . فهتف الأب : « عناد ابنى ؟ » .

— تها ! فقد أوشحنا له فى السجن قيل مجيئنا يا أنطوان فعله لإنقاذ . . اعترف بماذا أجابنا !

— آه ! أخشى أن أكون قد استنتجت جوابه !

— إنه يعارض بشدة فى أن ينكر محابيه اسم مدام فوازن ، وهو يهدد بأنه سيلقى التهمة على نفسه فى الحال ! إذا حدث هذا .

فغمغم روكيفيار فى صوت منخفض : « هذا ما كنت أخشاه ! » .

— لقد حاولت عبثا أن أقتعه بأن هذه شهادة ( غروسية ) مضحكة ، وأن ذلك الدفاع لا يشغل أى أنسان ، فذلك أن مدام

— أبرياء أو مذنبون . . إن الذى يهم هو الدليل ، والدليل هنا فى أيدينا !

أما والد المتهم ، الذى كان يريد رد اعتبار ابنه كاهلا « فقد قال عندئذ : « إن العثور على العتد هو فى الواقع عنصر هام لصالح الدفاع ، وستعرف يا باستار كيف تستخدمه — بنفساحتك ! — أحسن استخدام ، وبهذا يمكننا إحراز النجاح النهائى . ولكن ثمة نقطة الحف عليك بالرجاء فى أن تعالجها أثناء مرافعتك . . فان موريس لم يسافر وهو خالى الوفاض مع مدام فوازن ، إذ حبل معه أكثر من خمسة آلاف فرنك ، اقترض الجزء الأكبر منها ، من شقيقتيه وعم أبيه اثنتين وزوجة عمه مدام كلميل روكيفيار « الذين سيشهدون بذلك إذا اقتضى الأمر . وفى مدينة ( أورتا ) التى أوى إليها ، تلقى شيكا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك ، من شركة شامبيري للتسليف ، التى يمكنها أن تقدم الكعب . وهذه البيانات ضرورية من وجهة نظر مزدوجة : فأولا ، هى ترد مقدا على اتهام جديد قد يلجأ إليه المدعى بالحق المدنى ، تاركا المادة ٤٨٠ التى تنص على إساءة استعمال الثقة ، ليتذرع فى هذا الاتهام بالمادة ٣٨٠ مكررة : « بالنسبة لجميع الأشخاص الآخرين الذين يكونون قد أخفوا أو استخدموا لمنفعتهم الأشياء المسروقة أو جزءا منها ، فان هؤلاء يعاقبون كمتهمين بالسرقة » . . ومن ثم يجب ألا يكون هناك أى مجال للبس . . وحتى إذا لم تكن هذه المادة موجودة ، فاننى ما زلت أحرص حرصا أكيدا على حماية شرف ابنى من تبسة الاشتراك فى حياة لا يتحمل هو ثقلها ! » .

فرازن ليست معرضة لآية تبعات ، وما دام أن ما نعلته يعزى إلى عدم خبرتها بهذه الأمور ، وإلى سوء تأويلها لمعد زواجها . ومع ذلك ذهبت كل جهودي هباء ، إذ اصطلمت بعناد لا يقهر :

— وهل تقدم لك اسبابا ؟

— سبب واحد : الشرف !

— إنه سبب من بين الاسباب !

— لا ، أنها مجسود عاطفة ! ولكن أمام القضاء ، يجب الانتظار إلى أنفسنا من زاوية الشرف ، وإنما من زاوية القانون !

أما النقيب ، الذى لم يجيذه هذه النظرية ، فقد عرض الأمر فى شكل آخر ، إذ قال : « إن شرف بدم فرازن هو الذى يعنيه بصفة خاصة ! ولكن يحافظ على شرفه هو يتعين عليه أن يقيم الدليل على أنه لم يسرق مبلغا من المال ، ولا انتفع من اختلاس وقع من شخص آخر . ويمكنه إثبات الأمر الأول بتقديم عقد زواج مدام فرازن ، وإثبات الأمر الثانى بالشهادة المحررة من البنك الدولى ببيان ، حيث أودعت أموال مدام فرازن . ولكنه يرفض بشدة تقديم هذه الأدلة ! » .

— وهل أحطته أنت علما بذلك ؟

— لقد أحطته علما به « وبأنه يعرض نفسه لخطر جسيم إذا مثل أمام المحلفين وهو أعزل من السلاح !

— وبماذا أجابك ؟

— بأنه لن يدع قط مدام فرازن تتهم بأى شئ كان ، وبأنه يحظر على المدافع عنه أن يلفظ ولو مجرد اسم هذه المرأة ! وقد

الفيحاء مصرا على ذلك إصرارا لا يلين ! .. وحين اعترض عليه باستنار بقوله : « إذن غفل لنا كيف تريدنا أن نضطلع بهمة الدفاع عنك ؟ » ، أجاب فى انفة : « كيف يمكن لإنسان أن يتصور أنتى عذبة ؟ غليظتروا من آية أسرة انحدر : ومن أنا .. ويجب أن يكون فى هذا الكفاية ! » .

واستلرد باستنار يقول ، وهو يربت ذقنه الجهيلة فى رضى : « أى ابن هذا ! إن شرف الأسرة حجة قوية من غير شك ، وفى نيتى أن استفيد منها فى المحكمة ، ولكنها على أية حال حجة ثانوية .. فهى لا تمس سميت الموضوع ، ولا يستطيع الإنسان أن يندرع بأفرباك فى المرافعة .. وإلا فلماذا لا يستشهد بالأموال ؟ ! » . فاجاب الأستاذ هاميل بشئ من الخشوع : « لو طلبنا شهادة الأموات لشهدوا لنا ! » .

— يجب ألا ننسى أن هناك منهما . وسيبحث عنه المحلفون ، ناذًا لم يكن هذا المتهم هو العشيق فسيكون العشيقة .. وإذا لم يكن العشيقة فسيكون العشيق ! وفى بدنا الدليل على اتهام العشيقة ، فكيف نابى أن تقدمه ؟ إن هذا ضرب من الجنون ! لقد حذرت ابنك يا زميلى العزيز من أننى لا أستطيع قبول مهمة الدفاع عنه فى هذه الظروف ، وهانذا أكرر لك الآن هذا القول . إنك تعلم جيدا مبلغ حماستى للاضطلاع بهذه المهمة « وبأنية عناية سأتوفر على تأديتها . ناذًا شلت حركتى « فمماذا عسائ أستطيع فعله ؟ إنك ترانى شديد التأثر من هذا القرار الذى اتخذته ، ولكن من المستحيل على أن أقدم إلى المحكمة وأنا مكتوف اليدين هكذا !

نجد الوالد التعس يدع إليه وهو يقول : « إنني افتقد معاونة  
ثيئة ، وقد تكون فيها نجاة ابني . إلا أن الدفاع يجب  
إلا يموته أي عائق في سبيل تاديه واجبه ! » . وبالرغم من  
أنه لم تكن ثمة مودة متبادلة بين الحابسين ، إلا أنهما كانا  
متساويين في درجة التأثير . . . فليس عيبا أن يشترك اثنان في  
هنة واحدة « وفي معارك واحدة ، وينشغل عقلاهما بمشاكل  
واحدة !

وقال الأستاذ باستار وهو يهيم بالنهوض : « فلتذهب أنت  
لرويتك ، وقد توفى في الحصول منه علي ما لم نحصل نحن  
عليه ! » ، ولكن الأب قال : « لا . لا اعتقد ذلك ! » . ولم  
يسمع المحامي لرايه ، بل مضى يتم حديثه : « نأذا افلحت في  
إقناعه ، وجددني ره تصرفك ، وبممكنك أن تعتقد على  
سجودي الخاص . لقد قاربت الساعة العاشرة ، فاعذرنى ،  
لأن عندي موعدا خاصا ببعض الأعمال . »

فأقناده روكيفار إلى الباب ، وشكره على عتيته قائلا : « لقد  
اختلفنا يا زميلي في بعض الأحيان ، ولكنني لن أنسى قط أنك  
لم تضن علي بإخلاصك وكفائتك في أخرج ظروف حياتي ! » .  
فأجاب المحامي الكبير - الذي دهش لحب نفسه للآخر : « لا ،  
لا . فقد ظننتك أنني سأوفق أكثر من قبل . إنها قضية مثي !  
فلتقم ابنك ، وعندئذ أعود ! » .

وعندما عاد روكيفار إلى مكتبه ، وجد الأستاذ هاميل قد  
اقترب من المدفأة وأخذ يحرك النار وهو شارده الذهن ، فجلس  
إليه . وظل الاثنان وقتا طويلا يفكران في صمت . وأخيرا قال

الفتيق متابعاً استطراداته السابقة : « إن صوتي لم يكن  
مجلجلا في يوم من الأيام ، وقد حطمته السنون . . ولم أكن  
أعني في مرافعاتي بغير إظهار الوقائع ، دون استشارة  
الموطف . ومع ذلك فساكون هناك ، وساقول بضع كلمات  
عن أسرة المتهم ، وعن المتهم نفسه . ولكن يجب أن يكون  
هناك محام أصلي « إذ ليس في مقدوري سوى مساعدتك فقط  
يا صديقي ! » .

ولم يذكر رايه في مكتب موريس . . ومن المحتمل أنه لم يجد  
له تفسيراً . فقد كان يطوى نفسه على حذر - يقرب من  
الاحتقار - من المرأة . . حذر كثيرا ما نلتقي به في ختام حياة  
منقشفة منظمة . . إن شرف امرأة كسداس فزازن لم يكن  
يساوي في رايه كل هذه الرعاية . وقد روى عنه هذا الحادث  
البالغ الحساسية : في ذات يوم ، حيا امرأة ذات سبعة سيئة ،  
فاستغلت المرأة تحيته وراحت تزهو بها « إذ كان رجلا مشهورا  
بالوقار . وعرف هو ذلك « فإذا به يكف منذ ذلك الحين عن  
تحية كائن من كان في شوارع المدينة !

وفي صوت مرتفع « تسأل روكيفار - الذي كان أقدر من  
غيره على فهم ابنه : « ترى هل سيوفق المطفون إلى استنتاج  
ما ينطوي عليه صمت موريس من النبل والشهامة ؟ إن هذا  
قليل الاحتمال ! » . فأجاب هاميل مؤكدا في وضوح : « إن هذا  
مستحيل . إن ابنك يلقي بنفسه إلى التهلكة ، في الوقت الذي  
لا تدعو الحاجة إلى إنقاذ هذه المرأة . ولكن ، اليس من حقنا  
أن ندافع عنه بالرغم منه ؟ ! »

— وكيف يكون ذلك ؟

— إنك تعرف ، كما اعرف أنا ، أن الدفاع إجباري في محاكم الجنايات . فإذا لم يحضر عن المتهم محام موكل منه ، كان على المحكمة أن تعين له محاميا يختاره الرئيس . فإذا عين الأستاذ باستار من المحكمة — ويكفي أن أشير على الرئيس بتعيينه بسفنى نقيبا — فإنه سيصبح مطلق الحرية في الدفاع ، ولو أنه يكون معرضا لخطر الرد من مورييس في هذه الحالة !

— ولكن هذا الرد إن حدث ، فسيؤثر في المحلفين تأثيرا سيئا !

— إننى لا أرى سبيلا آخر ، إلا إذا ..

وسكت الشيخ الوفور ، ولم تفلح استفسارات روكيار العديدة في إخراجه من صمته . وما لبث هذا الأخير أن تتمم : « إنها قضية خاسرة ! » .. وعندئذ نهض هاميل قائلا : « إنك تؤمن بالله مثلى يا صديقى ، فأضرع إليه يلهك سواء السبيل ! إن ابنك برى » ويجب أن يحكم ببراءته . إن غلطته الحقيقة لا تتصل بالمعادلة الإنسانية .. فهي لا تضر أحدا سواه .. وسوى أسرته مع الأسف ! »

وتأهب للرحيل متجها إلى الباب ، ثم تراجع إلى الخلف وفتح ذراعيه لزميله فجأة . وانصهت هذه الحركة الفريدة عن عمق الحنان الذى كان مخفيا تحت الصرامة ، منذ عدد كبير من السفين .. كانت حركة مدهشة ، عذبة مثل التعبير الذى يرتسم نصيرا « ظاهرا ، على وجه امرأة عجوز ، أو مثل تلك الورود

التي تستمر في النمو حتى عندما تغطيتها الثلوج ! .. وتعاقد الرجلان عناقا مؤثرا ، ثم قال روكيار لصديقه : « لست أنت بالذى يمكن أن يتخلى عنا . شكرا لك ! ! .. فرد الشيخ : « إننى ما زلت أذكر أفضالك ! » .. ووضع على كتفيه معطفه الذى كان كساه الفارغان يتأرجحان ، ثم خرج إلى الردهة بخطى مبرعة ، بحيث وجد مضيفه مسجوبا في مرافقته حتى الباب الخارجى .

\*\*\*

وعندما التقى روكيار نفسه وحيدا ، جلس إلى المفضدة التى لما حلت عليها مشكلات مالية وأدبية .. ووضع رأسه بين يديه ، ثم راح يبحث عن طريقة ينقذ بها ابنه الذى يكون فقدانه فقداناً للسلالة كلها .. ولما كان أقل صلابة وأكثر ترفقا وتندرة على فهم الحياة والناس من الأستاذ هاميل — المنطوى على مبادئه المتزمتة ، كما لو كان يعيش في برج ! — فقد عرف في تشبث المتهم بموقعه ، ذلك العناد وعدم التخلي عن المسؤولية اللذين خلقا وشدا من أزر أسرة روكيار جيلا بعد جيل ! .. ولكن ابنه يستخدم تلك الصفات نفسها لتحطيم قوة الأسرة : فلكى يتم صرح سعادته الخاصة ، عرض للانهيار والتفويض ماضى أسرته ومستقبلها .. هذ الأسرة التى حافظ على صفاتها المميزة ، حتى في الخطأ الذى ارتكبه ! .. ولما كان الأب يجد في ابنه إنسانا مجردا من الجبن والحقارة « فقد فكر في أنه إذا قدر لابنه أن يحتل مكانه يوما ما في الأسرة والمجتمع ، فإنه لن بدع تقاليد الأسرة تضفف ، وسبوجه إمكانيةها

ومقدراتها — التي أساء استعمالها — إلى هونها الطبيعي ! ..  
ومن ثم يجب انتزاعه سليما من هذه النزوة — التي يأبى التخلص  
منها — مهما يكن الثمن ، « إلا إذا .. » ، وأعاد روكنيار  
التفكير في عبارة النقيب الغامضة التي صحبته .. ترى ماذا  
يعني هذا الاستدارك ؟

ورفع جبهته ، واستند بظهره على المقعد ، ثم نظر أمامه .  
وتوقفت عيناه على خريطة المزرعة التي كانت معلقة على  
الحائط — وقد ظهرت غير واضحة لبعدها عن دائرة الضوء  
المنبعث من المصباح — فاستعاد معالم هذه الأرض كما يستعيد  
ذكرى أحد أجداده أو ذكرى مستشار ناصح . وفي الوقت  
نفسه استعاد حجج باسثار المنطقية المزرعة : « إن هناك  
سرقة وقعت ، وإذن فهناك مذنب . فمن منهما ؟ إذا لم يكن هو »  
فتكون هي ، وهو لا يريد أن تكون هي . إذن فهو السارق ! »  
.. بماذا يرد على هذا التعليل البسيط بساطة عقول المحلفين  
السادجة ؟ .. وفجأة ، وبينما كان يحدق في خطوط الخريطة  
المضطربة ، وثب إلى ذهنه خاطر كأنه البرق في جنح الليل :  
« إذا الفينا وجود السرقة فلن يكون هناك متهمم » وسيرغم  
المحلفون على الحكم بالبراءة . ولكن كيف نلغى وجود  
السرقة ؟ !

وردت عليه « المزرعة » !

وبعد لحظات ، طرقت مرجريت الباب برفق « فقال :  
« ادخلي . إني بمفردي » ، فسألته بعد أن دخلت : « والآن ،  
ماذا قررت يا أبي ؟ » . فشرح لها المازق الجديد ، الخطير ،

الذي وضعهم فيه مورييس بمعناده ، والذي يعرضه للإدانة ،  
وقال : « لقد تخلى عنا الأستاذ باسثار . إنه يرغب الاضطلاع  
بهمة الدفاع ! » . فتساءلت مرجريت في جزع : « ومن  
سيدافع عنه إذن ؟ وعلى أي وجه سيكون الدفاع ؟ » ..  
فأجاب : « لا تنزعج يا صغيتي .. فقد تكون لدى وسيلة ! »  
.. فتساءلت : « وما هي ؟ » .

— سأخبرك بها فيما بعد ، فدعيني أعمل التفكير فيها ..  
إنها تقتضينا تضحية كبرى !

فلمعت عينا الفتاة بلهيب حاد ، انعكست عليه روحها  
الطاهرة الكريمة « وقالت : « فلتسارع بها يا أبت ! » ..  
فتنم الآب في كبرياء : « يا ابنتي العزيزة ! » .. وابتسمت  
الفتاة لأبيها ابتسامة واهنة ، كتلك التي ترسم على وجوه  
الذين يعيشون في شقاء وقتا طويلا ، ثم قالت : « لقد كنت  
أعتقد دائما يا أبي أنك أنت الذي ستدافع عنه ! » .

## ٢ — مجلس الأسرة

وقفت مرجريت عند مدخل غرفة المكتب ، بعد أن تبينت  
وجود عدة أفراد بداخلها ، وقالت : « هل ترونني متطفلة على  
مجلسكم ؟ » . فأجاب أبوها : « لقد كنت أوشك أن أدعوك ،  
إذ يجب أن تكوني بيننا » . وهنا صاح كهل اعجف ، أحكم أررار  
سفرته ، وانكأ على حافة المدفاة حيث كانت النار تتأجج : « إن  
النساء لم يكن يستشرن في أيامنا » .. وإذا السيدة على شيء من



البداية ، فاهزمت من النضوج ، وارتدت فيأباً سوداء ، تجيب - من المقعد الذي غاصت فيه - بحدة وعنف : « ومع ذلك ، فإن الذى عرض البيت للخطر لم يكن من النساء ! » .. على أن النقاش لم يتجاوز تقرير مبدأ ، إذ ما لبثت الاثنان أن كما عنه ، ليرحبا بالفتاة في حفلة وبشر . وحيتهم مرجريت تبسما لترتيبهم : اتين روكتيار ، عم ابوها الذى كان أكبر سناً من السيد هاميل - إذ كان يقترب من الثمانين « وإن لم يكن عبء هذه السنين ظهره - ثم زوجة عمها ، السيدة كاميل روكتيار . وابنها ليون - وكان من رجال الصناعة في ( بونتشار ) بمقاطعة ( دونينييه ) - وأخيراً ، شارل مارسيلاز ، الذى كان قد وصل في ذلك الصباح .

وكانت السماء - في الخارج - مكنبرة ، مثقلة بالغيوم ، تبدو منحدره نحو الحصن وكأنها تريد أن تنقض عليه فتسحقه . بل كادت لفرط انحدارها أن تمس البرج ! .. وبدت غمسون الأشجار العارية من الأوراق كأذرع ممتدة تضرع للسحب . ولم يكن يحتفظ بطابع الربيع الدائم سوى قمة برج المحفوظات . وبإثرهم من نوافذ حجرة الكتب الأربع ، فقد خفيت عليها كتابة ذلك اليوم الغيبضة ، فإذا خزانات الكتب ، واللوحات ، والمنظر الطبيعى الذى رسمه « هوجار » ، تلقى على المكان طابعا حزينا .. بينما صلت آخر أعداد المجلة القانونية على نضد صغير ، إذ لم تكن قد جمعت في مجلد واحد على تعدد أعداد السنوات السالفة . أما المنضدة الكبيرة ، المتخمة بملفات - كان أحدها مفتوحا ، وقد كشف عن مستندات قانونية وعقودا مدنية -

فكانت تنم عن عمل دائب لم تمرق له أقصى الهموم .. بينمسا وضعت أمام صورة مدام فالنتين روكتيار - أم مرجريت - باقة من زهر البنفسج اليناع « تدل على أن يدا نسوية تتعهدهما بالعناية في كل يوم .

ورجا المحامى ضيوفه أن يجلسوا . وكان مطرقا يراسه « وقد بدبت عليه إمارات التفكير . لكم اكتهل خلال عام واحد ، نشاب الشعر الذى كان يتوج رأسه وشعر شاربييه القصير الحاد وأحاط به فيه خيطان غائران ، كما تخال مقدم عنقه الناحل خط متقنض ظاهره ، وكان تهدل وجنتيه وأسمرار بشرتهما يكمل هذه المجهومة من إمارات النداس ، التى لم تكن مرجريت تشهدها دون أن ينقبض غواذها . فما أشد اختلاف هذا الرجل الفارق في افكاره وهو يجلس إلى تلك المنضدة ، من ذاك الذى كان واقفا على التل - في موسم الحصاد من العام الماضى - وقد انصصبت هامته المتيقة البنيان نحو السماء في جلال !

وكانت دعوته إياهم إلى الجلوس هى الإشارة الوحيدة التى نمت عن أنه كان يظن إلى وجودهم . ومن خلال أهداب عينيه العميقتى الغور ، انبعتت تلك النظرة المهيبه التى يتعذر الصمود لها « والتي استقرت على الوجوه وكأنها تتغلغل فيها وراءها ! وأكد بمسلكه هذا - قبل أن يتكلم - أنه الزعيم ، وأن المحن لن تجد طريقها سهلة للنيل من قوة نفسه وعزتها . وتكلم أخيرا تأيلا : « لقد دعوتكم لأن الأمرة تتعرض لخطر . ونحن جميعا نحمل اسما واحدا ، ما عدا شارل مارسيلاز ، الذى يتخذ منزلة الابن لأنه يمثل جيرمين ابنتى . ومع أن فيليسي وهوبير أبعد

من ان يخدمه ذكر اسم المرأة . فقد كانت تقسم النساء — ببساطة — إلى فريقين : شريفات ، وساقطات . ومع أنها كانت تترعى ملجأ للأطفال ، فإنها لم تحاول — وهى تحدد هذا التقسيم — ان تبحث عن اصل أولئك الذين كانت ترعاهم ! وفى مهب تيارات الفكر المتحررة فى هذا العصر ، ظل انفها فتل — دون حبها للخير ودون إخلاصها — محدودا !

واستأنف رب الأسرة حديثه قائلا : « إن البراءة ليست أكيدة ، بسبب قيود يفرضها أبى على الدفاع . ولقد زرت مرارا فى السجن ، ولكنه لم يتزحزح قط . فهو لا يوافق أبى ان نقولى الدفاع عنه . إذا لم نتجنب ذكر اسم مدام فرازن ! » . . . وثار رجل الصناعة ، ورجل القانون — شارل مارسيلاز — فصاحا معا : « هذا مستحيل . إنه معتوه ! » . . . وتوالت التعليقات : « هذه خيانة ! » . . . « ما ينبغي الإصغاء إليه ! » . . . « فليكن دعوه ودخلوا عنه ! » . . . وكان أبى العم « ليون » — رجل الصناعة — هو الذى عاد فنصيح بهذا الرأى الأخير المنطوى على نزالة . فرمقه المحامى بغلظة امتزج فيها الغضب والازدراء ثم انقلبا غورا إلى الم مريز . كانت الأسرة فى حل من الأمر ، ما دام احد أعضائها قد نقض تضامنها . على أن اكبر افرادها سنا — العم اتين — قال بلطف ، فى غمرة الصمت الذى ران على المكان : « أما أنا فأرى أن مورييس على صواب » . وعلى أثر هذه الملاحظة غير المرتقة ، استأنف الاستاذ روكنيار عرضه للأمر قائلا : « هذه المروءة من مورييس قد يقدرها محلقون من أبناء الطبقة الوسطى فى المدن ، ولكن المحققين من

من ان يستشارا ، إلا ان حياتهما حافنة بإنكار الذات والفضحية إلى درجة لا تستدعى وجودهما . . . وأبى لأعلم مدى زهدهما فى الحياة ! » . . . وهنا سأله مدام كاميل روكنيار : « الديك انباء سارة من الكاتبين ؟ » . . . كان الزى العسكري لابن أخى زوجها يستهويها دائما ، كما أنها لم تكن تقوى على ان تفكر فى أكثر من شخص فى آن واحد ، لذلك نسبت كل شيء حين ذكر الضابط ! . . . وكانت مرجريت هى التى تولت الإجابة قائلا : « لم تصلنا منه انباء منذ أمد ليس بالقصير ، ولم تكن آخر انباء — قبل ذلك — طيبة . إذ أنه كان مصابا بالحمى » .

وعاد السيد روكنيار إلى حديثه قائلا : « لسوف تبدأ محكمة الجنائيات جلساتها فى ٦ ديسمبر . أى بعد ثلاثة أسابيع ، وسيقدم إليها مورييس فى نهاية الدورة » . . . فقال ليون — الذى كان غخورا بأنه يدير مصنعا كبيرا وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره — ومن ثم كان يحاول الظهور بمظهر رجل الأعمال الواقعى ، الذى لا يعبأ من الأمور إلا بنتائجها : « إنها مجرد إجراءات رسمية ، إذ ان البراءة أكيدة ! » . . . وإذا بكلمة « لا » تنطلق حاسمة من فم المحامى فتعلق فم الشاب . وارتجفت مرجريت ، بينما تبادل الرجال نظرات الدهشة والقلق ، ثم توالت أسئلتهم : « كيف لا ؟ » ، و « مادام غير مذنب » ، و « ما دامت السيدة فرازن هى المذنبه » . . . وكان شارل مارسيلاز آخر من تكلم ، وهو الذى فكر اسم غريبة الأسرة ، فهتفت الأملة — مدام كاميل — وهى ترعع عينيها إلى الستف : « يا لها من عتسة ! » . . . قالتها وهى تشفق على سمع مرجريت

ان مورييس لا يدفع بها إلى أى خطر حين يشئ بها ، ولكنه  
يقرر الحقيقة ! « .. ولكن النعم اتين - الذى كان شيا به البعيد  
عاصنا - قال وكانها قوله فصل الخطاب : « إن الإنسان  
لا يفسح امرأة كان عشيها لها لى عذر من الاعذار ! إني أدرك  
ابنك يا فرانسوا ! » .. اما الأرملة التى كانت مضى يدايه  
الاجتماع تلوم - بصوت خافت - ابنها الذى أخذ عنها ذكاهما  
الرخيص دون طبيعتها ، فقد رأت أن فناصره ضد ذاك الشيخ  
الذى كان يبشر بمبدأ خلقى غريب ، فعاتت : « او تريدنا على  
ان نحترم هذه المخلوقات ؟ » .

وحسم زعيم الأسرة النقاش غير المجدى بحركة من يده ،  
فأثلا : « دعوني أتم كلامي ، فإذا حانت اللحظة المناسبة فسوف  
ادعوكم للنقاش . إن مورييس يعارض أى تشهير بمدام فرازن ،  
ولسنا بصدد تحرى الخطأ أو الصواب في رايه ما دام يقشبت  
به ، وما دينا لا نملك شيئا لإزائه . وإذا نبذ الدفاع رغبته «  
فانه سيتهم نفسه بدلا من ان يؤيد الدفاع ، فضلا ان يتحمل  
عبء الجريمة ! وفي هذه الحال ، ما الذى سيحدث ؟ .. هذه  
هى المسألة « ولا مسألة سواها . إن المحلفين - إزاء واقعة  
المسقة المادية التى لم تواجه ببنكار « وفي تأثرهم بضياع مبلغ  
كبير كهذا - سيبحثون فيما اتوقع عن مقوم . فإذا ما كانوا  
مجردين من أى توجيه إلى مدام فرازن فلا بد ان يتحولوا ضد  
ابنى . إما ان يعاملوه - أو لا يعاملوه - بمقتضى الظروف  
الخفية ، فهذه مسألة ثانوية محضة ! » . وهنا افلنت  
مرجريت صيحة : « آواه ، يا أبتي ! » .

الفلاحين الساذجين لا يفهمونها . وهم لا يحفلون في المداولة  
بخير نقطة واحدة ، هي : اختفاء مبلغ مائة ألف فرنك .. وهو  
رقم يذهلهم ! .. إنهم أكثر اهتماما بالاعتداءات التى تمس  
الممتلكات ، منهم بتلك التى تمس الأشخاص . ولسوف يتجه  
فكرهم على هذا النمط : « لم يكن في وسع أحد - غير الشاب  
أو المرأة - سرقة هذا المبلغ ، فإذا كانت « هي « السارقة ،  
فليقل لنا حتى نرى ساحتها . أما إذا تركنا للتضمين فسنحكم  
عليه من جديد . وإذا لم يجرؤ على اتهامها ، فهو إذن السارق »  
.. ذلك لأنه ليس لدى هؤلاء فكرة أخرى عن الشرف !

وهنا رد ليون : « الشرف ! الشرف ! .. كان ما خصه به  
المحامي من ازراء واضح قد آثاره . وكان يرى وجوب تفادى  
أى حكم يشين الشرف ، قبل كل شيء .. ومن ثم أردف قائلا :  
« لست أرى ان المسألة مسألة شرف ، وإنما هى مسألة  
مأثور ! » .. ورمقه أكبر آل روكيار مسنا - بدوره - في  
ترفع ، وتمتم بصوت اتبعث كالصغير لخلو فيه من الأسفلان :  
« إني أرى لك ! » .. نصاح رجل الصناعة « في غير توفير  
للمسن : « ولماذا ؟ » ، فاجاب الشيخ : « لسبب واضح .  
هو أنك لم تعد تفهم شيئا مما تعنيه بعض الكلمات ! » ..  
نهبت الشاب : « تملأ .. إنها كلمات .. مجرد كلمات جوفاء  
تلك التى تستخدمونها ! » .. وهنا ، أراد شارل مارسيلاز ان  
يوفق بينهم ، فادلى بهذا الإيضاح القانونى : « إن مدام فرازن  
مذنبه ، ولكن جرميتها لا تقع تحت طائلة القانون ، لأن السرقة  
التي تقرر بها امرأة للإشراء بزوجها لا عقاب عليها . ومن ثم

— إن الشطر جد جسيم ، فهل تقدرون مداه ؟ على اننى فكرت فى انه قد تكون ثمة وسيلة لبقاديه .

فداخل الأمل مرجريت — التى لم يكن أبوها قد اتبأها قبل الاجتماع بما يعترزم عمله — وصاحت : « يجب استخدام هذه الوسيلة يا ابت ، مهما تكبدنا ! » .

— ها هى : لقد لاحظت دائما فى قضايا سوء استغلال الثقة — أمام محكمة الجنايات — أن تسديد المبلغ يشفع للبراءة . فان أهم ما يؤثر فى نفوس المحلفين هو ضياع النقود . فإذا أبعدتم هذا العنصر ، لم يجدوا داعيا لإدانة المتهم . فلا عقاب ما دام لا ضرر هناك . . ولا مدان إذا لم يكن ثمة ضحية ! . هذه الآراء مجتمعة تخارهم فى العادة .

واستخلص زوج ابنة روكيار من حديثه النتيجة : « اترك تبنى أن ترد إلى الأستاذ فرازن المال الذى سرقته زوجته ؟ » . وأجاب روكيار : « هو ذلك » . فصاح ليون : « مائة ألف فرنك ! أنه لمبلغ جسيم ! » . وسارع شارل مارسيلاز يقول معترضا : « ولكن فى هذا اعتراعا بذهب موريس . فهو مقرب ما دام يدفع » . ولكن حماه قال : « لا ، إن الضامن الذى يدفع بدلا من المدين الأصلي لا يعتبر فى وضع المدين . ولسوف يبين موريس — على لسان محاميه للمحلفين — أنه لا يبنى اتهام أحد ، ولكنه يريد أن بنى بنفسه عن الشبهات . وإذا تسلم السيد فرازن المبلغ ، لم تعد هناك سرقة . أما ترك السيد فرازن يطالب بماله ، فمضناه الزج بابنى فى السجن ! » . وهنا هز العم اتيين رأسه الشبيه برأس عصفور مجرد من

الريش ، وهتف محيذا : « أحسنت يا فرانسوا » ، فنفخ هذا التقدير الأرملة إلى أن تبدي ودها ، ومن ثم قالت : « لست افهم هذه الحيل والإجراءات ، ولكن الصيت الحسن خير من القنى ! اننى معكم بكل قلبى يا فرانسوا » . . . ولم يطمئن ابنها — وهو يصفى — إلا إلى كلمة « قلب » ، لأنها لم تكن تعنى أى التزام . وتبادل مع الموثق — شارل مارسيلاز — نظرة تحمل فى طياتها هذا المعنى : « إن هؤلاء المسنين يترفعون على الثروة ، مع انها هى وحدها التى تكسب الأسرات احترامها وتفتح لها الرفعة ! » . أما مارسيلاز ، فقد تولفه الحيرة . وما لبث أن تسالغ فى رفق : « وهل تملك أن تدفع مائة ألف فرنك يا أبى ؟ » . فاجاب السيد روكيار فى شيء من الخشونة ، وقد بدا الغضب يتولاه : « هذه مسألة أخرى سامعها فوراً . . إنما نبحث المبادئ أولا » ثم نعالج تطبيقاتها ! » .

على أنه قلب ترتيب الحديث بنفسه ، إذ كان قد أخذ قراره ، فقال : « سابع مزرعة البرج إذا دعا الأمر ! » . . . وكانت هذه أعظم تضحية ، افركت مرجريت مبلغ ما فيها من بطولة ، فشحب وجهها . وتردد شارل موزعا بين الاحترام والمصلحة ، وبين الاعجاب والاستهجان ، وراح يبحث عن منفذ لهذه المشاعر المتضاربة . وما لبث أن نال مجادلا على اثر غمزة ساخرة من عين ابن العم ليون : « تباع المزرعة ؟ ! إن الوقت لا يتسع للبيع قبل ٦ ديسمبر ، وإلا بعتهما بثمن بخس . إن المزرعة تساوى مائة وستين ألف فرنك على أقل تقدير » ، وبين الغابات التى اشترتها فى ( سان كلود ) فكانت تبيع بساتين ! »

.. ولا شك في أن المحامي كان قد استعرض هذه المسألة أثناء البحث - فقد كان متأهبا للإجابة ، وبأدب قائل : « هذا ميسور . وتبقى أماننا وسيلة أخرى هي القرض الرهنى » .

— أجل ، بفائدة قدرها خمسة في المائة ، أو أربعة ونصف .  
 . خمسة في المائة على الأرجح ، نظرا للحاجة الملحة التي لا يفوت رجال الأعمال استغلالها ، لا سيما وأن الأرض لا تغل سوى ربع لا يكاد يصل إلى ثلاثة في المائة ، كما أن سقوط المصنع أو الجليد قد يكفى لإتلاف المحصول . إنك من الخبرة يا أبى ما لا يجعلك تجهل أن القرض الرهنى — بالنسبة للأرض — مرض عضال ، قاتل . إن العقارات الثابتة أصبحت اليوم خطرا على أولئك الذين لا يعيشون في أراضيهم ويفلحونها بأنفسهم ، أو الذين لم يؤثروا ريعا طيبا يستطيعون بفضلهم مواجهة تقلبات الظروف والمنافسة . إن هذا يعرض المستقبل لنوائب لا سبيل إلى إصلاحها . ثم أن المزرعة هي تراث الأسرة .. التراث المقدس الذى يجب ألا يمس !

وتركه السيد روكيار يتكلم « حتى إذا عيل صبره » قال بصوت مرتفع : « ليس هناك من يفوقنى حبا للأرض ، وفيها لها ، وسامعا للصبح ، وكثما لمواطن الحال التي تنبأها .. فانا الذى الأم إذا نسيت شئوننا ! ولكن عليكم أن تعلموا — إذا لم تكونوا تعلمون — أن في ميدان الشئون الإنسانية نظاما قدسها يجب احترامه . إننى أقدم التراث الأبقى والمعنوى على التراث المادى . فليس الميراث هو الذى يخلق مكانة الأسرة » ولكن تعاقب الأجيال هو الذى يخلق الميراث ويصونه .

والأسرة التي تنزل عن أملاكها تهتبط أن تسترد هذه الأملاك . أما إذا فقدت تواليدها ، وإيمانها ، وتضامناتها ، وشرعها .. وإذا هي انحدرت إلى مجرد جماعة من الأشخاص الذين تتقاذهم المصالح التضسارية ، والذين يقدمون مصالحهم الخاصة على رفعة المجموع ، فإن الأسرة تستحيل إذ ذاك إلى مجرد جسد خال من الروح .. إلى جثة تفوح منها رائحة الموت .. ولن تستطيع أعظم الثروات أن ترد إليها الحياة بعد ذلك ! .. من الممكن شراء الأرض ثانية ، أما فضائل السلالة فلا يمكن شراؤها إذا هي بددت . ولهذا فإن ضسياع مزرعة البرج أقل أثرا عندي من تعريض ابنى وأسمى للعار . على أنه لما كانت مزرعة البرج ملكا لأسرة روكيار قرنا بعد قرن ، لم أشأ أن أقطع هذا الاسترسال الطويل العسر دون إخطارك ، ودون استئثاركم .. فادلوا إلى بآرائكم — كل بدوره — في إخلاص ، ولست أعد بأن أحفل بها إذا كانت تعارض رأى . انتهى : عيم الأسرة المسؤول . ولكن أى قرار يحطم بضربة واحدة عمل عدة أجيال خلق بأن يعتبر قرارا خطيرا ، ومن ثم طاب لى أن أحصل على تجييز من مجلس يمثل الأسرة ! » .

\*\*\*

وأظهر له الصمت الذى أعقب كلامه أن جلساءه قد أدركوا أهمية القرار الذى يوشكون أن يتخذوه . وتطلع إلى خريطة المزرعة المعلقة إلى الجدار ، والتي كانت تبين المساحات التي وسعت من رقعتها ، مع تواريخ عقود شرائها .. لظالما تأملها وهو يعد مراعاته ، لا ليقرأ عليها حدودها وأقياما ، وإنما لتمثيل

الغابات والحقول والكروم والعمل الدائب وجنى العنب .. كان ذلك الإطار الضيق - الذى لم يكن تأمل معاملة السوداء عبثا - يضم قطعة من الأرض ، ومن الجهود الزراعية ، ومن تصاقب الفصول .. وأشاح ببعده عن الخريطة ، ونظر خلال النافذة فرأى تحت السماء المكشوفة حصن الدوقات الأقدمين - الذى شيد على مهل فى كافة حقبات التاريخ - وقد انتهار نصفه ، وبنت أطلاله الباقية مهيبة ، وكأنها تقوم على حراسة الماضى .. كانت هذه الأطلال شهود عيان تفوق جميع المستندات ، وجميع المحفوظات ، وجميع المراجع والتقاويم . وكانت تبعث فى ذهنه - هو وحده - ذكرى السافوا ( القديم ، وعصر الجدد والحروب الطاحنة ، بينما كانت قباب الكنيسة المقدسة تمثل نزعات التقوى التى تعطل فى القباب - ما الذى كان يتبقى من الأموات - ومن أعمالهم وشاعرهم - لولا هذه المعالم المادية التى يتجسدون فيها ، والتى تذكر الناس بهم ؟ .. وهذه المزرعة - مزرعة البرج - التى طالما فلتحت ، وأينعت ، وانسعت ، واستصلحت .. اتراها كانت شهيذا عديم القيمة فى مصير آل روكنيار ؟ .. وإذا هى فقدت ، أفلا تحرم السلالة من نقطة ارتكازها ؟ ومن الدليل المرئى على استمرارها ؟ .. إن الأجيال - فى الأسرات التى تعبد على ملكية الأرض - تتناقل الفاس ، كما كان المعداؤون القدما يتناقلون المشعلة .. وها هو ذا آخر زعيم للأسرة يترك الفاس تهوى من يده !

على أن المحامى رفع رأسه ، وقمع كل تردد . فما كان التراث هو قوام الأسرة ! اللهم إلا إذا كان البرج هو مصدر

شجاعة المقدام ، والكنيسة هى مصدر تقوى المصلى .. ! لقد كان هوبير وقيليمى - فى غربتهما عن وطنهما ، فى السودان وفى الصين - يجعلان فى أطوائهما النشاط الحيوى والهمسة اللذين ورثاهما عن عراقتهما أصلهما . ولو أن موريس رجع إلى الحياة العادية لكرر بعمله عن ذنبه - أما مرجريت ، فان جذوة التقوى والوفاء تذكر فى أعماقتها . وما ليك المحامى أن وجهه الكلام لابنته ، بوصفها أصغر الحضور سنا ، ورغبة منه فى أن يسمع منها صدق أفكاره : « أنت الأولى فى الكلام ! » . فقالت : « أنا يا أبت ؟ كل ما فعله أنت حسن ، فأتقذ موريس .. إننى أضرع إليك ! نادا رأيت أن بيع مزرعة البرج ضرورى فلا تتردد فى بيعها ، إذ أننا لسنا فى حاجة إلى الثروة . وعلى كل حال ، فأننى فى صفك ، وينبغى ألا تشغل بالك بى .. فليست محتاجة فى عيشى إلا للقليل ، وبوسعى أن أقتع بأى وضع ! » . فأمّن السيد روكنيار على قولها : « كنت أدرك هذا » . ثم ربت يدها فى لطف ، وهو يقول لابن أخيه : « وأنت يا ليون ؟ » .. ولما كان سيئه الظن به ، فقد أرفف : « تذكر أباك ! » .

واصطنع الشاب مظهر الوقار الذى يتحمله الوصوليون الناجحون ، إذا ما تاهبوا لأن يفضوا إلى الغير - دون مقابل - بخططهم للنجاح .. وخيل إليه أنه سيلقى درسا على هؤلاء الكهول الذين يجهلون الحياة العصرية ، ليعلمهم أن الظروف الجديدة فى الحياة تقوم على السرعة والانانية والواقعية : « إنك يا عمى من رجال المهود العتيقة الذين كانوا يبحثون عن الحروب - من أجل المبادئ - فى كل مكان . وينازلون ملوحيين

جدير بأن تحتفظ لأخويه وأخواته بانصيبتهم ، وبأن تحتفظ لنفسك بقوت شيخوختك . أما المزرعة فلك أن تبيعها إن وجدت ثمنًا مغريًا ، ولكن .. لا لتبتاع بها رافعة الحقلين ، وإنما لأن الأرض لم تعد ذات نفع إلا للفلاح الذى يقضها كما يقضم الفار الخبز اليابس . إن المستقبل للصناعة والآلات ، فمضى بالنسبة له كالفرد بالنسبة للمجتمع ! » .

وعلى اثر هذا الخطاب ، اطلق اكبر الحضور سنا ضحكة لاذعة . وتمتم : « إنه يحسن الكلام .. صحيح أنه يسهب ، ولكنه يجيد القول ! » . واغتاضت الأرملة « فضيت راحتها لتدعو الله .. بينما تسأل السيد روكفيلار فى شيء من الاستهجان : « هل فرغت من الكلام لا » . فاجاب الشاب : « اجل » . فعاد المحامى الشيخ بقول : « إذا كنت قد فهمتك حقًا ، فانى أراك على استعداد لأن تلقى ببوريس من حائق ! » .. وقال الشاب : « مغررة يا عمى .. بل هو الذى يلقي بنفسه ، وهذا الوضع يختلف عن ذاك . ولو أنه كان عاقلاً ، لاستطاع أن ينجو بسلامته من براثن العدالة . ولكنه لا يريد أن يكون عاقلاً .. وأنا فى صف العقل دائماً ! » .

واتحصه زعيم الأسرة إلى زوج ابنته متسائلاً : « وانت يا شارل .. أتراك من أثمار العقل كذلك ؟ » . فتردد مارسيلان قبل أن يجيب : كان يحتل بصبر نافذ سمو مركز حميه عليه وكان تفوق مكانة أسرة زوجته على مكانة أسرته يثير حنقه عن كل مقارنة ، لا سيما بعد أن نقل أعماله قريباً من مستقر رأسه ولما كان مجتهداً ومقتصدًا ، فقد حرص على أن يعمل بجداس

الهواء ! إن إفلاسك لن يجديك شيئاً ، فانظر إلى الأمور من ناحية إيجابية . إن موريس يشهر — فى هذه اللحظة — سلاح الشرف ضدك ، فى حين أن شرف مدام فرانز لا يساوى مائة ألف فرنك . إن ابن عمى الظريف يتظاهر بالشهامة فى السجن ، ولكنه لن يلبث أن يتخلى عن هذا التظاهر فى لطف إذا ما وقف أمام المحكمة ! .. أنفى لست محامياً ، غير أننى كثيراً ما قرأت ما يقرؤه كل الناس فى الصحف عن الجرائم العاطفية . فإن المتهمين دائماً — لا سيما أكثرهم غطرسة — يميلون للثام عن شركائهم أو ضحاياهم . ويشتهرون بهم أو يتهمونهم لبيرونا أنفسهم . إن الخوف من الحكم هو بداية ركوفهم إلى الحكمة . وموريس ولد فكي ، تواق إلى المستقبل ، ومن ثم فانه لن يلبث أن يدرك يصلحته . فإذا قصر له الايغهم ، فليتحيل مسؤولية إصراره ، آخر الأمر ! .. ومن المحزن أن أقول هذا أمامك يا عمى ، وأنى لأعرب لك عن أسفى وحسرنى ، ولكنه هو الذى أراد هذا لنفسه ، وأنى لأعرب أنك تحب الصراحة . أن الخطر الذى يهدده لا يحوم إلا حول شخصه . وتضامن الأسرة ما عاد يجر الانحطاط على الجميع ، بسبب ذنب واحد منهم .. فذاك كانت نظرية سخيفة دفنها عصرنا نهائياً فى أكتان الماضى . كل مسئول عن نفسه . هذا هو الشعور الجديد . ولا يلزم أحد بشيون الغير ، ولو كان هذا الغير أباه أو أخاه أو ابنه ! فالمال الذى اكسبه إنما اكسبه لنفسى ! وكذلك حسباتنا وسيفاتنا . أن لدى المرء من أعباء تدبير سعادته الخاصة ما ينقل عاتقه ، فلا حاجة به إلى أن يحمل أعباء عشرين جيلاً ! وبوسعك أن تمنح موريس نصيبه من ثروتك مقدماً — إذا شئت — ولكنك

من أجل مستقبل أبنائه ، ومن ثم كان يبسدى غيرة في حماية ثروته المتواضعة التي اكتسبها بعماء . ولقد استفرقه العمل ، فأورثه ذلك مرارة نفسية وصلابة . ولكنه كان يحب زوجته « جبرمين » ، وإذا كان قد أساء الظن ببعض تصرفات لها توحى بالترفع ، فما ذلك إلا لأنه كان محروما مما يدعو للترفع ! ومن ثم فقد انحرف عن الموضوع الأصلي « لينحى باللوم على الماضي ، قائلا : « لماذا يفضل مورييس مدام فرازن علينا ، حتى ردوني النجس ! إنه ليسخف » لا سيما وإنها غير معرضة لأي عقوبة . أنه يغدر بالأسرة يتذعرا بالشرع في تعامل خاطيء ! . . . مائة ألف فرنك ! ألا ترى أن دفع مائة ألف فرنك أمر يفوق طاقتك ! ! ليس من الواجب أن تقدم على المستحيل ! » فقالت بجرجيت : « بل من الواجب عمل المستحيل لإنقاذ مورييس » . وهنا قال السيد روكيار الذي كان ينشد جوابا واضحا بحددا : « مجمل القول أنك أنت أيضا يا شارل تنصحنى بأن اتخلي عن ابني . . . اليس كذلك ؟ » .

وطاطا الموثق الشاب رأسه حتى لا يلتقي بصره بنظرات ليون الساخرة ، وتمتم في خرى : « لا ، لست أذهب إلى هذا الحد » . فلما رفع رأسه ، أدهشته النظرة التي كان والد زوجته يرمقه بها « والتي تجردت من سطوتها المألوفة ، وبدأت غامضة ، رقيقة ، ذات لطف غير معهود . . كمنظرة المرء الذي يكشف - تحت بعض الحشائش القدية - المنبع المتواضع الذي ينبثق منه نهر سيال ! . . وما لبث السيد روكيار أن قال : « هذا دورك يا تيريز » . وكانت المرأة لا تصفى إلى أي قول

بعد أن التى ابنها خطابه ، ولكنها حين سمعت اسمها ، باشرت تلبية الدعوة . ولما كانت ذات قطرة ساذجة بسيطة ، فانها لم تزج بنفسها في مناقشة المبادئ - التي كانت تطبقها في حياتها دون أن تعرف لها كلها ! - وإنما عمدت مثل كثيرات من النساء إلى النظرات المتطلقة بالأمور الشخصية ، الأمر الذي ساعد على إقصاء الحلول المبهمة ، وعلى تبييد الضباب المتخلف عن المذاقشات الفلسفية . ولم تكن قد استوعبت من كل الجدل سوى قول واحد « ولكنه كان أفضل الأقوال . وإذا كانت لا تتوى على مواجهة أكثر من فرد واحد بإجابتها ، لذلك وجهت خطابها إلى ليون ، غير حافلة بالبايتين : « هل قلت إن كل امرئ مسئول عن نفسه ؟ لو أن معك الجالس هنا اتبع هذه السنة يا بني ، لما كنت اليوم تدير مصنعا يدر عليك مئالت ومئات ! » .

مقابلها الشاب وقد مس قولها اعتزازه بنفسه : « اتهللين بي يا أمه » . . . ولكن السيدة الطيبة كانت قد انطلقت ، فلما من سبيل إلى إيقانها : « لا ، لا ، لا . . . أنك لتدرك تماما ما أريد قوله ، لأنني قلت لك من قبل . وإذا كنت قد نسيت « فأنني أذكرك : كان ذلك منذ خمس عشرة سنة » حين استثمر أبوك كل مدخراته في المصنع الذي أسسه . ولما لم تصادف أعمالك رواجاً في الحال ، فانه لم يلبث أن اضطر يوما إلى أن يتوقف عن دفع التزاماته . وكانت الصناعة إذ ذاك حديثه عهد في البلاد ، ولا يبق بها أحد . فذهب أبوك إلى أخيه الأكبر - معك فرانسوا - وأطلعته على ما كان يشهده ، فما كان من فرانسوا إلا أن اقترضه في الحال ، وبغير فوائد ، العشرين ألف



فترك التي كان في حاجة ماسة إليها ، إذ كنا مهدين بالإنلاس .. وهكذا تم إنقاذنا يا صغرى ! .. ومنذ تلك المساعات العصية : تولد عندي دعر طاع من الفاقة . فليسامحنى الله . إن الفاقة هى التي جعلتك انثيا ، سبيء النية ! » .. فاعترف ليون في استياء وضجر : « حسن .. حسن ، إننى لم أكن أفكر هذا ! » .

ولكن مدام كاميل روكفيار كانت بمنمة المصدر بها لديها ، فلم نشأ أن نتراجع ، وهى التى اعتادت أن تنزل عن آرائها أمام حجج ابنها ، بعد مناوشات هينة . فان المرء إذا عاش إلى جوار غيره ، لم يغلن إلى نفسه . ومن ثم فان الدهشة تأخذه أحيانا — إذا اتاحت له الظروف العسية فرصة — حين يتبين أنه في عزلة . ويزداد هذا الشعور فى عصرنا . جيلا بعد جيل ، بسبب تفكك الروابط العائلية ، وسرعة انتقال الآراء من مكان إلى آخر !

وتحولت مدام كاميل تقول لأخى زوجها : « لست قريبتك إلا بالنسب يا فرانسوا ، غير أننى لا أنسى أننى أحبل نفس الاسم الذى تحولونه . ومن ثم فأنى أضجع تحت تصرفك عشرين ألف فرنك ، إذا كنت بدورك في حاجة إليها .. لست أفقه من أحاديثكم شيئا ، ولكننى أدرك أنك تعسر . أما مدام فرازن فامارة بامجرة ! » .. وذهفت مرجريت : « لسكم أحبك يا عمتى ! » . فاضاف السيد روكفيار إلى حديث ابنته : « شكرا يا تيريز . من المحتل الاحتياج إلى هذا المبلغ ، ولكننى سعيد وأنا مدرك أن بوسعى أن أركن اليك إذا دعا الامر » .

وحان دور العم الأكبر ، فأنلى براهيه فى بطة ، وبصوت واضح جازم ، كان يجد عناء في إرساله أحيانا ، غيبو كربين جرس مصدع : « إن الأب هو خير من يحسكم على ممتلكاته . فرانسوا . فانت وحدك المسئول ! ولست مقيدا بأحد . لقد كنت أنا الأخ الأصغر لأبيك » وثيقنا معا منذ صبا .. وكان أبوك هو الذى كلفنا ، وأرشدنا ، وساعدنا ، إذ كان هو الوريث وزعيم الأسرة . وكان المتبع إذ ذاك أن الفتيات لا يرثن سوى نصيب ضئيل ، إذ لم يكن الرجال يتزوجونهن من أجل الصداق . أما تراث الأسرة ، فكان يؤول إلى فرد واحد ، بكل تبعاته التى لم يكن الوريث يملك التخلف عن أدائها ، مثل تغذية ، وتحويل ، وتنشئة الصغار ، وكفالة المعجزة والمحتاجين والمكتهلين .. إن شباب اليوم يجهلون ما كان بعينه الميراث ، وهو القوة المادية للأسرة .. لكل الأسرة ، مجتمعة حول زعيم واحد ، أمنة من العوز ، بفضل تماسكها . أما اليوم ، فما جدوى الاحتفاظ بتلك الضيقة ؟ .. إذا أنت لم تبهما ، فسيئولى القانون تفتيتها .. فان التقسيم الإجبارى للميراث لم يترك مجالا للتراث العائلى .. بل لم تعد هناك أسرة بفضل مبدأ « كل مسئول عن نفسه » ، وبفضل تدخل الحكومة الدائم وتقاضيا نصيبها فى كل العقود التى تتصل بالحياة .. ولسوف نرى ما الذى يستطيع أن يحققه هذا المجتمع المؤلف من أفراد نستعدهم الدولة ! » .

وأرسل ضحكة استهجان وإزدراء « ثم أختتم كلامه قائلا : « ومع ذلك ، فانت على حق عندما تفضل شرفنا على أموالك . ومن الصواب أيضا أنك أظلمتنا . فلندعنا نضحك إلى ضحك » .

وإذا كان القدر قد ناك ، فنحن لن نتخلى عنك . ولست أملك شيئاً يذكر ، فألى جانب معاشي كمستشار ، لا أملك سوى سندات تبلغ قيمتها خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف فرنك ، أستعين ببيعها على الحياة . أما وقد أصبحت طاعناً في السن ، فأننى أمحك إياها بعد موتى . بل إننى أمحك إياها فوراً »

إذا شئت ! » . فاجنب السيد روكميار في تأثر : « أننى لفقور متأيدك يا عمى ، ومتأثر بتعاضدك . لسوف يهون على أداء مهمتى الآن . فان هذه التضحية بالمال مستبرىء بساحة موريس ، وهذا ما تؤكد لى خبرتى بالقضايا . وما أظننى باستطيع أن أنقذ المزرعة . وهذا هو تفتيت ثروتنا ! » .

فمقابلته الكهل وهو ينهض : « ليس هذا من شأننا ! » .

— بل أن من واجبي أن أبينه لكم ، حتى إذا خرجت مزرعة  
البرج يوما من قبضة آل روكتيار ، أدركتم أن هذا لم يتم دون  
الم ، ودون حاجة القاهرة . فكونوا شهودا : إن مزرعة البع  
تساوي مائة وستين ألفا من الفرنكات ، كما أن غاباتي في أسان  
كأسان ( مقدر بعشرين ألفا . وقد تسلمت جرمين صداقا  
قدره ستون ألفا من الفرنكات .

وهنا قال شارل مارسيلاز في خجل: « هل يجب على ان أرد إليك هذا المبلغ كله او بعضه » إنه مستنمر إلى حد ما في أعمال المكتب الذي اتخذه في ليون ! « .. وكان هذا السخاء يستحق من التقدير قدر ما صاحبه من اسف ، وندم » وتردد . ومن ثم أجاب حموه : « لا يا صديقي ، فقد اصبح هذا المبلغ نهائيا ملكا لكم ! لا سبها وان اديكم ثلاثة اطفال .. ولقد رصدنا باسم

فيليسى — حين دخلت الدير — عشرين ألف فرنك ، تستقل  
 ريعها مدى الحياة . كما احتفظنا لمجربيت بمصدق يعادل صدق  
 جرمين . . . وقد تسلمت من ريع هذا الصندوق ثمانية آلاف  
 فرنك ، أعطيتها لأخيها » . وحسب ليون المبالغ التى حصل  
 — وسيحصل — عليها موريس ، ثم قال بصوت خافت وهو  
 مقتطع الجبين : « مائة وثمانية آلاف فرنك . . انه لثمن  
 غالى ! » . وكان ما يزال بجهل المبالغ الصغيرة التى اقترضها  
 أبه والمستشار الشيخ لموريس — فى العام السابق — والتى  
 احتسبت من الديون المدومة !

وقالت مرجريت : « تصرف في صداقي يا أبى ، فأننى لن أتزوج ! » . وهنا قالت الأرملة : « إنها خلقت النساء للزواج » . ولكن مرجريت قالت في إصرار : « إن لى مؤهلتي الدراسة ، وسوف أعمل . سأنشئ مدرسة ! » . فقاطعتها العم الشيخ . « بالرغم من أن النساء لا يورثن ، إلا أننى سأحيد عن سببى هذا لصالح الفتاة . وسأوصى لها بالأربعين فرنك بعد وفاتى » . فقال ليون — الذى كان يقدر خسارته — يصحح له الرقم : « إنها ثلاثون ألفا » . ولكن الشيخ صاح وقد تخلى في الضائقة العصبية عن شحه وتقديره : « لا ، بل أربعون ! لقد كذبت الآن عن غير قصد ، وآخر قول هو أنها خمسة وأربعون ألفا . » . مساعير وصيتى يا فرانسوا لتصبح وريثى ! » . فقال هذا متأثرا : « إننى أشكرك فبابة عن مرجريت يا عمى ، ولكننى لن أمس صداقتها — الذى لا أراه كافيا لها — إلا إذا بات من المستحيل على أن أبيع المزرعة لشروط أبيك . ذلك لأن بيع

المقار - إذا تيسر - خير من الإقتراض .. هذا ما استقر رأي عليه ، فإن غلة الأرض ضئيلة في هذه الأيام ، وقد أصبحت كرومنا وقبضنا ممرضة لمنافسة شديدة من محصولات الأماكن الغائية - بفضل سهولة المواصلات - بحيث لم يعد في وسعنا أن نطيق إلى دخلها . وإننى لأؤمن أن أوّل مستقيل مرجريت . تاركا أولادى الذكور يكافحون في سبيل رزقهم . وإذا أنا لم أبيع الأرض ، فأنها ستكون ذات نفع دائما ، كضمان للاقتراض » .  
وإذ ذاك قالت الأرملة مؤكدة : « ونحن أيضا نضنك » . فأنهم اتبين على ذلك ، قائلا : « تهما ! » .

\*\*\*

وانفرد بذلك عقد مجلس الأسرة - فحيا الحضور بعضهم بعضا في صفاء ومودة ، ما عدا ليون الذى أبدى بعض الفتور . وما لبث أن نبه أمه - وهما يهبطان السلم - قائلا : « إن الضامن هو الغارم دائما » .. فقالت في حيرة : « فليكن .. » .  
سادف : « وإذ ذاك ، قال ساخرا : « انت .. ما أعظم طيبة قلبك ! » . فاجابته : « وأنت .. ما أجحدك ! » . فقال ببر : تصرفه : « إن ما حدث كان مع أبى ، لا معى أنا » . فتساقطت في استنكار : « أولست وأبوك سواء » . ولكنه أجاب في قحة : « لا ! » .

وقد شارل السيد اتبين روكتيار في عودته إلى داره . وظل المحامى مع ابنته وحيدين . وكان النهار قد بدا ينصرم . وخيم على الحصن وبرج المحفوظات ضباب كأنه معطف يلقيه الليل عليهما . ورائت على المكتب تلك الكآبة التى ترانق نهاية النهار



وم لبث أن نبه أمه - وهما يهبطان السلم - قائلا :

« إن الضامن هو الغارم دائما » ..

في الشتاء ، فغذت مرجريت الدفأة بقطعة من الوقود - وقال  
ابوها : « إبنى مفتبط ، فقد انتهى كل شيء على خير وجه » .  
وهنا قالت الفتاة محزنة : « إن هذا الـ « ليون » شرير خبيث  
.. وإبنى لاكرهه ! » . فقال ابوها : « ولكن أمه طيبة  
القلب ! » .

ولاذا بالصمت ، ثم ناما معا خريطة المزرعة المعلقة على  
الجدار . وبدلا من أن يريا الورقة المعتمة ، تمثلت لأعينهما  
الكروم التي تسبغ عليها الشمس الساطعة لون الذهب ،  
والحقول المحسودة ، والأرض المتأهبة للحرب ، والدار الكبيرة ،  
العتيقة ، المريحة .. كانت هذه الصورة هي الصرخة المدوية  
التي خالا أنها تنطلق من التراث الذي قضى عليه بالضياح !

ومعلا ما كان موريس قد فعله من قبل ، حين أطل من أعلى  
هضبة كالفير دي لينك إقبل رحيله - وأن صدرا في فعلهما  
عن نوع آخر من الحب ، لم يتفخيا من ورائه سماتهما  
الشخصية - فقد ودعا المزرعة !

### ٣ - صفقة رابحة

لم يكن من ضجة في ( شامبيرى ) بأسرها سوى تلك التي  
أثارتها الصفقة الرابحة التي عقدها الأستاذ غرازن .. وكانت  
هذه الصفقة من الموضوعات العامة التي دار حولها الحديث ، في  
الجلسة المساهرة التي أقامها السيد والسيدة « ساميناي » .  
لفاسية بلوغ ابنتها « جان » عامها الثامن عشر . فقد كان من  
خصائص المجتمع الريفي ، أن يصطحب الرجال إلى الاجتماعات

ما يشغلهم ويهمهم من شؤون الحياة العامة والعمل « فلا يتخلون  
في أوقات فراغهم ولهوهم عن المفارب التي يعانونها - ومن ثم  
قاتهم لم يلبثوا - بين رقصتين من رقصات الفالس - أن تركوا  
المسيدات يتفانسن في إظهار انفاقتهن ، وتجمعوا في كافة  
الأركان ليستأنفوا الحديث عن متاعبهم المالية ، وشواغلهم  
المجنية ، ثم تحولوا إلى المساء العائلية التي هزت مكانة آل  
روكفيار الاجتماعية العريقة ، والتي قد تقوضها بعد يومين -  
وكانت الحفلة في ٤ ديسمبر - حين تعرض القضية على محكمة  
الجنائيات . وكان الرأي العام متحمسا .. فقد كان يقيم على  
هذه الأسرة : قوة نفوذها « وعراقة أصلها ، وتنوق مكانتها ،  
ومن ثم استبدت به الرغبة في أن يراها تنحدر لتتساوى مع  
غيرها ! .. ولقد أثارت بوجه خاص ، تلك الكبرياء السامدة ،  
التي أبت - حتى في النواثب - أن تثن وتشكو وتطلب العطف .  
ولهذا كان الرأي العام يرقب نهاية المسرحية ، كي يرى  
المسقوط النهائي لسلالة كانت - فيما مضى - تعتبر بهيمنة  
زينة تزدهر بها البلدة !

وكان بين المدعويين بعض رجال القانون والطلب والصناعة  
وبعض أصحاب الضياح ، الذين انتحوا جانبا في حجرة  
التدخين ، فلم يكن يسمى منهم - في أول كل رقصة - إلى  
الشابات والفتيات الجالسات في قاعة الاستقبال ، سوى  
أفراد تلائل ، كانوا لا يلبثون أن يتألدروا القاعة وكانهم غزاة  
مظفرون ينفذون من مكان محاصر ، ليجودوا إلى أمكنهم بين  
الرجال . ولم يكن بينهم سوى شخص واحد يحمل الصفة

الرابعة التي وفق إليها الموثق - والتي كان البعض يؤخذونه - والبعض يقرونه - عليها . . أما ذلك « الجاهل » فهو الكونت ديلا مورتيليري . وكان عذره في ذلك ، أنه كان يعيش في القرن الرابع عشر ، لانهماك في دراسة تاريخ حصن الدوقات . ولقد حاول عبثا أن يحدث من كانوا حوله عن عبقورية « اماريه الخامس » الذي ابتكر - في سنة ١٢٢٨ - انابيب من الخشب تنقل المياه من عين (سان مارتان) إلى مطابخ الحصن الواسعة ، حيث كانت تلك الانابيب تصب في حوض ضخ من الحجر ، كان مستودعا تربي فيه الأسماك لإعدادها لمائدة الدوق . . . ولكن أحدا لم يصغ إلى ذلك الثرثار الذي كان يرجع إلى ما قبل عصره بمئذنة سنة . وكان السيد لاثس ، رئيس غرفة الموثقين ، يعارض - في تفلسف وتكلف ولجاجة كان يظنها تليق بكرامة مهنته ومكانته - الموثق الناشئ كولانج ، الذي بدا معجرا - وقد نشر الساحيق على وجهه ، وحرص على تجميد شعره ! - والذي تولى باسم « مدرسة الشباب » - أو باسم الناشئين - الدفاع عن السيد فرازن . .

وراح السيد لاثس يقول مؤكدا في وقار : « لا ، لا ، لا . إن المجرم مواطن له حقوق المواطنين . وكان من الواجب انتظار حكم المحلفين قبل قبول التعميضي عن الضرر المادي - أو كان من الواجب على السيد فرازن أن يسحب شكواه ، بعد أن نقاضى التعميضي ، فلا يجمع بين الكسب والافتقار ! » . فبالر الموثق الشاب يقول وكأنه يتعاقب للفرزال : « محفزة ، عفوا . . لنفرو من فضلك ! لقد قدم السيد فرازن شكوى ضد موريرس

روكفيار . يتهمه بأنه اختلس مبلغ مائة ألف فرنك للاضرار به ، وادعى لنفسه بالحق المدعى ، فصرخ عليه الابن - السيد روكفيار - أن يرد هذا المبلغ قبل النطق بالحكم . فكيف تلوم فرازن على قبوله المبلغ ؟ ! » .

- لست ألومه على القبول ، وإنما على مضيه - برغم ذلك - في إجراءات الدعوى . كما أنني لا أفهم السيد روكفيار !

- آه ! إنه يعلم أن ابنه مذنب « وهو يشتري بعمله عطف المحلفين . أما فيما يتعلق بتصرف السيد فرازن ، فانه - نظرا لأن الحكم بالإدانة أمر غير مؤكد في محاكم الجنائيات دائما - قد أثر أن تكون لديه وسيلتان لبلوغ غايته . ومن ناحية أخرى ، فانه سيسفّل دفع هذا المبلغ ليعتبره - في الجلسة - بمثابة اعتراف . وعى سياسة قوية جدا !

- بل إنها سياسة مريحة ، قبل كل شيء ! أما السيد روكفيار ، فأننى ولو لم أكن أملك أن أشرح الدوافع التي حملته على هذا التصرف ، إلا أنه في الوقت ذاته - عظيم الحكمة ، بحيث أنه لا يسلم سلاحا كهذا إلى خصمه دون أن يشذ احتياطاته - ولابد أن الإيصال الذي طلبه قد تضمن أنه وإن أدى عن غيره التراما ، إلا أنه لا يعترف قط بأن هذا الغير هو أنه !

وهنا وصل المحامي « باييه » ، فاشترك في النقاش دون أن يضع حقيقة واحدة « إذ قال : « إن الإيصال يتضمن - هذا - التحفظ فعلا ، وفي أدق صيغة قانونية ! » .

لأننا مظهرنا : « لقد استعجبت ذلك - وكان الأخرى بالسيد  
فرازن أن يدع الأمر رهنا بحكم القضاة ، بدلا من أن يقف وقفا  
بمعارض مع توقيعه على مثل هذا التحفظ ! » - بيد أن السيد  
كولانج أبى التسليم بالهزيمة « فصاح : « وأى دليل يقوم عليه  
إيصال كهذا ؟ أفهناك من يدفع مائة ألف فرنك عن شخص  
بمجهول ؟ »

وأقر الحاضرون رأيه ، وتبتموا معربين عن تحبذهم لهذا  
الرأى الذى كان يعنى أن مثل هذا الكرم لم يقدم فى الواقع إلا  
بدافع ضرورة ملحة . على أن نجاح الشاب كان قصير العمر ،  
إذ سرعان ما أخفاه المحامى « بابيه » كما يخفى الساحر كرة  
صغيرة .. فقد كان مرحا ، قصيرا ، بدينا فى تناسب ، لا يلم  
بكل شيء ، ولكنه يحشر نفسه فى كل مكان ، فيسيطر على  
الألباب . وقد قال إذ ذاك : « أرى أنك تجهل الصنعة الأكثر  
براعة ، التى عقدها السيد فرازن »

— هات ما عندك — آه ! آه !

واستحوذ على اهتمام الحضور بالنبا الذى يحمل ، ثم انتفض  
فرصة شروع الفرقة الموسيقية فى عزف إحدى المقطوعات  
الراقصة ، وترك فى غير اكتراث مستقيمى الماخونين ، وأسرع  
— ككرة نتدحرج ! — إلى إحدى السيدات فدعاها للرقص .  
ولما لم يكن لدى أولئك السادة ما يصنعونه « فقد راحوا —  
خلال مصراعى الباب — يرقبون الراقصين « متظاهرين بعدم  
الاكتراث لما سمعوا ، مصطنعين الإعجاب بالراقصين  
والراقصات الذين كانوا يتقدمون ثم يتأخرون ثم يتسجلون

التحية . ثم يفورون حول أنفسهم ، تبعا لأنفسهم الموسيقى .  
ونظام خطوات الرقصة . وكانت جان ساسيناي متوردة  
الخدن ، وقد سوت شعرها بحيث بدا فى فوضى متناسقة  
متعددة ! وبدت أبهى ما تكون رشاقة ونضارة ، فى ثوب أزرق  
شاحب كشف صدره عن « زاوية » ناصعة راح النور بداعبها  
.. وانهمكت فى الحفاوة بجميع المدعويين ، وفى الإقبال على  
المرح واللهو ، فاثارت بذلك تعليقات الكثيرين : « لا بأس بهذه  
الفتاة الصغيرة ! » .. ولكنها غاية فى النحافة .. انظر إلى  
رديها ! .. » « انها لم تزل فى الثامنة عشرة من عمرها .. »  
« آه ! ولكنها إن تلبث أن تتزوج عما قريب .. » « ولماذا ؟ »  
« .. » « لان لها صداقا ضخما .. » هذا صحيح ، ولكن شقيقها  
غارق فى الديون .. » « ومن تراها مستزوج ؟ » .. لا أحد  
يدرى بعد .. يقال انه ريمون بيرسى ! .. » « الخطيب السابق  
للأنسة روكيار ؟ » .. « انه طبيب ناشئ » .. « حقا .. لم  
يذبح أحد بعد ! »

وبعد الرقصة الأخيرة ، أحس المحامى بابيه بتعب ، فقاد  
زميلته إلى المقصف ، حيث تناول قسطا من الشهيانبا ، وأكل  
شعيرة محشوة بالكبد السم . وبذلك استرد نشاطه ، فعاد  
إلى الظهور فى الوسط الذى تركه يتقلب على جمر الفضول .  
ولكنه تقادى سخطهم بان يادر ضاحكا : « لن تعرفوا شيئا إذا  
ويختمونى ! » . فصاحوا : « هانحن منصتون إليك ! » . وإذا  
ذاك قال بسقائف الحديث السابق : « انكم ما زلتُم عند نقطة  
قيام السيد روكيار بدفع مائة ألف فرنك إلى السيد فرازن »

.. فقيل له : « وانها لنقطة هامة ! » . ولكنه مضى قائلاً : « بل إنها أقل أهمية مما توشكون ان تعرفوه ! » . وما ان اتبعته انغام « البولكا » ، حتى اذار راسه ، ظن القوم انه يعترزم ان يغادرهم مرة أخرى في غياهب حيرتهم . ومن ثم اتجه فريق منهم إلى الباب . وقرروا ان يسدوا عليه الطريق . وقال له السيد لاتاش : « انك تتعيب عرقا ، فليس من الحكمة ان تعود للرقص » . بينما عمد الموثق كولانج إلى حيلة أخرى . إذ أبدى تشككا في النبا المنشود . وإذا ذلك بادر صاحب النبا إلى فتح فيه ، فترك صيده يطير :

— إليكم النبا إذن : لقد استولى السيد فرازن دون مقابل على مزرعة البرج ، التي تساوى ما يقرب من مائتي ألف فرنك !

وهنا تعالت صيحات التكذيب والاستفكار : « ما هذا القول ؟ » .. « إنك تسخر منا ! » .. وكان المحامي باستار : والسيد مالروا — المدعى العام — يحدثنان على حدة ، ناقضين وقد ارهقا سمعيهما .. بينما قال الخطيب : « بل إنها الحقيقة .. دون مقابل ! » . ونعالى التساؤل : « وكيف حدث ذلك ؟ » .

فاجاب : « إليكم الامر : لقد عرض السيد روكيفار الضيعة للبيع ، في سبيل الحصول على المال اللازم ، فعرض عليه السيد دودان — الموثق ، والوسيط في الصفقة — مائة ألف فرنك تدفع فورا » على شريطة ألا يعلن إليه اسم المشتري قبل اليوم الخامس عشر . وانكروا جيدا هذا الشرط . اليوم الخامس عشر ! ولما لم يكن لدى السيد روكيفار فرصة للاختيار ، قبل اعتقاد محكمة الجنابات ، فقد قبل .

وما كان يرجو خيرا في مثل تلك المدة القصيرة . وحدث — بفضل ثثرة أحد الكتبة ! — ان عرفت الآن ، وتوا ، ان المشتري الحقيقي هو السيد فرازن .. السيد فرازن الذى انفق مائة ألف فرنك بإحدى يديه ، ليقبضها باليد الأخرى ! والذى يجد نفسه الآن بحيلة بسيطة مالكا بغير مقابل لضيعة فخمة ! » .

وكانت هذه السياسة « المكافئية » تبرز جميع الأساليب الاحتمالية التي تعودها أبناء المدن ، فهبت الحاضرون .. ولم يكلف أحدهم نفسه عناء البحث عن الحافز المعنوى ، ولا عناء سير غور تضحية السيد روكيفار بهذا التراث العريق ! . وكان السيد فرازن — في المحنة الأليمة التي اجتازها ، والتي هدمت بيته ، إن لم تكن قد أودت بثروته كذلك — قد ركز كل مشاعره في الأشياء التي ظلت بمنأى عن النادر ، وهي أعماله ، كالفنانون الذى يستمد من فنه سلوى ، أو المرأة التي تشد في الاحسان عزاء .. وعلى هذا كان تدبير العقود والأرقام بهذه بشفذ بهرب خلاله من الأفكار المحزنة . ومن ثم تناسى — لفترة — همومه بالانشغال بشئون عملائه « وبالرضى الذى كان يستشعره في إدارة معركة المصالح المادية . وقد أوحى إليه مصير ضيعة البرج بوحدة من تلك المخططات البارة الجريئة التي لم يكن يملك ان يصد نفسه عنها . وكان يأمل في ان يظل المر مكتوما إلى ما بعد اعتقاد محكمة الجنابات ، ولكن .. أى مر ذلك الذى يظل مكتوما في بلدة يقل عدد سكانها عن عشرين ألفا ، ومن ثم يعد كتمان الشؤون الداخلية فيها بمثابة بدعة مكشوفة ؟ !

وكان السيد لاتاش هو أول من عبر عن مشاعره . إذ نطق بكلمات ثلاث كانت بمثابة خطاب كامل « لصدورها عن رئيس غرفة الموثقين : « عمل غير سليم ! » . فرد السيد كولانج : « كلا ، مطلقا ! هناك أرض معروضة للبيع ، وقد اشتراها . وهذا حقه ! » . ومع ذلك ، فإن المناورة الماكرة التي لجأ إليها السيد فرازن لم تلق سوى عدد قليل من التحيزات ، اتبعت من ممسك الثبان الذين يوجهون اليوم تحمسهم - كما يوجهون أموالهم - نحو المشروعات المؤكدة الربح . ولقد لقي السيد فرازن نجاحا كبيرا في مشروعاته المائدية ، ولكن المتسكين بالأخلاق ونوى الإدراك العملي من الحاضرين ، تنهوا عليه هذا اللصرف ، لا سيما وأنهم لم يفلخوا عن أنه جاء نتيجة مزار زواجه . وفوق هذا ، فإن انتماء الرجل في الأصل إلى مقاطعة (دوفينية) كان يبدية - في نظر خاصة المجتمع - اجنبيا . يثرى بمثل هذه المكاسب على حساب بلدهم ! .. حقيقة أن أحدا لم يأس لتدهور آل روكيار - الذين كانت مكانتهم تثير حفيظة الطبقة الوسطى - ولكن القوم بهتوا حين راوهم يخساعون بأنفسهم النكبة ، ويسحقون بأيديهم ما تبقى من أطلالهم .. إذ ما الذي يدعو إلى التريط في المال إذا لم يكن موريس مذنباً ؟ فإذا كان مذنبا ، فما الداعي لتصرف ينطوى على اعتراف ؟ ذلك لأن ما قرره الشاب كان أمرا مجهولا . إذ أن السيد هاميل كان شديد التكم ، كما أن السيد باستار كان يلتزم في صفه خطة مرسومة : فقد كان تواقا إلى القضايا ذات الضجيج المدوى ، وكان ما يزال يرجو أن يطلب عونه في هذه القضية بالذات .

على أنه لم يستطع أن يكبح نفسه عن الكلام طويلا لفرط الانفعال .. وكانت اللحظة التي دار فيها الحديث قد انقضت نظرا لحصول مدعويين جدد ، واستؤنف الموضوع في جماعات صغيرة تناثرت هنا وهناك ، كالنار يذكر لهيبها قبل أن تخبث نهائيا . وانضم المدعى العام فاليروا إلى السيد باستار في ركن منعزل . ويأمره قائلا : « ها هي ذى مفاجأة بارعة تستغلها في مراعتك . لتطهر زوج مدام فرازن بلاذلتك الساخرة ! » . فقال المحامي : « ليس من المؤكد بعد أنني سأترافع » . فتسائل الآخر في دهشة : « كيف ؟ إن تترافع ؟ » . ومن ثم لم يجد المحامي بدا من إيضاح الأمر ، مانثى السر دون أن ينتبه ، إذ قال : « إن هذا الشاب الغبي يأبى أى دفاع جدى ، خشية المساس بشرف عشبته ! » .. ونأه بالكلمات الأخيرة في سخريته وازدراء . ثم راح يشرح لرجل القضاء المرهف السمع . كيف كان المتهم يرفض مقدما كل إشارة تدين مدام فرازن .

— إذا لم تكن أنت . فمن الذى سترافع ؟

— ما زلت أجهله . إنه السيد هاميل ولا بد .

ولم يخس التقيب باحترام يزيد على ذلك الذى خص به مدام فرازن . إذ مضى عن رأيه في شسيخوخة التقيب وعجزه بالازدراء الذى ذكر به اسمه ! وبعد لحظات من الصمت ، قال السيد فاليروا : « إننى أفهم الآن تصرف السيد روكيار ، فهو يلغى السرقة لينقذ ابنه ! هذه فرصته الأخيرة . ومن ثم لم يتردد في التضحية بثروته . هذا جميع جهل السيد .. ولم



يستسغ السيد باستار هذا الإطراء ، فندت عنه إشارة غليظة  
تحتل شتى التاويلات ، ثم قتل مستتركا إقضاءه سر مهنته :  
« هذا سر بيننا ! » . واتجه صوب فريق من السيدات ، وقد  
استقرت لحيته الانيقة على صدره ، ومار في بطنه وجلال كنهه  
طاووس يتأهب لأن يبسط ريشه . وبقي رجل القضاء وحيدا  
فلم يحاول أن ينتد لنفسه رفقا ، بل وأصل التفكير في السيد  
روكيار بإعجاب ، وأخذ يستعرض حياة هذا الرجل التي  
أضمت بالآلام والبسالة . فمذ اليوم الذي رفع فيه فرازن  
شكواه ، لم يظهر روكيار سوى إنكار المصلحة المادية -  
والاعتزاز بالنفس ، والامتداد للفضحية . وراح السيد  
فاليرو يسائل نفسه : « لماذا لا يفهم شخصيته العظيمة هنا  
سواي ؟ » . إن أي فرد من الحاضرين لا يسمو إلى مواطيء  
تقدميه ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء السادة منذ لحظات يترفعون  
في حديثهم عنه . وكان النحس قد حط من قدره وهوى بمكانته !  
إن الريف لحاسد حقود ! » .

وفي هذه الحدود البسيطة ، كانت المأساة مؤثرة ، وداعية  
للعجب : كان الشاب مورييس مجرد الأسرة من كرامتها ، بمثابة  
اعزل أمام المحلفين ، ومن ثم تخلص أبوه عن الضيعة العريقة  
بثمن بخس ليتقلب على الابن الضال . ولكن .. إذا كان  
محامي التهم مضطرا إلى أن يفلق فيه ، فإن ثمة صوتا أعلى ،  
وأكثر سلطانا من صوته — لأنه يصدر عن سلطة عليا —  
يستطيع أن يدوى في الأذان بدلا من ذاك الصوت .. أفليس من  
حق المدعى العام أن يعرض القضية من ناحيته ، بعد أن يتكلم

المدعى بالحق المنفى ؟ وبدلا من أن يقيم « العدالة » بالطريقة  
المتعارف عليها في مثل هذه القضايا — التي تمتاز بأنها خاصة  
بكثير مما هي عامة — أليس من واجبه أن يتدخل تدخلا فعلا في  
كشف الدور المشنوم .. الدور الأعظم تأثيرا .. الدور الفريد  
الذي قامت به مدام فرازن . إذ كانت الوحيدة القادرة على إسائة  
استغلال الثقة . دون أن تدان لهذا السبب لا ! ما أروعها من  
فرصة لخدمة العدالة ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإدخال  
شيء من الفرح على تلك النفس التي حرمت منه !

تتابعت كل هذه الخواطر على رأس السيد فاليرو ، ولكنه  
كان عاجزا : فقد كان يجلس في مقعد المدعى العام — في محكمة  
الجنايات — محام عام ، وليس هو . ومن ثم لم تعد قضية مورييس  
روكيار من اختصاصه . فضلا عن أنه قد تعرض للوم بسبب  
الخطوة الغريبة التي اتخذها إزاء الموثق في العام الماضي .  
والتي لم يقدر لها أن تغل في طي الكتمان طويلا . وما الجدوى  
في أن يقحم نفسه في قضية لم تعد من اختصاصه . ولأن تجرب  
عنه سوى العناء لا يجب أن يقنح بإبداء العطف السلبى من  
أجل راحة باله وطمأنينته ! .. وأسرع يختلط بالمدعين حتى  
لا يسترسف في التفكير ، ولا يقدر أنانيته . وداخلته السعادة  
حين شعر بالفأس حوله .. ففى وجود بنى جنسنا عسواء  
ونسرية لنا حين نحاول أن نقيس مدى ضالة شأننا .. ولكن  
— من ناحية أخرى — لا يقدم على هذه المحاولة سوى خير  
الأناس !

وأثار التردد على المقصف حركة رائحة عادية في قاعتي الاستقبال وفي البهو وقاعة المائدة « انتهزها الشبان ليحوموا حول الفتيات . وكان بين انقيات من استهواهن الرقص طرح يطالبن الفرقة الموسيقية بالعزف ، ومن أظهرن معادة في تقبل بعض المقالات البسيطة ، لترويض أزواجهن . بيد أن بعضهن — وكن فئة ضئيلة — لم يبهن بإلقاء نظرة سريعة للتأكد من وجود أو غياب خاتم الزواج في الأيدي اليسرى للرجال ، قبل أن يستجبن لمغازلاتهم في تحبيذ مستتر ! وكانت عيون الشباب المنتشى تتألق بوميض الانتهاج كما تتلأل المجوهرات التي كانت تزين الشعور والصدور والأذرع والأصابع ! .. وكانت الوجوه المزدانة بالمساحيق تبرز بين ثياب السهرة السوداء ، في خطوط واضحة كأنها الألوان المائية !

فألى أية طبقة منهن كانت تنغمي الأنسة جان ساسيناي التي تخلت تماما عن ذراع ريمون بيرسي — الذي كان في العام السالف ضليلا للأنسة روكيار — حين نبعثها عين أميا البقطة ، في قلق ، وفي شيء من الدهشة ؟ ترى هل كان رأسها الصغير المتناسق ، التشبيه برؤوس التماثيل الإغريقية — التي تبدو لنا رشيقة وأخاذة وهي تسوى فوق اكتاف حجرية — هل كان رأسها هذا ضيق العقل إلى درجة لم تمكنه من أن يرعى فكري صديقته التي هجرها ذلك الشاب ؟ أو لم تكن نظراتها الصافية ، المنبعثة من عيني في زرقة السماء ونضارة الربيع ، تتم في قرارتها عن استخفاف وعدم اكتراف ؟ .. وكانت الدماء تجري في وجنتيها ، نتيجة الحركة التي بذلتها في الرقص .

ولكنها لم تكن تتسم . بل كانت عابسة ، تجز على شفيتها ، وكأنها اتخذت قرارا جادا لا يتلاءم مع روح الطفولة الجميلة .

وقال لها الشاب : « إيتي لم أرقص معك بعد ، غفل مؤثريني بلحدي رقصات الفالس ؟ » - فأجابته في جفاء بعد أن اطمانت إلى أنها ليسا وحيدين : « لا » . « نهفت يسألها : « ولم لا ؟ هل جميع رقصاتك « الفالس » محجوزة » .. وكان جوابها : « ليست كلها » . ولم يحمل رفضها على محمل الجد ، بل أنه طفق بضحك بدلا من أن يعبس . وقال : « لقد نهنتي . فشكرا ! » .. فأرسلت زفرة متعينة ، ككك التي يصدرها العمال وهم يرفعون حبالا ثقيلة ، ثم اندفعت فجأة قائلة : « الواقع أن من واجبي أن اتبكت يا سيدي : لقد تحدثت أمك إلى أمي ، وأمي لا تخفي عني سرا . وحتى الذي تكتمه لا البت أن أحدهم .. فهل أركبت ؟ .. قط .. وأرجو أن تصيخ السمع .. تظن أن تزوجك ! » .. نهفت الشاب مبهوتا : « عفوا يا آنسة . فانا لم اطلب يدك » .

— لقد استكشفت أمك الميدان .. « جست النبض » كما يقولون !

— إن الإبهات يرسم كثيرا من المشروعات لابنائهن .. ومع ما في هذا المشروع من شرف لي ، إلا أنه لا يتفق مع نواياي .

— أوه ! هذا أفضل ! — إيتي لا أفكر في زواج .

وبهت عندما أجابت : « إنك لمحتني .. فقد هذا .. القاتيب غريبا ، وموجعا ، وهو يصعد .. ذلك القاتيب ..

واستطردت الفتاة : « عندما يتاح لأمري حظ مصانفة فتاة مثل مرجريت روكفيلر في حياته ، فجنير به ألا يهدم نفسه سعادة كبذه ! » .. وكان هذا عذقها . ولقد أدرك الشاب ذلك . وكان يوسعها أن تدرك مدى الضربة التي وجهتها إليه من التطور الذي ألم بأسارير وجهه ، لولا أن العيتين في مثل سنها الغضة لا تكونان قد اكتسبتا بعد القدرة على تتبع مظاهر انفسالاتنا الداخلية ! كذلك كانت تنقصها القدرة على الاعتدال في الانساق لتحسس الصبايا المتحررات : إذ استطردت تقول : « من القبيح دائسا يا سيدى أن يتخلى الشاب عن خطيئته ، لا سيما حين تكون في ظروف تمسة .. هذا أمر لا يطاق ! » .

بأى حق سمحت لنفسها بأن تؤنبه بهذه القسوة ؟ واعتناظ ريهون بيرسى ، لا سيما وأنه كان يستشعر في قرارة نفسه سرورا مشوبا بالمرارة عندما يسمع حديثا عن مرجريت . وانصب غيظه ومرارتته في رده ، إذ قال : « إبنى لم انصك حكها يا آنسة . وإذا كنت تتكلمين بلسان فتاة أخرى ، فاننى أجيبك بـ ... » ، ولكنها قاطعته قائلة : « لست أتحدث بلسان أحد » .

— إذن فما أبعد معلوماتك عن الحقيقة .. فما أنا بالذى نسخ خطبة كانت عزيزة على !

— كانت عزيزة عليك ؟! أجل . هكذا أنتم ايها الرجال : تحضرون إذا اشرفت الشمس ، حتى إذا امطرت السماء ، لا يبقى منكم أثر !

— ولكذك جد ظالمة .. وإنى لأوشك أن افقد صبرى .

وبدلا من أن تبكت : ظلت تظن كالزنيار الذى يبحث عن شخص يلذغه : « لا يفضب سوى المخطيء ! » . فقال : « ليس هناك ما أؤدى حسابا عنه أمامك يا آنسة . فاعلمى أن الآنسة روكفيلر هي التى فسخت الخطبة . نقالت معقبة : « بدافع من الشهامة » . ولكنه أجاب : « إنها لم تعبا بقلبي ، ولا اكترشت لآلامى » . فاشتد احتقان وجهها . ولم تعد تملك نفسها . فقالت تستنكر عمله في عنف : « في مثل هذه الظروف ، ما كان ينبغي أن تقبل القطيعة » . ولم يعد بدوره قادرا على الهدوء ، فغتل : « وإذا أدين أخوها ؟ » .

— هذا ادعى ولكرم . — آه ! أحقا يا آنسة ؟

— أجل . إنه لحق . فانا إذا أحببت لا يتغير حبي بذهاب خديلى إلى السجن . بل إبنى أتبعه إلى هناك ! أسمعنى يا سيدى ! لو استدعى لحاقى به أن ارتكب جريمة ، فاننى ارتكبتها .. في الحال . ودون تردد ؟

فقال : « إنك لطفلة ! » . ثم غير من لهجته فجأة ، وثمتم معترفا بصوت أجش : « أو تظنن أننى غير آسف عليها ؟ » . واذ تبدل بهذه السرعة ، استخفها الانتصار حتى كادت تلقى بنفسها على صدره . وإذا بهدام ساسيناي تقترب وقد رابتها هذه الحركة وهي ترقبها عن بعد . وقالت جان : « آه ! كنت موقنة ياسيدى من أنه ليس في وسعك أن ترغب في الزواج منى .. إذن ، فأسرع . أسرع وأخطر مرجريت ، واضرع إليهما ياسيدى أنا الأخرى : كى تصفح ذلك . واستعد بمرعشة مكثك في الأسرة قبل القضية ، وإلا فسوف ينوطن القطار .

إن هذا أفضل من كل ما تعالج به مرضاك من أنواع العقاقير السيئة ! » .

— شكرا . — أذهب في الحال .

— ولكن الساعة بلغت الحادية عشرة والنصف .

نهفتت : « إذن فاذهب غدا » . وكانت مدام ساسيناي في طريقها إلى ابنتها ، فاستوقفتها فربق احتدم بين أفراد النقاش ، واحد يزداد حدة بين لحظة وأخرى : كان السيد فاليرو يسأل شيئا — في زى عسكري يتم عن أنه من هيئة أركان الحرب : « أوافق أنت ؟ » . فاجاب الضابط : « كل الثقة . لقد نعى الخبر إلى الفرقة في الساعة السادسة ، وقد ذهب الجنرال بنفسه لزيارة السيد روكفيار » . مهتف السيد كولانج وقد أدهشته — وأثارت مشاعره — خطوة رسمية كهذه . نحو رجل تكاثرات عليه المحن : « بنفسه ؟ » . — وسالت مدام ساسيناي أقرب شخص بجوارها : وكان السيد لاتاش : « عم يتحدثون ؟ » ، فاجابها : « عن موت الملازم روكفيار يا سيدتي . فقد توفي بالحمى الصفراء ، في السودان » . فتمتعت وقد طففت عليها الشفقة : « يا لهم من نصباء ! » . وقال السيد لاتاش مؤمنا : « اليسوا كذلك يا سيدتي ؟ » .

كان هذا المصاب الفادح سببا في أن اكتسب آل روكفيار عطف النساء ، وفي تحطيم روح العداء لدى الرجال . بعد أن كان القوم يؤيدون انقيار الأسرة المادي والأدبي بنفوس راضية . لقد أراحوا لها الهوان ، فاجابهم القدر ، ولاحقها

بالتوائب في غير ما تردد ولا هوادة ! وراى الصمت على أنصار السيد فرازن وصفقة الراحلة . . . وغير المدعى العام عن شعور القوم بقوله : « يا للمساكين ! » . . . واختفت جان ساسيناي بعد هذا اللفظ . فبحثت عنها أمها في المسكن دون جدوى ، حتى إذا لحقت ريمون بيرسي في الردهة وهو يرتدى معطفه في عجلة سألته : « اترحل مبكرا يا سيدى ؟ » . فاجاب دون أن يحاول تبرير هذا الانصراف المفاجئ : « أجل يا سيدتي » . وأدركت ما كان يحتم على صدر الشاب ، فربطت بين هذا وبين اختفاء ابنتها ، وبدأ القلق يساورها بشدة ! ثم سألت زوجها — الذى صادفته عند مدخل قاعلى الاستقبال : « ألم تر جان ؟ » . فاجابها : « لا .. فبحثت عنها ؟ » .

وكان السيد ساسيناي رجلا مجتهدا ، صريحا ، ونفيا . ولكنه مجرد من القدرة على تفهم انمواع النفسية . . . فكان في وسعه أن يتغلب على أعظم العقبات المادية ، ولكنه كان عاجزا عن أن يعنى بتحليل العواطف . ومن ثم لم تر زوجته جدوى من مصارحته بهواجسها واكتفت بأن سألته أن يعنى بضيوعها . بينما اتجهت هي مباشرة إلى غرفة مخدع ابنتها ، فما أن ولجتها وأدارت زر المصباح الكهربائى ، حتى ألقت ابنتها غائصة في أحد المقاعد ، وقد انحنت على نفسها ، وانخرطت في البكاء ، غير مكترثة بما قد يصيب ثوبها من تجمع . وبادرت تسألها وهي تربت ظهرها : « جان .. ماذا بك ؟ » . . . فنهتت الفتاة : « أمه ! » . وكانت الصرخة تشبه بشكوى طفلة هدا روعها في الحال . فسألتها أمها : « لماذا تبكين ؟ » .

— إنها خطرت لى أحزان مرجريت « بينما أرقص أنا لاهية !

وتنهدت مدام ساسيناى ، إذ كانت تدرك الود العظيم الذى تكنه ابنتها للأنسة روكنيار . وما لبثت أن سألتها حين وجدتيا لا تكف عن البكاء : « أو تذكرين المأزم هوير ؟ » . فاجابت الفتاة : « أجل ، كان ظريفا . . ولكننا كنا نخاصم فى ساحة النفس ، إذ كان دائما متقوقا » . . ولكن هذا لم يكن بيعت اسى الفتاة . إذ استطردت دون تمهيد : « مسكينة مرجريت ! إننى أفضل مورييس السجين على هوير ! لسوف تبرأ مساحته . اليس كذلك ؟ » . فاجابت الأم : « أمل يا عزيزتى » . وإذ ذاك قالت الفتاة : « برىء يبرىء القضاء مساحته ، ويدينه الناس ! إنه لامر عجيب ، اليس كذلك يا أماء ؟ » . فتساءلت مدام ساسيناى : « أواذلة انت انه برىء ؟ » ، نهتفت الفتاة لغورها : « وكيف لا وهو شقيق مرجريت » .

وابتسمت السيدة لهذه الفورة ، ولهذه الثقة التى تممحت أن تستثيرها . وتذكرت وهى تسرى عن ابنتها حديثا دار منذ أمد بعيد بينها وبين مدام روكنيار حول اولادهما . فقد قالت المرأة التقية وقتئذ : « قد يحين يوم أطلب فيه يد ابنتك لمورييس ، إذا اثبت جدارة ، وبذلك تبقى الطفلة بالقرب منك ! » . ومع أن مورييس لم يثبت جدارة ، إلا أنه ظل يحتل فى قلب الصبية النبيلة مكانته السالفة . وهنا موطن الخطر ، فلا يد من الحذر . وبينما اعتزمت الأم أن تمنى بذلك ، راحت تفكر بالرغم منهما فى بقية آل روكنيار ، الأموات منهم والأحياء ، الأفاضل منهم والمبتلين بالحن !

وكان ضجيج الموسيقى يصل واهنا إلى الحجرة ، فقالت الأم : « خفى عنك يا صغيرتى برفق ، وانثرى بعض « البودرة » على وجهك . حسنا ، إنك الليلة جميلة ! والآن ، لنعد إلى القاعة سريعا ، وإلا لاحظ القوم غيابنا » . فقالت الفتاة : « أصبت يا أماء ، وقد وعدت بالاشتراك فى هذه الرقصة » . واستردت جاشها لغورها ، ثم تقدمت إليها فى الردة .

\*\*\*

وفى تلك الساعة ، كان رينون بيرسى ، الذى أفعجته وفاة صديقه هوير ، يذرع الطريق أمام دار آل روكنيار . وكانت ستوف الحصن المكسوة بالطلح تلمع تحت ضوء النجوم ببريق كثيب . وبدأ برج المحفوظات وقبة برج الكنيسة كمارسين ساهرين على البلدة الهاجمة . وكان ثمة ضوء خافت يتسلل خلال مصاريع نوافذ غرفة المكتب الأربع ، التى كان الشاب يعرفها جيدا . هناك كانت مرجريت تجلس مع أبيها ، يتألمان معا ، وقد أصابت قلبيهما طعنة جديدة !

وتملكث الشاب رغبة فى الصعود ، ولكنه لم يجد الجراة . كان تسخ الخطبة ، والتفور الذى أبداه أهله والراى العام ، وظلمات الأثانية الجاثمة . . كانت هذه كلها ما تزال تحول بينه وبينهما . ولكنه — فى تلك الليلة القاتمة ، وخلال هذه الجولة — أحس بحقيقة عواطفه ، وبأن الألم والأشفاق ينميان الحب أكثر مما ينميهِ الفرح !

## ٤ - الأرض المهمة

كان لابد من قرار . ولكن السيد روكتيار كان يترجح منذ  
الأمس تحت ثقل مصابه في ابنه . . المصاب الذي نعى إليه  
بإخطار رسمي مقتضب ، قيل فيه إنه مات في خدمة الوطن .  
بعيدا عن كل إسعاف ، في أحد المراكز الامامية ! بل إن الأب  
الثاكل لم يجد في هذا العزاء السامى ما يخفف لوعته . لقد رحل  
هوبير إلى المستعمرات سعيا وراء المخاطر . ليربح الاسم الذي  
أهين ، فكان بذلك آخر قربان للتكفير عن خطأ موريس الذي  
نسى الأسرة ، وكان موريس يوشك أن يمثل أمام محكمة  
الجنايات ، في اليوم التالي ، وما قضى الجدل دائرا حول  
المصاعب التي تكثف الدفاع عنه . ولاشك في أن تضحية تراث  
الأسرة لم يكن عبثا ، كما أنه لاشك في أن إصلاح الضرر الذي  
وقع يجعل الحكم بالبراءة جد محتمل . إن لم يكن مؤكدا . ويقلب  
ميزان الحظ في مصلحة المتهم . ولكن هذه البراءة بالذات ما كان  
ينبغي أن تنتزع بدافع من التسامح أو من الشفقة . بل كان  
لابد للشباب أن يفادى دار القضاء مطهرا من كل شبهة تمس  
سبعته ، مبرا من كل ذنب ضد القانون أو ضد الشرف . لكي  
يعود إلى احتلال مكانه في البيت ، وفي المدينة ، وفي مقاعد  
المحامي ، ولكي يستأنف نفس تقاليد الأسرة . وينقلها بدوره  
إلى ذريته . . ولكن ، كيف السبيل إلى ذلك دون ذكر اسم مدام  
غرازن ؟ حقيقة أن السيد باستار رجع - بعد بيع ضيعة

التي تعودها : « إن هذه القضية تكلفك أكثر مما تستحق .  
ولكن هذا السخاء سينتزع عطف المحلفين ، فإن هؤلاء القوم  
الذين يقيمون الدنيا من أجل بيضة ، ويقتلون من أجل شجرة  
كشرى ، سيجارون كالقمر عندها يعلمون أنك بعث أرضك  
لورد دين الغريسة ، ولكثمتهم كذلك قادرون على أن يصدروا  
الحكم بالإدانة » إذا انتبهوا إلى المثل السيئ الذي تضربه ، وإذا  
تكشفت صفقة السيد غرازن للمحكمة كحجة نهائية ، في  
أسلوب متمسك لإثارتهم ودفعهم إلى غيرة جامحة في  
صالحنا ! » .

كان لا يقيم كثير وزن للمعدالة والإنسانية ، وإنما كان يدرس  
ملف القضية ، ويهب هذه الدراسة كل نفسه ، وكان - بصيته  
الذائع - يفرض نائره مرضا . وكان المقرر أن يزور السيد  
روكتيوار في الساعة الخامسة ، لينتق معه ومع السيد هاميل  
على الخطوط الرئيسية للمرافعة ، للمرة الأخيرة . إلا أن والد  
موريس لم يكن يثق بالأسلوب المسرحي ، وبفن إشارة  
الريب ، لكسب قضية أسرته .

وبعد الغداء الذي لم يكد السيد روكتيار وابنته يمساها ،  
نهض الشيخ متأهبا للخروج . . فقد كانت أحزانه تثقل عليه  
وهو بين جدران البيت . ولكنه كان يجد القدرة على التفكير في  
الخارج ، إذ كان الهواء ينمش أفكاره ، وقواء المستنزفة ،  
ونشاطه المتداعي . وما أن بلغ الباب ، حتى نادته مرجريت :  
« آبت ! » . فالتفت إليها في دعة ، إذ كشفت منذ وفاة زوجته -  
بل وقبلها - موطن سره ومشورته ، وأعظم مصدر القفرية في

حياته . وكان رحيل جوليان الصغير — إذ اصططحبه شارل مارسيلاز إلى ليون غداة اجتماع مجلس الأسرة — قد خلفها وحيداً ، وجهاً لوجه ، في البيت الذى كان يخلو من أهله رويداً ! وكلنا قد قضينا الليلة السالفة معا حتى الصباح تقريباً . يتحدثان عن هوبير ويكياته ويصليان . .

وعندما اقتربت الفتاة من أبيها ، رفع يده في بلاء إلى شعرها الجميل « فادركت أنه يباركها ، وإن لم يتكلم . واغرورقت عيناهما بسرعة ، وقد ألقت الدموع ، ثم بكت من جديد ، وقالت : « أبت . . ما الذى قررت بشأن موريس ؟ » . فاجابها : « لقد استعد باستار للدفاع عنه ، وسيحضر مع السيد هاميل في الساعة الخامسة ، لذلك فسأعد إرشاداتي الأخيرة في الهواء الطلق » . فسألته : « هل أنت بحاجة إلى أن أصبحك ؟ » . واجابها متلعطاً : « لا يا صغيرتى . لا تقلقى على ، بل إننى سأفكر أثناء المشى ، إذ لا وقت لدينا كي نكفن موتانا . . فان الأحياء ينادوننا ! » . وإذ ذاك غمغت الفتاة : « إذن ، فمأذهب إلى السجن » . فقال : « أجل » وانفضى إليه بالمصاب ! « .

— يا لموريس من ممكن ! لكم سيتألم !

ولكن الأب قال « إن ألمه أقل من ألما » . فتهتفت الفتاة : « أوه ! لا يا أبت ، إنه مثل ألمنا ، بل أكثر ! لسوف يخفى على نفسه بالتأنيب » . فقال : « جدير به أن يفعل . فما رحل هوبير إلا بسببه » . وأمنت الفتاة على قوله : « هذا حق يا أبى . إننا نبكى دون أن نؤنب أنفسنا . ألا أتيتك بشئ نوبة

عنك ؟ » . فاجاب : « لا ، لا شئ » . ولكلهمها تهتفت : « أبت . . » ، فبادر قائلا : « قولى له . . قولى له إن عليه أن يتذكر أنه آخر سلالة روكنيار ! » .

وخرج ، فجاوز الحصن ، وصار في الخلاء . وكان اليوم من أيام الشتاء الجميلة ، وقد تألقت أشعة الشمس على صفحة الجليد ، فصار — وهو شارل الهال — في طريق ليون التى تقضى إلى الضيعة ، والتى كان يسلكها في رياضته عادة . وكانت الطريق تخرق حي (كونيان) ، حتى إذا جاوزت مصانع قطع الأخشاب ، عند قطرة (سان شارل) ، اتصلت — بين ثلال نومين وسان كاسان المحيطة بجبلى ليبين وكورييليه — بطريق طويلة تمتد حتى نهاية ممر (أيشيل) . وما إن بلغ السيد روكنيار هذا المكان — وهو مستغرق في أفكاره ! — حتى عرج يساراً ، وسلك الطريق الزراعية المنفضية إلى مزرعته القديمة . واجتاز القطرة العتيقة القائمة على نهر (ايمر) . . ذلك الخيط الرقيق من الماء ، الذى كان يجرى بين ضفتين من الجليد ، والذى كانت أشجار الصنصاف — العارية من أوراقها — لا تخفى مجراه . وبعد دورة صغيرة إلى نفسهِ عند منحرج مقعر من السهل ، تطبق عليه مسوح (مونتانيول) التى كانت تشرئب بقمتها نحو السماء . ولم يشعر بوحشة ، وإنما انطلق يسير ببطء متخففاً من أحزانه . ألم يكن في موطنه ، محيط به أراضيه ؟ . ألم تكن تلك الأرض هى التى اعتادت أن تسرى عنه بصداقتها القديمة الوثيقة ، وبذكريات الطفولة التى كانت تحفظ مروتها ، وبكل الماضي

الإنسانى الذى كان يعزو إليه — بعد الطبيعة — تكوينه ؟ .  
 وإلى اليسار : الكروم المثقلة بالعناقيد ، لا يميز منها غير  
 ينفوخها المحزومة بالإسلاك الحديدية . . تلك الكروم التى جنى  
 ثمارها فى الخريف الماضى فقط . . وإلى اليمين : هذا الجدول  
 الذى كان يعتبر الحد الفاصل بين مقاطعتين متجاورتين ، وهذا  
 التل الذى كان ينفرا « لا تقوم عليه سوى شجرة واحدة ،  
 والذى زرعه بعد ذلك بأشجار الزان والبلوط التى ابتاعها بها  
 ادخر من مال ، وحرص على تشذيبها لتحيط بأراضيها . وعند  
 نهاية الطريق الصاعدة ، وصل إلى الدار التى أصلحها ،  
 والتى كان قدمها شاعدا على عراقة الأمرة « وحسن ذوقها ،  
 وقوة أخلاقها . من هنا كان ينفذ إلى المزرعة « ويلاطف  
 الأطفال ، ويشرب كاسا من « العرق » ، الذى كان يقطره  
 بنفسه مع المرأة التى تقيم بالمزرعة ، والتى لم تكن تخشى تأثير  
 الكحول . . ثم كان يعماق ينظره الألق الشاسع الذى كانت  
 المرتفعات والسهول الخصبة والبحيرة البعيدة تؤلف معالمه  
 الراقصة ، المهمة . . ثم يردد إلى أفق المزرعة الأضيق نطاقا .  
 غيلم بما فيها من نباتات متباينة .

هكذا أخذ يسير ساهما على التربة التى ألف السير عليها ،  
 وبفلس الخيطى النشيطة التى كان يسير بها فى الماضى « حين  
 كان يشعر بقوة الشباب تعاوده برغم تقدمه فى السن . . ذاك  
 لأنه كان سعيدا ، سحاطا من كل جانب بمن يحبه ويشد أزره !  
 على أنه ما لبث أن توقف فجأة « إذ خطر له فجأة خاطر : « إننى  
 لم أعد فى ممتلكاتى ، فقد بيعت المزرعة « ولم يعد آل روكتيار  
 هم سادة المكان . فما الذى جئت أفعله ؟ . . لنرحل من هنا . .

وعاد ادراجته منكنس الرأس ، كشريد فوجىء فى حديقة خاصة .  
 ووقف عند الجدول الذى كان يفصل بين ( كونيان ) و ( سان  
 كلسان ) « فاجتازه ووجد نفسه إذ ذاك على بقعة من الأرض  
 تنصل بالمزرعة — من حيث الاستئجار — وإن لم يتضمنها عقد  
 البيع ، فهى بذلك كل ما تبقى له من إهلاك !

وتوقف عند أسفل المنحدر لحظة ليسترد أنفاسه — كجيش  
 عثر على ملاذ وهو يتقهقر ! — ثم شرع يتسلق التل فى شيء  
 من العناء ، إذ كانت قدماه تنزلتان فيضططر إلى غرس عصاه  
 فى الأرض ليحفظ بتوازنه . ولما كانت الطريق مهجورة ، فانها  
 صارت مسدودة تماما ، ولذلك اتجه صوب الشجرة الوحيدة  
 القائمة على رأس التل . . وكانت من أشجار البلوط القديمة «  
 تركبت فلم تجث : لا احتراما لقدمها « ولا لجمال فروعه .  
 الباسقة وقوابها السامق ، وإنما لأن التل بدأ يدب فيها « بما  
 هبط بثمنها ، فلم يكن ثمة ربح يرتجى من وراء قطعها وبيعها .  
 وكانت أوراقها القوية الكثيفة ملتوية — وكأنها تستجمع قواها  
 لتحسن الدفاع عن نفسها — وقد بقيت متشبثة بالأغصان التى  
 كانت تظهر خلال الصقيع — هنا وهناك — فى لون الصدا .  
 وكانت جذوع الأشجار المقطوعة — التى لم ينقلها بعد قاطعو  
 الأخشاب — ملقاة على طول الطريق المنحدرة « كأنها جثث  
 متهاكة على الجليد !

وبلغ السيد روكتيار أخيرا غايته ، فتحسن بيده الشجرة  
 — التى اجتذبتة إلى ذلك المكان — كما يقميس المرء يد صديق ،  
 وأخذ يتأملها معجبا بخصائصها وتوتها ، وهو يقول لنفسه —



يحبذا كان يجفف العرق المتفصد من جبينه : « إنك مثلى ..  
رايت رفاقك يتهاوون ، وظللت وحيدة بعدهم . ولكننا جميعا  
مسوقون إلى السماء .. والزمن هو الناس التي ستجتثنا عما  
تريب ! » .

وكان صعود التل قد استغرق منه وقتنا طويلا . ومع أن  
الأصيل لم يكن قد اكتمل ، إلا أن الشمس كانت قد انحدرت  
نحو سلسلة جبال (ليبين) . فان النهار في شهر ديسمبر قصير  
جدا . وكان تقارب الجبال وارتفاعها يزيدانه قصرا . ومن فوق  
التل ، اطل روكتيار على نفس الأفق الذي كان يراه من المزرعة  
تقريبا .. نفى مواجهته جبل (السنغال) ، وتحتة طريق  
(ايشيل) ، وإلى اليمين — في الطرف الأقصى ، وراء التل —  
كانت تبدو بحيرة (بورجيه) ، وسلسلة (ريفار) ، وجبل  
(نيغوليه) المناسق السفوح - وكان الجليد يوشى الحواف ،  
ويمزج المناظر بعضها ببعض ، مخفيا من حدتها ، منسقا بينها  
.. وقد خلع عليها اقتراب المساء حمرة وردية واهنة ، فكانها  
بشرة جسد حي ! .. وشعر السيد روكتيار ببرد برغم اعتدال  
الجو ، فأحكم أزرار معطفه . وكان قد كف عن السير — الذي  
كان يبعث في كيانه حرارة — فأحس بشيخوخته وآلامه .  
ما الذي حمله على تسلق هذا التل الذي تراءى له سفحه —  
بما عليه من أشجار مقطوعة ومدة على الأرض البيضاء —  
كانه مقبرة ؟ .. اجاء إلى هنا ، في مواجهة ضيعته التي تخلى  
عنها بعد جهود أجيال عديدة لصيانتها ، كى يتأمل ما حاق به  
من خراب ، ويتفقد فجيعته في أماله ؟ .. لقد كان يوسعه أن

يقيم في الجانب الآخر تلك المباني والأراضي التي آلت إليه  
عن طريق الميراث . أما البيت الذي كان يضم في العام الماضي  
كل أفراد أسرته ، في ظلال السعادة وأحضان السرور ، فقد  
أغلق ، ولن يدخله قط بعد الآن !

.. على هذه الأرض الموحشة الحزينة ، كان الصمت والوحدة  
يحيطان به من كل جانب ، كما كان الموت يحوم حوله ويتربص  
له ! وكما يفعل القائد المنهزم بعد المعركة ، أخذ يستعيد  
الحوادث ، ويستعرض آلامه واحدا بعد الآخر : زوجته  
المحطية التي قضى عليها الحزن ، وابنته فيليبس التي وهبت  
نفسها له ، وابنه الأكبر هوبر — خير أبنائه — الذي ذوى في  
بيعة الشباب بعيدا عن فرنسا ، ويعيسدا عن ذويه ..  
وجيرمين التي هجرت مسقط رأسها ، ومرجريت التي قدر  
عليها أن تظل بلا زواج لفقرها ، ثم .. ها هو ذا آخر سليل  
لال روكتيار ، الذي يتوقف عليه مستقبل الأسرة ومصيرها ،  
ملقى في غياهب السجن بتهمة مشينة ، ومهدد بأن يدان ..  
حتى بعد التضحية بهذا الميراث ! وأحس السيد روكتيار بأن  
المستين عابا التي انتقها في خدمة الأسرة قد ذهبت كلها عينا !  
لقد انخرط عقد الأسرة بعد أن اثقل كاهليها وزر فرد واحد من  
أفرادها ، فتهالك عند اقدام الضيعة كالجذوع المقطوعة  
التي عاصت في الجليد . أما هو ، الذي كانت قوته وإيمانه  
الراسخان يفيانه بالنصر ، فقد دب إلى نفسه الشعور  
بهوان الهزيمة !

وإذ أحس بعزمته تخور ،

وكانها رقيق له في انبساط . وأرسل تأوها طويلا حزينا ، كأنين  
الشجرة التي تترنح حجارة تحت ضربات الفأس المتوالية ،  
وتشرع في السقوط : وخيل إليه أن السماء والأرض اللتين  
لفتهما ألوان هادئة - ثابتة : لم تعودا تصفيان إلى شكاته ،  
فأحس بأنه وحيد . لا حول له ولا سند . . . وانحدرت على  
خديه دمعتان من دموع الرجال الضنينة ، الفادرة . التي تفتت  
القلوب لأنها تتطوى على اعتراف بالذلة والضعف . . . وراحت  
الدمعتان تنسابان على بشرته في ببطء وهما نصف متجمدتين  
بسبب البرد !

ولم يدر بخذه أنه كان يبكي ! لم يفعل إلى ذلك إلا حين لمع  
شخصا يتسلق السطح بدوره ، فيأدر إلى تجفيف عينيه لكي  
لا يفلجا وهو في قبضة الألم ! وكان الشكل الأسود لامرأة عجوز  
انهيكت في جمع الحطب اليابس وحزمه . ولم تره لأنها  
كانت منحنية على الأرض البيضاء ، فلما أصبحت قريبة من  
الشجرة ، نصبت قامتها قليلا « فأذا بها تراه . وتمتمت قائلة :  
« السيد غرائسوا ! » . فتمتم بدوره : « لاغوشوا ! » . .  
وبنت منه . ثم وضعت حملها على الأرض ، وراحت تبحث  
عن شيء تقوله ، ولكنها لم توفق إلى شيء ، فأخذت تفتحب . .  
ولم يكن تحييا صامنا . بل كان عاليا مدويا . فسألتها : « لم  
تبيكين ؟ » . فأجابته : « أبكي لما حل بك يا سيدي ؟ » .

— لما حل بي ؟! — أجل !

ولم يكن قد باح بالآلهة لأحد ، كما أن عزة نفسه كانت تنأى  
به عن مواطن الرثاء ، ومع ذلك فإنه تقبل رثاء العجوز لحاله ،  
تبسط إليها يده متمسكًا : « وهل علمت يوما حل بي من



وإذا أحس بعزيمته تقوى ، استند إلى شجرة البلوط .

مصائب ؟ » . فاجابت : « نعم يا سيد فرانسوا » .. فعاد يسألها : « وبالمصائب الأخير ؟ » .

— اجل . علمت به من شخص من اهالى ( سان كاسان ) اقدم من البلدة فى هذا الصباح .

وصمت الاثنان ؛ ثم عادت لافوشوا تجهش بالبكاء — بالصمت فى اوقات الأسى لا يوائم الطبايع التى ما تزال على الفطرة ! — ثم اخذت تقول : « لقد كان السيد هوبير موغور الصحة ؛ شابا . ظريفا مع الجميع . وكان يأتى إلى المطبخ ليلقى نخلرة على الاطباق ويمزج معنا ! والسيدة ! لقد كانت السيدة قديسة من قديسات الله ! كل هذه حسنات نجنيها فى النساء ! » . وظل السيد روكفيار صامتا . جامدا . يحسد الاموات على راحتهم فى القبور . بينما استأنفت لافوشوا : « والسيد موريس .. هل يردونه إليك ؟ » .. واردفت بصوت منخفض مشوب بذلك الخوف الذى يساور الناس إزاء القضاء : « إن بحاكمته غدا ! » . وراها تهتل إلى الله . تسأله عونه القدسي . وتذكر — عن غير قصد — أن ابنة تلك المرأة كانت قد سجنّت لأنها اتهمت بالسرقة ، فسألها عن أخبارها فى تلعف — إذ أن نفسها المهبطه لم تعد تعرف الاصدقاء : « وابنتك .. الديك انباء طيبة عنها ؟ » . فاجابته العجوز : « لقد عادت لى يا سيد فرانسوا » .. وإذ ذاك قال روكفيار : « لقد أحسنت صنعا ! » .

— آه ! ليس لها فضل فى ذلك . وإنما دفعتمنا الحاجة إلى العودة .. لقد جاءت من ليون فى أشد حالات المرض . ولم يزل شفاؤها مستعصيا .

— وماذا بها ؟ — الآثار المترتبة على الوضع ؟

فتفت. فى دهشة : « الوضع ؟ .. وهل هى تزوجت ؟ » . فاجابت : « لا يا سيد فرانسوا ، ولكنها رزقت بطفل .. طفل صغير . حبيب . منعم بالحياة ، لا يكف عن الحركة طوال النهار . وما كنت راغبة فى أن أرى هذا الملاك ، يذافع من الخزي والعار كما تدرك .. ولكنى حين نظرت إليه ، وجدته يستميل قلبي باقتسامه صغيرة .. وقد أصبح بهجتى الوحيدة ! » .. فسألها : « أمى بنت ؟ » . ولكنها صاحت : « بنت لا .. أحسبك تريد أن تقول إنه ولد .. ولد بسمين منعم بالصحة ! » .. فقال الشيخ : « إنه عبء ثقيل على عاتقك ! » . — بكل تأكيد . على أننى حين أعود إلى المنزل فأنصر الطفل وهو يمتص « بزازته » ، أشعر بأن لمرآه تأثير كوب من عصير كرومك ، إذ يبعث فى كيائى حرارة وامتنساغة للحياة ! — ولكنك اكتملت ولم يعد فى إمكانك أن تعملى . — بل إننى لا أصلح لغير العمل !

وهكذا ، كانت تستمد العزاء من اليأس ذاته ! كما كان الشقاء فى أيامها الأخيرة يبعث متعة ضافية لها ! وأعجب السيد روكفيار — الذى شغل بالفصمة عن همومه — بالمرأة البائسة التى ضربت له المثل فى الصفع والشجاعة دون أن تفطن ! وانحنت المرأة لترفع حزمته إلى كتفها ، وقالت : « إلى اللقاء يا سيد فرانسوا » . فسألها : « إلى أين تذهبين ؟ » . فاجابت : « إلى كونيان ، لأدفع بحشئى إلى الخبز » . فقال : « انتصرى ! » .. وأراد أن ينقحها بقطعة من ذات الخمسة

فرنكات ، مشاركة منه في يؤسها ، ولكنها أبت . فقال ملحا :  
« يجب ان تأخذوها ! » .

— إن مزرعة البرج لم تعد الآن ملكا لك يا سيد فرانسوا ،  
علي ما يقولون .

فعمس المحامي وقال : « لا ، لم تعد مزرعة البرج ملكا لي ،  
ومع ذلك فخذى هذه النقود .. ان هذا سيجلب الحظ  
لي ! » . وأدركت ان الرفض يجرح كبرياءه ، فبسطت يدها .

وهبطت المعجوز التل وهي تميل على سابقها في كل خطوة ،  
حتى لا تزال قدمها . وظل السيد روكيار يربقها وهي  
تتصاعل ، حتى لم بعد أكثر من نقطة سوداء في قاع سهل ..  
والتي نمسه وحيدا ، ولكنه كان قد تغير .. فان هذه البائسة  
ردت إليه ما كان قد قدمه إليه في حصاد الكروم — في العام  
الماضي — من تشجيع وشحن للهبه ، مضاعفا مائة مرة !

وكان الليل قد أرخى سدوله في تلك الاثناء ، فاذا به يشع  
في الطبيعة الساكنة — وكأنها قد تحدث بفعل الجليد — تلك  
المهابة الخاشعة الغامضة التي تسبق احضار النهار . وبدت  
حواف الجبال وكأنها ذابت وامتزجت بحافة السماء الشاحبة  
.. ولم تك ثمة نائمة تعكر الهدوء الذي كان أعمق تأثيرا على  
النفس من عاصفة هوجاء !

وكان الجدول الصغير يجرى في أسفل الفل صابنا ، تحت  
طبقة رقيقة من الجليد تقنت ثم تكونت من جديد . أما الأرض  
ذات الصبغة الشاملة ، فقد بدت ملتفة في غلاتها الناصعة

كحلية وسطح قطن مندوف .. وتأمل السيد روكيار المزرعة  
المهجورة . التي فجعت في السلالة التي ذلتها وملكت زمامها .  
ناجته المنظر وسحر ليه .. لقد أيقظت «الافوشوا» في نفسه  
غريزة الكناح . وباعدت بينه وبين اليأس . فحنى رئيس  
الأمرة المه جانبها . ليفكر في الابن الذي كان معنيا به . وراح  
يبحث عن وسيلة لإنقاذه . ولكن بسره — الذي تطلع وكأنه  
يضرع إلى السماء ! — اصطدم بذلك الغلاف البارد القاسي  
الذي كان يلف الغضاء .. وإذا الأرض صابئة ، لا تنطق بها  
اعتادت أن تثبى به من تعاقب غصول الحياة .. ترى كيف  
يدافع عن ابنه متسلحا بالمساضى وحده .. وأى عون ينتظره  
من الأرض المهجورة . ومن السلالة التي غيبتها الثرى ..؟  
وباعلى صوته . راح يردد الكلمات التي قالها له السيد  
باسنار . وهو يثبته بان المتهم رفض كل مناقشة للاتهام :  
« إن الإنسان لا يتذرع بالموتى في دفاعه ! » .

ورمت الشمس — التي كانت تمس ذرى الجبال — آخر  
شعاع من نورها . فبدأ الجليد المتراكم في منحدرات الجبسال  
وكانه ينفص تحت وهجا من نعال كان يحتويه .. وأخيرا ..  
دبت الحياة في الأفق الساكن بفعل هذا الضوء ، فاذا به — في  
منته وصفائه — يحس بالحياة ويعكسها . وانفصلت الأرض  
المرتمشة عن السماء التي كانت زرقتها الشاحبة تصطبغ بالآلاف  
الظلال التي كان يغلب عليها اللون الذهبي . وكان الصنيع  
الذي جلال الأشجار والغايات القوية يعكس أشعة الشمس  
الآتلة ، كذلك العدسات البلورية التي اعلمها الثريات

ارتفاعه . في الجانب المواجه له ، تحصن احتلته سلسلة من أسلانه الذين زرعوا في هذا الركن من الأرض تقاليد الأمانة والشرف والشجاعة والنبل . مع ما زرعوا من قمح وشعير وبساتين وكروم . . وكما كان لمحاصيل هذه الأرض صيت طبق الأماقي . كذلك كانت تلك التقاليد تنسطع على البلدة القابعة في أحضان الجبال . والتي بدأ الظلام يزحف نحوها . وعلى الإقليم الذي أدت له أجل الخدمات ، وبسطت عليها حماها ، ورفعت من شأنه في بعض فترات تاريخية . . بل لقد امتد أثر تلك التقاليد إلى الوطن الذي كان يستمد قوته من استتار تيام أمثال هذه الأسر . ومن عراققتها وصلابة كيائها . .

وعاد السيد روكفيار يردد مرة أخرى : « أن الإنسان لا يتذرع بالموثى في دفاعه ! » ، ولكنه أرفف في الحال : « لا . ليس بالموثى . وإنما بالأحياء . . وأنهم لحاضرون جميعا . لا يتخلف واحد منهم عن تنبيه النداء . . لقد فتحت الأرض صدرها لتسمح لهم بالخروج . . ولسوف اجتاز هذا الوادي الضيق الذي يفصل بيننا . . غانا مشوق للانضمام إليهم ! » . . وأخذ يسير عمق الوادي الضيق المعتم ، وكأنها احتشدت أطراف أسلانه جميعا فيه ! . . وزحف الظلام على الطبيعة . فاحتوى السهل بأكمله . وراح يصعد والجبال نحاول أن تصده . لا سيما جبل (تيفوليه) ذو السفح المقسم إلى طبقات ، والذي كان يقف في وجه الغرب ، ومن ثم انصب عليه لهب الشمس القارية المشتعلة : نيدا ما كان يكسوه من جلد أرجواني وينفسجى كأنه يشع وهجا كذلك الذي ينبعث من معدن ينصهر :

لتسلطها على بقعة صغيرة . . وكان السيد روكفيار - وقد ثبت عينيه على المزرعة - يكمل المنظر الذي كان يمثل البعث ! . . وارتدت الحياة للطبيعة بضغ لحظات ، تحت لمسات المساء . نأذا الدم يجري من حديد في وجهها المرمى . وعلى طول الكروم القائبة على قمة الهضبة التي كانت بقايا أشعة الشمس تمتد إليها في خطوط انقبة ، لم يعد المالك - الذي فقد ملكيته - يرى الأرض في لونها الأبيض الذي لا يتغير ، وإنما استطاع أن يلم بحركات التربة التي ذكرته بتعاقب المواسم الزراعية : نغا على ذى الأشجار المتناثرة هنا وهناك . . أشجار الجور الوادعة . الباسقة « الزهوة » ، وأشجار النخيل الفارعة المستقيمة ، وأشجار الزيزفون ذات الأغصان الموارفة . والسندس النحيل ، والكستناء المتكاثفة . وشجيرات الفاتحة الرقيقة المعود . ذات الأغصان التي كانت - برغم رققتها ولينها - ماهرة في حمل ثمارها . . وإذا هذه الأشجار التي كانت تبدو منذ لحظة : متشابهة مخططة ، قد انقلب تظفر بالحياة وكأنها أشخاص ! ولم يعد الشيخ يشعر بالوحدة ، إذ كان يعرف هذه الأطراف واحدا واحدا . وتضاربت الانفعالات في نفسه وهو يذكر الأجيال المتعاقبة التي استصلحت هذه الأراضي ، وشيدت هذا المنزل الريفي ، وهذه المباني الخلوية . وتلك المزرعة ، وأسست هذه الضيعة ، منذ عرف أول ثوب لبسه أقدم فلاح من آل روكفيار عليها ، إلى ذلك الزى التقليدي الذي كان يرتديه أعضاء مجلس الشيوخ - منهم - عن دائرة (سانوا) ، إلى رداء المحاماة ! . . كانت الهضبة التي قامت إلى مثل

وأخذ السيد روكنيار يتتبع معركة الغروب ، وهو يطل من أعلى التل .. وإذا بكل كيانه ينتفض ! فقد لمح عجاة الأطياف تصعد مع ذلال الغروب .. كل الأطياف ارتفعت مفادرة المزرعة ، في طريقها إليه ! .. كانت نفس الأطياف التي تمثلها منذ لحظة متجمعة في الوادي الضيق ، وكأنها خفت إليه لتشرعه بوجودها ، وبعنونها ، وبولائها ! .. وانتشرت على جميع الدروب ، فكانها جيش يحتشد حول قائده الواقف على قدميه عند أسفل شجرة البلوط . حتى إذا التام شمل الجيش - سمعه يناديه طالبا منه أن يقوده إلى النصر : « لقد علمنا - واحبيننا ، وكافحننا ، وتألما » لا لهدف شخصي فحسب - ولا لغرض تحقق أو لم يتحقق لكل منا ، وإنما لغاية أبقى على الزمن منا .. هي الأسرة .. ولقد منحناك كل ما جمعناه للصالح المشترك ، حتى تسلمه بدورك إن يليك .. وليست المزرعة هي الذخر المتوارث ، فما المزرعة سوى أرض تقتنى بالعمق والذباب المنظم ، وإنما الذخر هو روح سلائقنا التي تحملها بين جنبيك ، وأنا لأنوقت من تلك قادر على الذود عنها . ما الذي قلته في ياسك عن الوحدة والموت ؟ .. الوحدة ! إلا احص عددا ثم نبينا : من أين انحدرت ؟ .. الموت ؟ إن الأسرة تقيض الموت ، وما دمت تحيا فنحن جميعا أحياء - ولنسوف تبعث إذا ما لحقت بنا ، إذ أن حيواتك تتجدد في تربتك . انظر : هاتنح أولاء جميعا حضور ، في هذه اللحظة الحاسمة . فارفع عنك آلامك كما رفعنا نحن الحجر عن أروامنا . واعلم

انك أنت الذي اختص بشرف الدفاع ، وبإنقاذ آخر سلاله روكنيار . لنسوف نتكلم باسمنا « وفي وسعك - بعد أن تتم رسالتك - أن تلحق بنا في سلام الله .. » .

وانك السيد روكنيار على شجر البلوط بيده . وكان الظلام قد أحاط بجيل ( نيفوليه ) الذي قام على أعلى طبقات سفحه صليب أخذ يتوهج قبل أن ينطفئ ، كشمع الشمس المنحدرة للغييب .. وإذا ذاك ، استشعر الشيخ طمأنينة عارمة ، وتقبل الرسالة التي عهد الماضي بها إليه « وهفت لنفسه : « أنا الذي ساتولى الدفاع عنك يا موريس .. ولن أذكر قط اسم مدام فرازن ! » .. وعندما ابتعد عن الشجرة « أخذ يتأمل المكان الذي هم بأن يغادره ، وقال لنفسه : « هنا ، ساتشيد البناء من جديد .. أنا أو ابني ! » .

## ٥ - خطبة مرجريت

روغ موريس موت هوير وحطم الكبرياء التي كانت تعزله عن الأسرة . وانصرفت مرجريت من السجن ، بعد أن أطلعتة على النبا المحزن ، فسارت في الشارع لا تكاد تبصر شيئا ، إذ أبطقت أحزانها عليها . وما أن بلغت باب الدار ، حتى سألت خادما : « هل عاد السيد ؟ » .. كانت متلهفة إلى شد أزر أبيها ، بعد أن شددت أزر أخيها ، وهي تقاوم العذاب النفسي بتلك القوة المألوفة لدى النساء أكثر مما هي لدى الرجال ، والتي تدعو إلى التسريفة عن الغير ، بدلا من الاستسلام للأحزان !

وكان الجواب الذى تلقته من الخادم : « لا ، لم يعد بعد يا آنسة » . فهتفت فى دهشة وقلق : « لم يعد بعد ؟ » . . . كانت قد مكثت فى السجن وقتا طويلا ، وها قد حل المساء ، ولم يكن السيد روكفيلار قد غادر الدار إلا لنزهة قصيرة ، إذ كان يتوقع أن يزوره السيدان هاميل وباستار فى الساعة الخامسة ، ليستعرض معهما آخر وجهات النظر غيبا يتعلق بجلسة الغد . ومن ثم فقد كان غيابه الطويل - فى ظروف كهذه - أمرا غريبا ! . . وقالت الخادم مستطودة : « ولكن فى قاعة الاستقبال سيذا يبنى مقابلة الآنسة » . فتساءلت مرجريت : « مقابلتى أنا ؟ » . فأجاب الخادم : « أجل يا آنسة » . فعانت الفتاة تسالها : « ومن يكون ؟ » .

— لقد ذكر لى اسمه ، ولكنى لا أذكره . . إنه طبيب .

وكانت الخادم رفيعة لم تتأقلم بعد ، ولم تألف وجوه أهل البلدة واسماءهم . فقالت لها مرجريت فى تأنيب : « ما كان ينبغي استقباله يا ميلانى ، فى يوم كهذا » . فأجاب الخادم : « هو ذلك يا آنسة ، وما نسبت هذا ، ولكنه أبى أن ينصرف إذ جاء فى مهمة خاصة للآنسة ! » .

ودخلت مرجريت قاعة الاستقبال وهى كارهسة ، وقد استقبلت قبعتها وقتاع الحداد ، لتتعجل رحيل هذا الفضولى ، وإذا بها تجد نفسها وجهها لوجه أمام ريمون بيرسى ، الذى تمتم مقلعها فى اضطراب وكأنه يتنادى : « يا آنسة » . . . وتقهقرت مرجريت فى حركة أدرك لفوره مغزاها « نهتف فى توسل محاولا استنباها : « اغترى لى مجيئى يا آنسة

مرجريت . . لقد علمت مساء أمس بمصائبكم ، ومن ثم . . » . فتقدمت منه قائلة : « سيدى ! » ، ودفعته هذه الكلمة وحدها - بما تجلى فيها من حزم - بعيدا ، ومنعته من مواساتها ! فقد كانت مرجريت تكره الرثاء ، مثل أبيها ، وأرتج القول على خطيبها السابق « فطاما رأسه ، لانذا بالصمت . وإذ ذلك قالت ، وقد لانت بعض الشيء : « لماذا أصر السيد على مقابلتى . . اليوم ؟ » . فتطلع إليها مبتهلا فى ضراعة ، وقال فى أسى : « لأننى ساكون جدي متأخر ، لو انتظرت إلى غد » .

— جيد متأخر ؟ غدا ؟ . . لديك أمر تريد أن تفضى به إلى ؟ . . أهو بشأن موريس ؟

كانت قد نسيت نفسها ، فلم يخطر لها انها المعنية بالزيارة . أو لم تقطع كل رابطة بينها وبين ريمون منذ عام . . منذ اليوم الذى لم تحجم فيه عن فسخ خطبتها - فى دار مدام بيرسى - دفاعا عن كرامة اسمها ؟ . . ولم يدع الشاب قط ليستعيد حبها ويدها . ثم تتابع الحوادث كالعاصفة : بلاغ السيد نرازن ، وموت مدام روكفيلار ، وصدر الحكم على موريس غيابيا ، وهوان الأسرة وخرابها ، ثم . . آخر ويلات القدر : فقدان الأب الأكبر ، الذى كان مدخلا للمستقبل . كانت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لم تدع للشباب مبررا فى هجره ، ونياه ، ونسيانه . ولكن « ليس من خصائص اليأس أنه يوسع البؤس بين الناس » . . لقد استنزفت مرجريت - فى وحدتها - دمعها ، وتجرعت أسقامها ، ووجدتها المارة

دون ان يقاسمها احد . قباى حق يأتى الآن هذا الشاب  
فيفرض وجوده غير المجدى ، وعطشه المتأخر ؟ لابد ان ثمة  
سببا آخر دفعه إلى هذه الخطوة . ولعله يعرف شيئا يفيد  
الدفاع عن المتهم . ومن أجل هذا الغرض ، وهذا الغرض  
وحده ، تلتمس له العذر في اقتحامه الباب ، ودخوله المنزل !  
على ان الشاب لم يتعجل الإنصاح ، وكان من الواضح انه  
كان يعانى اضطرابا عيقا طاغيا .

وقالت مرجريت اخيرا : « تكلم يا سيدى » . ناجاب : « ان  
الامر لا يتعلق بورييس » . وتساءلت وهى تتقدم منه خطوة :  
« إذن ؟ » . ثم رفعت القناع الذى كان يعوق حركاتها  
ويحجب وجهها . وبدت له فى اقترابها — وقد شددت قامتها  
وعضلاتها — كما لو كانت قد ازدادت بعدا عنه ! وبين الثوب  
الأسود والشعر الأسود ، لاح وجهها شديد الامتناع ، وعيناها  
ذابلتين ، وشفتاها رقيقتين كأنهما مجرد خط أحمر ! .. وجلس  
الشباب جموعا — لفرط إحساسه بأنها بعيدة ، حزينه ،  
ولخوفه من ان يعجز عن إلتاة قلبها ، وقلبه إلى أن يبرى  
عنها بضائه الفياض — واستجمع كل شجاعته ، وشرع فى  
الكلام متلعثما ، ثم راح صوته بقوى رويدا : « الا انصنى لى  
با أنسة .. يجب ان تصفى إلى ، ولن تلبث ان تنهينى وان  
تصفى عنى .. لابد لى من ان اتحدث إليك اليوم ! .. اننى  
احترمك ولك واحس به .. أرجوك ، لا تقاطعنى ! ليس  
بوسعك أن تنهينى من ان احس باليك ، فاننى اتعذب — أنا  
الآخر — منذ ذاك اليوم .. وإن عذابى ليجعلنى أكثر إدراكا

لالام الغير . لقد أحبتك . آه ! لا تقطعى على الحديث ..  
دعنى أفرغ ما فى جعبتى ! أجل . لقد أحبتك ، ولم أكن أتصور  
مستقبلى إلا فى قريك . ولكننى صادفت من أمرتى مقسومة  
شديدة ، وعراقل بالغة . بسبب .. بسبب أخيك ! فان امى  
— وإن كانت طيبة فى قرارة نفسها — تصفى إلى أقاويل  
الناس . ولأبى يفكر فى مستقبلى ! إنه من رجال العلم . أما  
لا يعيش إلا بين جدران مكتبه . أو إلى جوار مرضاه . أما  
البيت ، فلا سلطان له عليه ! .. وأنا .. آه ، لا .. لست  
أبغى أن أمضى فى اتهام الآخرين ، لكى أخفف من ذنبى . لقد  
كنت جباناً ، خسيساً .. ولكننى نلت عقابى ، وإذا كنت لم  
ادافع عنك . فما ذك إلا لأننى لم أكن أعرف كيف ادافع  
عنك .. » .

وأومات عدة مرات تحاول أن تقاطعه « وقد وقفت منتصية  
القائمة . فى رفح غير متعمد ، فكشفت بجلاء عن ذلك الإساءة  
الذى فطر عليه آل روكمبار ، والذى اكسبهم كثيرا من الأعداء !  
وكانت فى تلك الأثناء تؤدبه بنظرة حزينة من عينيها الغروفتين ،  
وبذلك الجلاء الفاض الذى ورثه عن أمها . وما لبثت أن  
أجابته ببساطة : « ولكننى لم أطلب إليك أن تدافع عنى ! » .  
فقال متلعثما : « هذا صحيح يا مرجريت .. . وتنى فى  
اضطرابه الاسلوب المكلف ، فناداها باسمها مجردا ، كما اعتاد  
أن يفعل عندما كان خطيبا لها — من قبل — ثم استطرد : « بل  
إننى نعتت عليك ازديادك لى ! .. » . فقالت : « لست أذكرى  
أحدا يا سيدى ! » .



— بل إنك طمعتني طمعة تجلاء بنظرك القاسية في ذلك اليوم الذي أعفيتني فيه من عهودي .. ما كان أشد قسوتك !

نهفت بصوت محتبس : « أنا .. قاسية » . وقدرت الا جدوى من الرد ، ولكنها ثارت في أعماقها على هذا الظلم . بينما قال الشاب : « أجل ، بما كنت أفهم حتى ذلك الوقت قيمة اعتزاز المرء بكرامته في المحن . لقد لعنتك ، ولكن قلبي كان يتحطم ! .. كنت أتبهك بدلا من أن اعترف بتفاهة هواجسي وشكوكي ، وبافتقاري إلى الرأي السليم . على أنني تغيرت كثيرا ، وأقسم لك ! .. إنني الآن معجب بك ، وأمجدك ، بل أعبدك .. أجل ! لا تتكلم . دعيني أتم حديثي ! لقد حاولت أن أسلوك ، وأراد والداي أن يزوجاني من فتاة أخرى ويطمئنا على استقراري ، كما يقولان . ولكنني لم أستطع .. لست أحب ، ولست أملك أن أحب سواك ! » . نهفت : « أرجوك يا سيدي .. ولكنه مضي في حديثه : « إذا كان ثمة قدر من الخير أستطيع أن أفعله ، فأنت مصدره . سأسو بنفسى إلى مستواك رويدا . إن الرجال الذين على شاكلتى — بل كل الرجال ! — يتأرجحون بين الخير والشر ، وبين الوفاء والآنانية .. وليس يجول بخاطرهم أنهم مدفوعون بكل ما في الحياة من سفاسف ! على أنهم قد يصانفون أحيانا حائزا واحدا يرقع من شأنهم .. ولقد دنى حبك بهذا الحافز ! » .

وتوقف عن الكلام مترقبا كلمة تبعث في نفسه الأمل .. فغضت مرجريت بصرها « وتركت القناع يتبدل على جانب وجهها ملقيا عليه شيئا من الظلام . وعاد ربهون يتمتم :

« مرجريت .. ردى على عهدك » وأقبل أن تكونى زوجتى ! .. إبنى أهواك ، وإن حبى ليزداد لما أنت فيه من الآم ! .. وراها ترتجف ، ولكنها أجابت في غير تردد : « هذا مستحيل ، فلا تطلبه منى ! » . وصدمه هذا الرفض لأنه صدر في وقت كانت تساوره فيه بقية من غرور توسوس له بما في خطوته من كرم وشهامة .. ومن ثم انفطت منه صيحة كمصحة اليائس المنداعى ، وهتف متأوها : « إن هذا جماع هنائي ، فكيف يريديتنى على الا اطلبه منك ؟ » . ولأنت على الفور ، فاكسب صونها رقة حديدة ، وقالت : « ستمنحك امرأة أخرى هذا الهناء . إننى مؤقتة من هذا ، وأرجوه لك ! » .

— لست أرى في الدنيا امرأة سواك !

— لا ، لا .. هذا مستحيل ، فلا تعذبني !

— مستحيل ! ولماذا يا مرجريت ؟ لماذا تطبلين من عزيمتى ؟ إنك لا تحبيننى ! .. على أنى قد أفلح يوما أن أجعلك تحبيننى ، فهل ما زلت ترفضين ؟ .. آواه ! يا إلهى ! .. اتبذنينى بغير سبب !

ولاح أنها تبحث عن مخرج ، فترددت ، ولكنه كان يرتقب ردها في لوفة . وأخيرا قالت : « إننى لم أعد تلك الفتاة التي كنتها في العام الماضي » . فقال في حيرة : « لست أفقه ما تقولين » .. وإذا ذاك قالت : « لم أعد أملك صداقا » . نهتف : « أهذا هو السبب ؟ .. إننى لا أستحق منك هذه المعاملة يا مرجريت . أن في نفسك — في عينيك — شعاعا يسطع كأنه صفاء الحياة ! .. إننى حين أنظر إليك أحس بالانجذاب نحو

في نفسى ، وبالرغبة في الخير ، وباحتقار ونسيان جميع الرغبات  
الحقيرة القائمة على الماديات ! غنية قيمة للثروة إذا قيست  
بهذا الذي تمنحني ، والذي يبيث في التوبة ! » فقالت  
بتمائلة « وإذا حدث غدا .. » ، فلها أمسكت عن إتمام  
قولها ، رددت التساؤل : « وإذا حدث غدا ؟ » .

— إذا حدث ان ميتنا غدا بكارثة افدح .. إذا حدث ان  
قضى غدا بإدانة مورييس !

— إنما جئت اليوم بدافع من هذا الخطر المحدق .. جئت  
انشد شرف الموقف إلى جانب أهلك في محكمة الجنائيات غدا ،  
كأبى له .. ولهذا كان لابد لى من ان أتبلبك اليوم ! » .

تمتبت : « آه ! » .. وأدرك من دهشتها ان كل ما كانت  
تبدية له من عدم اكتراث قد تبدد أخيراً .. وتبين أمارات  
المعطف والمرغان — وربما التقدير أيضاً — على ذلك الوجه  
الشاحب الذي كان يقرأ عليه كل ما كان يتقلبها من مشاعر ..  
فترامت له السعادة : غير مؤكدة ، وغير سائرة ، ولكنها  
موجودة .. بهز وجودها فؤاده .. ودعيت مرجريت أملة حين  
مدت له يدها قائلة — في غير تخرج من ذكر اسمه كما اعتادت  
في الماضي أن تذكره : « أشكرك يا ريمون .. لكم أنا متأثرة ،  
أعني التأثر ! » . ولكن هذا لم يكن القول الذي توقعه الشاب ،  
فأخذ يتألمها في ذهول مطلق ، موجس . حتى إذا لاذت بالصمت ،  
تتم في حياء : « نعيم الشكر ، ما دمت أحبك ؟ .. أحسب ان  
هذا الحب أعظم قيمة من أى شئ آخر » .. ثم تلوه قائلاً :  
« مرجريت .. ألا تودين أن تصبحي زوجتى ؟ » .

وقرأ على وجهها الشاحب أمارات الحنان والامسى . ولكنها  
تالت : « ريمون .. إننى لا أستطيع » ، فهتف : « لا تستطيعين؟  
إن .. إذن فأنت تحبين شخصاً آخر » . فتأوت قائلة :  
« آه - يا صديقى ! » .

— نعم « أنك تحبين شخصاً آخر .. شخصاً لم يكن جباناً  
مطلقاً ، أدرك ما تطوى عليه نفسك ، ففهمك ، واستحقك ..  
بينما فقدت أنا هنائى بخطئى .. هذا عدل ، ولكن وقعته اليم  
على من يحب !

وانساب دمه فمزق فؤادها . وقالت وهى تهتز انفعالا :  
« ريمون .. اتوسل إليك الا تكلمنى هكذا » . فقال : « لست  
أتهمك .. فانا المذنب .. كما ان هناءك أعمز على من هنائى ! »  
.. وإذ ذاك قالت وفي نفسها امر : « أصغ إلى يا ريمون ! » ..  
فتهاك فجأة على أحد المقاعد ، مضطجع النفس ، واحتوى  
رأسه بين راحتيه ، غير متخرج من البكاء . وبهركة سريعة ،  
رغمت مرجريت قبعتها ، كالمرضة التى تتخفف مما لا نفع له  
من ثيابها ، لتحسن أداء عملها . وتناولت يدي الشاب وأزاحتها  
عن وجهه بقوة ، وقالت « انظر إلى ! » .. وسيطرت على  
الموقف ، لا بطريقة أبهى الأمرة الصارمة ، وإنما في لطف رادع !  
ولم تحاول أن تتصنع شيئاً « أو أن تكتم شيئاً من مشاعرها ،  
أو أن تدافع عن مسلكتها » بل أقبأت عليه في بساطة بالغة !  
فاذا به يستسلم لتأثيرها ، ويطيحها بطريقة آلية . إذ أنه لم  
يكدر يرمقها حتى كف عن البكاء . ثم تبدلت أسرار وجهه  
الفتاة ، وأضاءتها النظرات المنيرة من أعماق نفسها ، نهدت

كالهالة التي تحف بأولئك الذين وقفوا إلى الطمأنينة بعد الاضطرابات والانفعالات .. وكساحا - وهي حية ! - ذلك الوقار الصافي الذي يكسو وجوه الاموات ، فتلاشي كل اثر للالام من وجهها المشاحب وعينيها الذابلتين ، وتولاهما هدوء عميق راسخ « يكاد يكون رهيبا ! .. وصاح الشاب في لوعة ولهنة ، كمن يستوقف رفقا يوشك أن يتردى في حاوية : « مرجريت ، ماذا بك ؟ » .. ولكنها كررت قولها السابق : « اصنع إلى يا ريمون ! » . ثم اردفت : « أجل ، إننى احب شخصا آخر ! » . فصاح ملتمعا : « آه ! كنت أعرف هذا » .

.. احب شخصا آخر لا تستطيع أن تفار منه .. إننى لن أتزوج ، وإن أكون امرأة احد .. اسوف أسلك طريقا آخر .. ومع ذلك ، فأننى لم أوت العصمة التي تقينى من الشعور بالزهور إزاء الحديث الذى قلته لى منذ لحظة ! .. إننى ما زلت أتمسك بالكبرياء ، وهى من عيوب أسرنا .. ولكن توالى الخطوب علينا كان يتطلب منا أن نعتز بأنفسنا قليلا !

وارتسمت على فمها ابتسامة رفيقة ، لم تلبث أن تلاشت وكأنها استغقت أن تغير من طهر معالم هذه الأسارير الجادة . وعادت الفتاة تتكلم - بينما اعتصم الشاب بالصبر ، مستمسلا للقوة المناهضة التي كانت تتبعث منها : « لا ، لن أنسى أنك اخبرت الساعة التي تكاثفت على فمها اقصى الأحزان ، كى تمسود لى من جديد ! » .. فهتف ريمون كالطفل : « إننى أحبك ! » .

— يجب أن تكف عن حبى يا ريمون ! .. لقد ليبت نداء

آخر سبق نداءك .. سأكشف لك عن سر لا يعلم به احد .. ولا أبى ، ولكننى لا أتردد فى أن أفضى به إليك « فاحفظه لى : لقد عاهدت الله - عندما نقدت أسمى - على أن أحل محلها فى بيتنا الذى اجتاحتها النوايب .

— أو لم تؤد هذه المهمة ؟

— إنها لم تتم بعد .

— وهل يمتك الزواج من إتهامها ؟ .. أئنا لن نفسادر شامبرى .

.. إن المرء لا يستطيع أن يوزع نفسه بين اثنين يا ريمون .. لقد نزلت عن سعادتى الشخصية ، وما أعظم القوة التي استثمرتها يوم نبذت هذه السعادة !

فوثب فى عنف ، وهتف محتجسا . « ولكن هذا جنون يا مرجريت .. ليس من حقك أن تفسى نفسك إلى هذا الحد . لسوف تعيشين بعد أببك ، ولسوف تبرا ساحة أخيك غدا « وسيعيد بناء صرح حياته بغيرك . أما انت ، فما الذى تصيرين إليه وانت وحيدة ؟ .. وما جدوى أن تضحى نفسك من أجل وساموس زائفة ؟ » .. فقالت : « لقد طعن أبى فى المصمم كما أن أخى مهدد بالخطر دائما . فلا تسلبنى جزءا من شجاعتى بقولك إننى ساكون عديمة الجدوى لهما ! » .. فكف ريمون عن الفضال ، إذ ساوره شعور داخلى اثارته أسارير مرجريت أكثر مما اثاره كلامها .. شعور أوحى إليه بالهزيمة . فتوكل إليها فى صوت حنون ، خجولا : « وإذا اضطربك ، فهل تصديننى ؟ .. إذا مكثت وغيا لك حتى تتم رسالتك الصائبة ،

فهل توافقين على العودة إلى ؟ .. إنني أحبك إلى الدرجة التي أفضل عندها الصبر ، حتى لا أفقدك .. ولسوف يكون الصبر قاسيا ومذبا في آن واحد . تهلا وافقت ؟ » .

إزاء هذا العرض المنطوي على شهامة وحب عارمين ، كتبت عينا الفتاة عن الوميض لحظة ، فظن ريمون - حين رأى تأثيرها - أنها أوشكت أن تلتين ، وعاوده أبل لم تلبث الكلمات الأولى من ردها أن بددته : « لا ياريمون .. لن أقبل قط أن أرمي أسس مستقبلتي على الآمك ! هذا مستحيل ! إنك لم تفهمني تماما ! لقد وهبت نفسي لله ، فلا تحاول أن تستردني ! » .

نصرخ الشاب في لوعة : « اواه يا مرجريت ! » .

- إن المرء إذ يهب نفسه لله ، نانبا يهبها لكل من يتعذب !  
- الآن فهمت .. إنك تريد أن تتخلى عن سلك الرهبنة ..  
- لست أدري بعد .. علي أن هناك طرقا كثيرة لخدمة الله .  
فلا تبح بها قلت لك لاي إنسان .. أتبكي ؟ .. لا تبكي يا ريمون .  
ليسكب الله عليك العزاء كما سكب على قلبي !

فهلكت : « لا .. لن أجسد العزاء مطلقا » .. وانحدرت دموعه وهو يسألها : « ما الذي تفتوين عمله ؟ » . فاجابت : « لسوف أساعد أبي ، ما بقي على قيد الحياة » .. ولسوف أساعد موريس إذا ما احتاج إلى . لقد عاهدت أبي على ذلك وهي على فراش الموت . وسأكرس قواي بعد ذلك لخدمة البنائسين والمشيوخ ، أو لرعاية الأيتام . وقد انشئ هنا مدرسة لبناء الفقراء .. لست أدري ، وليس يوسعى الآن أن أجزم ،

فلا داعي للتعجل « لأن الوقت لن يلبث أن يحين من تلقاء ذاته .. افلا ترى أنك الآن عليم بكل أسراري ؟ » .. فتمتم مثلا : « وأنا ؟ .. ما الذي قدولى ؟ .. أنك تفكرين في مواساة كل البنائسين وتسنينني ! » .. فهتفت ضارعة : « ريمون ! » .

- إنني أكثر تمسكا من جميع البنائسين . إنهم لم يعرفوا السعادة ، على الأقل ، أما أنا فاني ألقى بها من حالي !

- لا ، لا تنحصر علي ، فأنني لم أخلق للزواج ! .. لقد أنفرتني الله بذلك في شيء من التقسوة . أما أنت ، فإنه ولا بد قد أترك بإمرأة أخرى أكثر منى مقدرة على إسعادك .

- ما من امرأة تضارحك يا مرجريت .. إنك لست من أولئك اللاتي يمكن الاستعاضة عنهن بسواهن !

ونسلت الظلمة إلى غرفة الاستقبال مع مقدم المساء ، ولكن وجه الفتاة المشرق بالروحانية ظل محتفظا بضياؤه في هذا الظلام « ولو أن هذه الضياء لم تكد تقوى على أن تشيع الحياة في الصفاء الشاحب الذي كان يجلل ذاك الوجه ، حتى ليخشى المرء أن يحسن فيه - إذا مسسه - ببرودة الصخر ، بدلا من دفء الحياة ! .. وقالت مرجريت أخيرا : « إنك لن تلبث أن تنساني .. لابد من هذا » لاسيما وأنني أرغب فيه ! » . فتطلع إليها في تقاعس ، كمنائح يقابل قمة لا سبيل إلى بلوغها ، وقال : « لا سلطان لك على ذاكرتي » .. فقللت : « إذن ، فاذكرني في غير مرارة » ، كما تذكر اختا ماتت .

- لا يا مرجريت ، لا سبيل إلى أن أفكر دون مرارة .. لقد سموت بفكري وغزادي ، ثم تنسيتني من حالي !

وتأثرت لقوله ، فأجابته في لهجة جادة ، أو شكت أن تكون رهيبة : « إذا كنت قد أحبتني يا ريمون .. إذا كنت قد أحبتني حقا ، لمختني سرورا ساعيا بإحراكك أن رسالتني لن تكون عديمة الجدوى ، بالنسبة إليك أنت الآخر .. ولما وسعك أن تقتطع إزاء رفضي » لأنه يجب ألا يضيرك « فهو لا يستطيع أن يجسرح شعورك أو أن يحط من قدرك . يجب أن تكون ذكراى بلسم لحياك لا موردا لهلاكك . ذلك لأنني أحبتك يا صديقي ، وكنت أرقب في طمانينة اقتراب يوم زواجنا .. وما الطمانينة سوى هدوء النفس ، وأمان المستقبل . ولكن عاصفة غير متوقعة فرقت بيننا .. وسعت خلالها فداء الله ! .. فإذا كان الله قد شاء ألا أحمل السعادة إليك ، وإذا كان قد ابتلاك أنت الآخر ، فدعني اعتقد أن هذه التجربة بالذات خليفة بأن تقويك ، وترفع من شأنك » وتسمو بنفسك .. وإذا كنت أنا — على عيوبي ونقصي — قد ساعدت على السمو بك ، فلا تقل إنك ستهدى من حائق . لسوف أصلى كثيرا من أجلك ! »

ولما كانت مستغرقة في نجاحها ، فانها لم ترق وهو يجثو أمامها ببطء ، ولكنها أحسست بشفتيه على يدها ، فهتفت : « ماذا تفعل يا ريمون ! ألا انهض .. أرجوك ! » . ونظرت إليه وهو جاث عند قدميها ، وقد بهت لهذا الانهيار الجديد الذي أبداه أمامها . ولم تعد أساريره تتلوى لأقرب العذاب ، وإنما بدا وجهه وأجما حزينا ، في هدوء . فقد استولى عليه — دون شعور منه — ذلك الجلد ونلك المسكينة للذان نانا بشعان من إيمان الفتاة . وتمتم ريمون : « ما كنت أهلا

لك .. ولكنني أحبتك كل الحب ! » . فعادت تهيب به : « ألا انهض .. أرجوك ! » . وقال وهو ينهض : « ما من رجل جدير بك .. وهذا هو عزائي الأوحى ! »

وتمت التضحية « فشعرا بها كما لو كانت شيئا ماديا ملموسا ! وأخذوا إلى الميت : « دلفت الخادم — خلال هذا الميت الجائم ، المفعم بالحزن — إلى الغرفة التي سيطر عليها الظلام ، فوجدت عناء في تبين مخدومتها التي ذاب شكلها في العتمة . ونادتها قائلة : « يا آنسة ! » .

— ماذا جرى يا ميلاتي ؟

— لقد وصل السيدان .

فقال مرجريت : « آه ! وهل ادخلتهما مكتب السيد ؟ » . فاجابت الخادم : « أجل يا آنسة ! » . فعادت مرجريت تسألها : « أولم يصل السيد بعد ؟ » . وكان الجواب : « لا يا آنسة ! » .

— سألها أن ينتظرا بضع دقائق ، فإنه قادم !

وكان تأخر أبيها — دون ما مبرر — قد بدأ يشغلها ، فادرك ريمون يبرسي أن بالها قد نأى عنه . وهمس لنفسه : « أبطل هذه السرعة ؟ » .. لقد كان على الأقل يثبث نكرها وتليها عندما صدت حبه في رفق منسد لحظة .. حتى اللوعة التي بعثتها في نفسه « كان مدينا بها إليها » وكانت محببة إليه ، ما دامت مرجريت مبعثها ! .. ورمقتها بنظرة أخيرة ، وكأنه يقدر فداحة الخسارة التي منى بها ، ولكي يحقر شكلها في أعماق ذاكرته . ثم نادى الانصراف ، متمتما : « وداعا يا مرجريت ! » .

— وداعاً يا صديقي ! فاض بسلام .. لسوف أقرن  
اسمك باسماء أسرتي في صلاتي . أتريد أكثر من هذا !  
— شكراً .. لقد قام أمامي أهل عظيم ! ولكنني هدمته  
بنفسي !

فاجابت بصوتها الحازم : « إن الله — ولست أنا — هو  
الذي أراد ذلك .. فليحفظك الله ! » .. واتجنى لهما ، ثم  
انصرف . وما أن التفت نفسها وحيدة ، حتى اعتدت جيبها  
براحتها . ولكنها لم تلبث أن نهضت فسارت إلى مكتب أبيها  
حيث رجت الأستاذين هامل وياستار أن ينتظروا الشيخ  
بضع دقائق أخرى . وكان القلق يستبد بها شسيتاً فشيناً !  
فاعتزمت أن تخرج للبحث عن أبيها .. وفي تلك اللحظة سمعت  
صوت مفتاحه يدور في قفل الباب الخارجي ، فهرعت إليه  
قائلة : « أبى .. هانذا أخيراً ! » .. فحلف السيد روكنيار  
العرق الذي تقصد من جيبته برغم البرد ، لفرط إسرارعه في  
السير ، وسأله : « هل حضر السيدان يا مرجريت ! » .

— انهما ينتظرانك . — حسناً ، إني ذاهب إليهما .

ووفقاً وجهها لوجه في الردهة المضاءة . ولما كانا قد افترقا  
في تنوط وتداع نسى . فقد ادهشهما أن طالع كل على وجه  
الأخر نوعاً من سناء النفس بدد ما كان يعلو أرايرهما من  
حزن وخوف ! وأحسا بالهام روي متبعث عن الثقة : فقد  
كان الأب ينصت إلى نداء الماضي المنبعث من أجيال حقيقة  
.. وكانت الابنة تصفي إلى نداء الله !

## ٦ - الدفاع

ما أن ولج السيد روكنيار غرفه مكتبه مسرعاً ، حتى  
بادر زميله — اللذان كانا يتجادلان — إلى النهوض لملاقاته .  
ولم يقمألكا نفسيهما من الدهشة حين ألفيا — بدلاً من الرجل  
الذي هذه الأسى لوفاة ابنه — زميلهما روكنيار المهود ،  
الذي كان مرهوب الجانب في الحكمة ، وموضع الشورى في  
المسائل المعوية العاصنة ، لرجاحة حكمة وحزم قراراته ..  
والذي كانت شخصيته الطاغية تقابل — كنظرة الثاقبة —  
بالحرج والمضض .

وقال في سهولة اغنت عن الاعتذار : « لقد تركتكم  
تنتظران ! » . وكان السيد هامل — بتاج ششمه الأبيض —  
يقسماته الحادة ، وترنمه المتكلف بعض الشيء — يبدو في  
شكل وقور .. كما كان السيد باستار بطبيعته المرسلة على  
صدره ، ورأسه المائل إلى الخلف ، يفرض شخصيته ويحتل  
المصدرة في كل مكان .. ومع ذلك فقد بدا المحاميان — في  
حضرة السيد روكنيار — كما لو كانا في حضرة رئيس كان أولهما  
يتقبل رياسته عن طيب خاطر ، وكان الثاني يتقبلها على  
الرغم منه ! .. وفلاشي ما كانا يمتازان به من أمارات التفوق ،  
أمام أمارات أخرى لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها . وتتم  
النقيب الشيخ وهو يبسط يده إلى السيد روكنيار :  
« يا صديقي ! » .. بينما قال السيد باستار في تكلف :  
« يا زميلي العزيز ! » . وراحا بمعزياته : الأول في ود وتأثر ،  
والثاني في عبارات عادية ، فأجاب بهما بضمير بيده ،

تاطعا عليهما استمرسائهما : « اجل ، لم يبق لي غير ولد واحد .  
وهذا الولد سأنقذه .. اجل » أريد ان أنقذه ، وإليكما  
ما قررت . »

وكان هذا الاجتماع الأخير قد عقد بالذات بين المحامين  
الثلاثة ليتفقوا نهائيا على خطة الدفاع ، ماذا يواحد منهم يقرر  
بإثر رأى دون مشورة .. وهتف نقيب المحامين ، الذى أخذ  
بهذه الثقة وذلك الحزم : « آه ! » ، بينما رد السيد باستار  
فى شك ، وهو موزع بين احترام حداد رب الدار ، وبين  
اعتداده ببقية نفسه : « قررت » .

وفى هدوء ، وصوت رنان ، أباط السيد روكفيلار اللثام  
عن فكرته بكلمات قلائل : « ستساعدانى أنتما الاثنان .. فانا  
الذى سأولى المرافعة ! » .. فهتفا معا : « أنت لا ! » ..  
« أنت ! » .. وكانت إحدى الكلمتين بغممة بالدهشة ، والثانية  
حائلة بالغضب ، وحدث السيد هاميل فى رفيق الجهاد القديم  
سعينيه الخائبين اللتين كان يريق الحياة يرتعش فيهما وأهنا ،  
وإن ذلك محتفظا بصغائه .. فى حين تلقى المحامى الآخر فى  
استياء نيا إغفائه من المرافعة فى قضية حساسة ومدوية ..  
ونسى ظروف القضية والمصائب التى نالت من الأسرة واسلمتها  
إلى اليأس بعض الوقت ، لكن يقصر تفكيره على الانتصار الذى  
كان يرجوه لشخصه ، ثم انفرع منه بقسوة ! .. وقال السيد  
روكفيلار فى لهجة الاستاذ اللطيف الذى يعرف - برغم مجاملته -  
كيف يفرض إرادته : « اجل ، أنا ! .. سأطالب بانهى فى قوة  
ولسوف يرد إلى .. فما من أحد يكرها على أن ! »



ما إن وليج السيد ( روكفيلار ) غرفة مكتبه مسرعا . حتى يادر زميله - اللذان  
كان يتجادلان - إلى النهوض للاقته ..

أما وقد أملى إرادته ، وكأنها أمر ، وأعرب عن نوابه في الصراع ، فقد راح يعمل على استيقاظ حليفه - في شيء من الدبلوماسية - . فقد كان خبيراً في الجمع بين أسلوبيه الأمر وبين من قيادة الرجال . ولما كان موثقاً من معونة النقيب ، فقد ركز كل جهوده على السيد باستار ، الذي كان خليقاً بأن يتخلى عنه : « لسوف تحضران معا ، إذا أتني أعول عليكما . وإذا كنتَ تطلب أن أحل محلَكَ يا باستار ، فليس ذلك لأنني أقبس كفاعتي على كفاعتك ، وإنما لأن هناك أمورا يمكنني موقفي الخاص الأليم - كرب الأسرة - من أن أفسرها للمحلفين ! » .

— وما هي هذه الأشياء ؟

— وما هي هذه الاشياء ■

— إنها سر احتفظ به ، واستعمره غدا . وأنى لأعتقد اننى  
كفيل بإقتاعهم ببراءة ابنى ، دون أن أورد اسم مدام فرائز !  
— هل ستقوسل لذلك بزوال الضرر الذى وقع ؟  
— لا ، بل مباشرة ! — لمست أفقه شيئا .

سـ لسوف تسمع كل شيء . ومع ذلك ، فإذا شمعت بشئ:  
من الضعف في صوته أو كلامي ، وإذا كانت مراعاتي توحي  
إليك بالخوف من القتل ، فإني أعتمد كل الاعتداد على ما لك  
من خبرة عظيمة بالمحاكمات الجنائية ، وعلى ما لك من حضور  
بديهة عجيب .! إن وجود هؤلاء القضاة كتاب مفتوح بالنسبة  
لك ، كما أنك أفضل مني إلماما بالقضية ، وقد تأهبت لها .  
ولهذا فبوسعك أن تحصل محلي . وبهذه المبادأة سأشعر  
بأمتي قوى . . فهل أنت راغب في ذلك ؟

وأخذ المحامي - الذي أزيح بلماعة عن الدفاع - يبك لحبته برفق، وهو يخفي امتيائه وراء مظهر من عدم الاكتراث -

وقال : « وما الجدوى يا زميلي العزيز ؟ . إن معاونتي لك عديمة النفع ، فانت في غير حاجة إلى أحد ! . إنك لا تحجم عن الاضطلاع باسمى الاعباء واشقتها ، فاسمح لى بان اعتبر مهمتى منتهية ! » . وكان المتحدثان فى تلك الأثناء واقفين ، بينما جلس السيد هاميل فى ركن سجوار المفدأة ، يرقبهما بعينين زائغتين قليلا . دون أن يشترك فى الجدل . وما لبث الأستاذ روكسبار ان اقترب من زميله الذى كان يصغره سنا . فوضع يده على كتفه فى حركة تنم عن ود « وقال : « ابنى ادرك يا باستار اننى أسالك خدمة كبيرة . وإذا كنت اطلب شرف الدفاع بنفسى عن ابنى ، فافهم ان اسمى هو الذى اتنوى الدفاع عنه . وليست انكر قط الفرص التى تتيحها لنا كفاءةك ، ودرابك ، وللباقك النادرة . . ولكنك لو كنت فى موقفى لفعلت ما افعل . . فقدم لى هذا الدليل المبرر عن المحادثة وإلكار الذات ، والتقدير ايضا . إنك بذلك تثبت لى مدى إدراكك لكلامى . ارجوك ! » .

وظل السيد باسطار يتخلل شمر لحيته الطويل بأصابعه المضطربة وهو يوازن بين القبول والرفض ، واضعا نصب عينيه - في كل مرة - تقاليد الزمالة في الهيئة التي كانوا ينتمون إليها ، وكبرياءه الجريحة التي كان يجد عناء في وضعها في المراقبة الثانية . كان قد فرض خدماته فرضاً تقريبياً ، لا لإنقاذ موكله نحسب ؛ وإنما ليفتزع أيضاً نصراً شخصياً في مساحة مكتظة بالناس : متضمناً ولا شك خيرة القوم ، ولا سيما النساء اللواتك إلى سماع مرافعته !... وبدلاً من أن يقام له التوفيق واقفاً في مجده ممسطراً على الأرض ، يجده هؤلاء



القوم - صفوة المجتمع - جالسا ، وكأنه سكرتير للسيد  
روكنيار الغريم الخطير الذي طالما أصلاه بردوده اللاذعة في  
الجلسات . فهل يئبق به وضع مهين كهذا ؟ ثم أن  
حضوره الجلسة إن يكون مجددا ، فإن والد المتهم قد يكون  
- في غمرة تحصن بديع - واحما أو مخوعا في قوة الحجة  
التي وأنته فجأة ففتنته « والتي يقدم على إمالة اللتام عنها ..  
والتي خطرت له بإيحاء حزن قد يكون أو من من قوته المعنوية  
وقوته الذهنية معا ! .. إن هذه الحرارة المصطنعة التي تشيع  
الحياة فيه ، قد تخبو بين لحظة وأخرى ، ليحل محلها استيع  
أنواع الاتيهار . فكيف يأمل أو يتوقع القدرة على بذل جهد  
حيوي عنيف كذلك الذي تتطلبه مرافعة كهذه - أعدت في أمد  
قصير - من رجل هذه القدر .. رجل أفلس ! وانتزع منه  
ابنه الأكبر بقسوة في الليلة الماضية » ولكنه مع ذلك يريد أن  
يضلح بنفسه بعبء الدفاع عن آخر أبنائه وإنقاذه من إدانة  
مشفية . إن الأمر كان بعيدا عن المعقول ، ومن الخلق  
أن يفسر هذا القرار الجديد بأنه من وحى الانفعال الغامض  
المنبثق عن الآلام .. ومن ثم يجتر بالسيد باستار أن يكون  
على أهبة الاستعداد ، فقد يدعى إلى الدفاع في آخر لحظة ..  
هكذا توحى الحكمة ! .. وهذا ما يمليه عليه - دون نزاع -  
واجب العناية بالدفاع ، الذي يجب أن يطغى على كل فكرة  
لدى المحامي « وعلى كل مصلحة شخصية بالذات !

على أن الاعتداد العجيب ، الذي كان السيد روكنيار يبعيه  
إزاء الخطر ، حد من قوة هذه الدوافع الكريمة . فما ليث  
السيد باستار أن قال : « لا ، ليس يوسعى أن أجيبك إلى

طلبك . إنني آسف . فليسا أن آخذ على عاتقي مسئولية  
المناقشات ، وإما أن انسحب نهائيا ! » فقال السيد روكنيار :  
« إن الأمر يتعلق بابني ، ومن الانصاف ألا أتخلى عن  
الدفاع عنه » .

وهنا غادر السيد هاميل مكانه ليتدخل في الأمر ، في الوقت  
المناسب ، قائلا : « بوصفي تقييا للمحامين ، أسألك يا زميلي  
العزير أن تعاوننا . إنني أفهم دواعي ترددك ، وكان من الممكن  
أن أقدر رفضك في أية ظروف أخرى .. قد تكون لدى السيد  
روكنيار أسباب خاصة تجعله راغبا في الدفاع عن ابنه ، ورغم  
أن العادة جرت بأن يوكل أمر الدفاع عن الأقارب إلى الغير .  
ولما كانت الخطوب قد أبطلته ، فلا بد أن تكون إلى جواره ،  
إذ أنه قد يتعرض لخطر الميالة في الثقة بمقدرته .. وإني  
لأصر على رأيي » .. أما وقد تطور الأمر إلى التذرع بالواجب  
بدلا من الاستجداء ، وإلى اللجوء إلى السلطان بدلا من الإقناع ،  
فقد طرح المحامي عنه كل تردد « وعسد إلى البيت ، فقال  
للشيخ في لهجة أقرب إلى القلظة : « لا ، لا .. مستحيل !  
لقد عرضت مساعدتي في أكمل صورها » ولكنها اقتضيت ،  
وتغيرت خطة الدفاع دون استشارتي ، واخفيت عني حجة  
لا بد وأنها حاسمة قاطعة .. وفي هذه الظروف ، لا أملك سوى  
أن انسحب ، وإني لانسحب ! » . ولم يتبد على وجهه المتحجم  
سوى إمارات الكبرياء الجريحة ، وألقت إلى السيد روكنيار  
ليضيف في معالجة مصطنعة : « هل ترغب في مذكرات  
مرافعتي ؟ إنها توتر عليك بعض الحجة ، وإني لأضفيها عليك  
أمرك » .

— فكر جيداً يا زميلي .. يا صديقي .. لا تهجرنا في المعصية !

— إن قرارى حاسم .

— نهائياً ؟ — نهائياً !

واحتفظ السيد روكميار في حديثه الأخير بمظهر متعالي ، هادئ ، ادعش زائريه . ولما كان النقيب غير مطمئن نهائياً إلى نتائج هذا الرغض ، فانه حاول استبقاء السيد باستار ، بالرغم مما كان يحسه نحوه من نفور طبيعي . فقال له : « اتوسل إليك الا تحرمنا من معونتك ! » . ولكن المحامي أجاب : « إنني لحزين لهذا .. صدقاني ! » .. فقال والد المتهم ، دون أى انفعال : « إذن فانتى استرد منك ملف القضية ، ومحضر المعاينة .. على الأخص — وتحليل الادعاءات ، وصيغة الحكم الذى صدر غيابياً .. » . وكان في عدم اكترائه هذا ما أشعر باستار بإهانة .. فعلى الرغم من أنه لم يكن ينفوى ان يلين للرجاء « إلا أنه — بما في الطبيعة الإنسانية من تناقض — لم يكن يصدق أن في الامكان الاستغناء عنه ، .. ومن ثم استأذن زميله في الانصراف وقد اكهر وجهه غضباً . وفي خارج حجرة المكتب « شدد مضيقه على يده بقوة — على السلم — وهو يشكره بحرارة إذ وافق على ان ينسحب من تلقاء نفسه . ولم ير السيد باستار في هذه الجاملة المصطنعة سوى إهانة بالغة « فراح يذرع البلدة ، محطماً لدى الراى العام عدالة قضية آل روكميار ، معلناً غرور الأب ، واحتمال إدانة الابن !

ولم يقلع السيد هاميل — بعد انصراف المحامى — في أن يخفى أساءه « وهوأجسه » ، وقلقه الذى راح يعذبه ويزيد من وطأة السنين على كاهليه . ليس إبعاد المحامى المعروف في القضايا الجنائية — طواعية — تصرفاً بعيداً عن الحكمة ؟ ..

أو ليس ينطوى على مغامرة قد يدفع آل روكميار ثمنها غالباً ؟ .. ما الدامى إلى الإقدام في الساعة الأخيرة على اتخاذ هذا الإجراء الذى من شأنه ان يشيع الاضطراب والفوضى في معسكر الدفاع ؟ .. وأعرب عن هذه الآراء في تلمظ مشوب بالحزم ، علماً رأى حديثه يضيع عبثاً ، كف عن الاسترسال فيه . وقال في لهجة حزينة : « يا صديقي : لقد جئت منذ لحظة ووجهك مشرق بالهام نفسانى ، فادركت وأنا انظر إليك أنك لن تصفى إلى أحد . فمن أين كنت قادماً ؟ » . فأجاب السيد روكميار ، الذى كان قد احتفل تأنيبه في احترام : « من ضيعة البرج .. لقد تحدث الموتى إلى .. انهم لا يريدون من رجال ان يتفرع بما يناقض مصالحهم من أجل خطأ أهد احنادهم ! .. نهفت النقيب الشيخ مأخوذاً : « الموتى » .

— أجل : أمواتى .. أولئك الذين كونوا عشييرتى وصانوها . لسوف يكونون غدا الضامنين لشرفنا . فكم عدد الذين ضحوا بأنفسهم — منذ أول اسم منا إلى اسم ابنى الأكبر — في سبيل المصلحة العامة .. افتريد ألا يكون لهذه التضحيات حساب ؟

— إننى أؤمن بعودة الروح وأفهمها . ولكن ، هل يفهمها المحفلون ؟

فقال مضيقه في اعتداد اهتز له الشيخ : « يجب أن يفهموها ! » .. وقال النقيب : « إن شمة شيئا يسرى في كيانك ويؤثر في أولئك الذين يتحدثون إليك ، فيضاي إلى نفوسهم ؛ أجل ! لسوف تدافع عن ابنك خيرا من أي محام آخر ، فإن لديك القوة والسطوة ؛ وسيكون نى شرف معاوانتك غدا ؛ لا ترك الآن للعمل ، فودعا ! » .. ولفه كتفيه النحيلتين بمعطفه البالى ، وسار إلى الباب بسرعة مباغتة .

ويعد أن اصطحب السيد روكيار النقيب إلى الباب الخارجى ، نادى : « مرجريت ! » . وظهرت الفتاة في القو قائلة : « هاندى ! » . فقد كانت في الحجرة المجاورة ، تنتظر الممثلة التى يعود فيها أبوها .. وقال الشيخ : « تعالى ، فانى أريد أن اتحدث إليك » . وقادها إلى مكتبه وسألها في عجلة : « هل رأيت مورييس في السجن ؟ » فأجابته « نعم يا أبى ، وقد يكنى معا ! » .

— بكيئا ؟ .. نعم ، إن قلبى قد انتزع من مكانه ، ولكنى لا أبكى مع ذلك . ولسوف أفدو حرا — مساء غد — فى أن أبكى ما أسفنى الدمع . أما قبل ذلك ، فلن أذرف دموعا واحدة !

وكانت مرجريت قد ارتفعت بعض الشيء لذلك التجمس الذى رد للشباب وأضاء ذاك الوجه العزيز الذى طالما تتبععت ما تعاقب عليه من إمارات الألم التى سببها ما حل بالأسرة من نكبات . ذلك انتهزت الفرصة دون إبطاء لتقدم بهمتها فى إصلاح ذات البين بين أبيها وأخيها ، فقالت : « أن مورييس يطالب بمكانه فى قلبك يا أبى » . فقال : « إنه لم يفقده قط ! »

.. وهتفت الفتاة وقد اشرق وجهها : « كنت أعرف هذا جيدا .. أتصفح عنه ؟ » .. وقال الأب : « لقد صفحت عنه منذ أمد طويل » .. فصاحت الفتاة : « آه ! » .

— أترك شككت يا صغيرتى فى أبيك ، ليلة عاد أخوك ؟

— آه ! لا ، فلماذا لا تنبله بذلك ؟

— إنه لم يسألنى إياه .

— بل إنه يسألك إياه .. وهو يرجوك أن توجه الدفاع

عنه الوجهة التى ترضيها ، دون أى قيد . فهو يوتن أنك

ستعنى بكل ما يمس شرفه !

— دون أى قيد ؟ .. لقد فات الأوان !

— ولماذا فات الأوان ؟

— لأننى اغفيت محاميه ، مسمو باستار .

— ومن الذى سيتولى الدفاع ؟ — أنا !

فهمت مرجريت وهى ترتدى بين ذراعيه : « آه ! كنت قد

كنفت عن الأمل فى ذلك ! لقد طالما رغبت فى ذلك ! » . وضم

السيد روكيار ابنته إلى صدره بقوة ، وهو مشغول الببال

بمهمته الجديدة العاجلة ، وقال : إنك تثقين دائما بى يا صغيرتى ،

فأذهبى واحضرى لى سجلات الأسرة كلها ، حتى القديم

منها . وفى غيبة ابنته عن الحجرة ، تسلم ملف القضية

الذى أرسله السيد باستار ، ففتحه وراح يقلب أوراقه وهو

يتأمل ساعته : « لقد تاهزت الساعة السادسة ، فهل سيكون

لدى مقسم من الوقت ! » .. وراح يتأمل — فى كرب ! —

أكداش المكتب الضخمة التى أخذت مرجريت تحفظها على

دفعات .. واخيرا خالت الفتاة : « ها هي ذى .. إن لدينا الكثير مما هو أقدم منها عهدا .. كانت هذه المجلدات تضم عمل وكرامة وشرف خمسمائة عام !.. وقدمت مرجريت لأبيها في النهاية كتابا أقل حجباً من سواد ، وقالت وقد تخرج وجهها قليلا : « هنا لخصت تاريخنا ، ومسجلت خطوطه الرئيسية ، لا سيما الخدمات التي أدت من أجل الوطن .. إنه ملخص في كثير من التوسع ! » .

— هل حدثت أننا قد نحتاج إليه يوما ؟  
— لا ، يا أبت .. إنما كتبته في الشتاء الماضي ، لأرد على الشائنين الذين حاولوا النيل منا . وقد قرأت على أمي فقرات منه ، فاقترنتي !

— إنك كنت بهذا تعددين الدفاع عن موريس !  
— بهذا ؟ — أجل ، فدعيني أتصرف للعلم .  
وما أن ابتعدت حتى ناداها ثانية وقال : « لدى أمر آخر أريد أن أقوله لك يا مرجريت » .. فارتدت إليه الفتاة مسرعة . وقبل أن يتكلم أخذ يفرضها بظك النظر الأبوية التي تهب دون أن تأخذ ، وقذود دون أن تحقد . وتأمل هدوء أساريرها وشحوبها وخلوة ملامحها . ثم قال : « لقد صادقت رين بيرسي وأنا البع الدار يا صغيرتي .. كان في الطابق الأسفل » على عتبة الباب الخارجي ، جامدا بلا حراك ، مستغرقا في التفكير « مضطربا .. ولقد تقدم نحوي خطوة ، وكأنه يريد أن يتحدث إلي . ولكنه لم يجد الفرصة ، لأنني سرعان ما تجاوزته ! » .. فلم يبد على الفتاة أي تأثير ، بل أجابت : « لقد كان منصرفا من هنا يا أمي » .

— آه ، وماذا كان يبغى ؟ — أن يقف بجوارك غدا ..  
— يا لها من فكرة !.. وبأية صفة ؟  
— بوصفه ابنا لك . — ابنا ؟ إذن فقد طلب يدك ؟  
ولما أجابت الفتاة : « نعم » ، هتف : « ومع ذلك فإني أخفيت عنى الثبا .. لقد رضى الله لحالنا يا مرجريت .. لقد اشفق علينا لفرط ما مسنا من محن ! وأن تصرف ريمون بيرسي لنيل . فهو لم ينتظر حتى نبرأ أمام الرأي العام من كل اتهام ثم يعود إلينا !.. وماذا أجبت ؟ » . فقالت : « لقد رفضت ! » .  
وإذ ذاك أجفل السيد روكيار في دهشة ، ثم جذب إليه ابنته في حنان ، وراح ينظر إلى أعماق عينيها الصافيتين . وقال : « رفضت ! ولماذا ؟ استطيع أن أحسس السبب : لقد فكرت في أمري يا عزيزتي ! إنك تضعين بنفسك من أجل أبيك ، ولكن أباك يرفض هذا يا عزيزتي ، فلطالما قلت لك إن الآباء يضمنون حياتهم في المرتبة الثانية بعد حياة أبنائهم .. هذا هو الأمر الطبيعي ، والعكس خطأ ! » . فنهضت الفتاة قليلة : « لكم أحبك يا أبت ، وإنك لتدري ذلك . ولكنك تخطيء في حديسك ، واتسم لك !  
— ألم يكن الرفض من أجلى !  
— لان يا أبت !

وتبين على الوجه النقي — الذي كان ينبعث من عينيها الصافيتين وينعكس على الوجه الشاحب — حقيقة نفس ابنته . ألم تمنح له الفرصة ، مرة قبل اليوم ، كي يفهم هذه الحقيقة ؟ كان الله يترقب منه أولاده واحدا بعد آخر ، غاية حتى تلك التي كانت تستبد بهم ويكويهم ويغصهم إلى الزهد

في الحياة ؟! ألم يكن خليقا به أن يرى في هذه القرابين المتعاقبة كفارة عن المذنب ؟! .. وتكرر إذ ذاك صباح يوم من أيام الصيف ، وقد وقف على ميناء مارسيليا يرتقب — على بواكير ضوء النهار الوليد — تلك الباهرة التي أملت ابنته فيليبس إلى الصين . ولم يمالك أن ضم مرجريت بقوة إلى قلبه المرتجف ، وتمتم : « أنت أيضا ؟ » فطوقت عنقه ، وهسمت في أذنه ، وهي تقبله : « ليس الآن يا أبى » .

— انتنوين ذلك بعد مولى ؟ — نعم !

واستبقاها برهة متكة عليه كما تفعل الطفلة المدللة .. وكما كانت تفعل في الأيام الخوالي ، حين كان يمسك بها في حذر . وأخذ يفكر فيما كان يشعر به وهي ما تزال بقربه .. وتردد في أن يقبل منها تلك المهلة التي انبعثت عن إشفاقها من أن تتركه وحده . ولكن مرآة كانت في مواجهته عكست أمامه صورة تلك الوحيدة التي جمعت بينه وبين مرجريت . ولح بنظرة واحدة ما اعتري وجهه من تغيرات خلال العاصم الآخر ، ثم قال لنفسه : « غذا سأكون قد انتقذت مورييس ، وبذلك تنتهى مهمتى . ولن أعمر بعد ذلك طويلا ! » .. وانحنى على ابنته ملثم وجهها الحبيب ، إشارة إلى موافقته . ثم عاد إلى الفكرة الرئيسية التي كانت تخترق في رأسه ، فطرح العواطف جانباً ، وشرع يتأهب للمعركة ، وهو يقول : « أعدى العشاء في الساعة الثامنة . إن أمامى عملا يستغرق حوالى الساعتين ، هما الفترة اللازمة لاستعادة تفصيلات هذا الملف ، وإن كنت أعرفها . ولنسوف آوى إلى فراشى في الساعة

التاسعة ، لاستيقظ في الثالثة صباحاً . ثم أعدد دفاعى من الثالثة حتى التاسعة .. أى إلى ما قبل بدء الجلسة ! » .  
— حسنا يا أبى . لقد تملت خطابها من جيرمين .. أن قلبها معنا !

— اقترنيه على أثناء تناول العشاء .  
— ولنسوف يحضر شارل غدا بقطار الساعة الواحدة ، فليس يرمسه أن يأتى قبل ذلك .  
— سأنتظره ! — والآن أتركك يا أبى !

وما أن أغلق الباب خلف مرجريت ، حتى أمسك في وجده بصورة هومير كانت على المفصلة ، فقام طويلا رسم ابنه الأكبر ، وقال في سريره مخاطبه : « أغفر لى لائى أقصر كل تفكيرى على أخيك . غدا أناديك ، وأتحدث إليك ، وأبكك .. فلا تخش أن أنسلك . ولكلك ترى أننى لست حرا .. غدا سأخلوا إليك . أما الليلة فمغنى لك لسلافتنا بأمرها ! » .. ووضع الصورة أمامه ورق « وطوى أوعته لإزاء الضرورة الملحة .. وانهمك في العمل .

## ٧ — جان ساسميتاى

مئنت مرجريت وركبها أمام المحكمة « إطاعة لأبيها ، نادلت بما كان لديها من بيانات عن المال الذى كان معدا لجهاز عرسها ، والذى أسلمته إلى أخيها مورييس » في ليلة رحيله إلى إيطاليا .. وعن المال الذى أرسلته إليه في ( أورتا ) ، ثم عادت إلى دارها في عجلة ، وكأنها لم يزل لها الحزن في

ضوءاً على جودها وسخاؤها ..! لقد استطاعت بهذا الجهد المحدود أن تساهم في النضاع عن المتهم ..! وراحت تلوم نفسها على ما اعترافها من ضعف ، وما تولاهما من خجل وأرتباك وهي تجيب عن أسئلة رئيس المحكمة .. فقد كانت تغمر مرويتها في أعماقها ، وكان إظهارها للبل لا يروق لها . واخذت تنعى على نفسها تواضعها الذي تراءى لها كما لو كان جبناً ، فخشيت أن تكون قد أساءت بتردها إلى ما كانت ترمى إليه من جعل شهادتها واضحة صريحة .

نرى ما الذي جرى قبل دخولها إلى قاعة الجلسة ، وبعد خروجها منها في عجلة « كما لو كانت هاربة » ..! لم تكن تذكر شيئاً من هذا ، وكان ما تذكره هو ذلك الوجع الذي استحوذ عليها من جراء هذا الاتصال القصير بالعدالة ، والذي لم تستطع أن تتغلب عليه . فما أن ضيها مع الشهود الآخرين المكان المخصص لهم ، حتى سمعت الحاجب يستدعيهم واحداً بعد آخر ، ثم رأتهم يختفون .. وكان عم أبيها « اتبين » ، وزوجة عمها « تيريز » من بينهم . وظلت وحيدة قريباً ، حتى حل دورها ، ناقضت إلى قاعة الجلسة . وبالمظلة الجديدة حين يدفع بها على المسرح ، راحت ترتجف وهي تلمح الحشد الذي زخرت به القاعة : تحت المنصة التي في الصدر ، ومقوتها ، وفي القاعة ، وفي الشرفة .. كانت ثمة أنظار كثيرة تتحرك فيها وكانت تخزها وتجرحها .. كانت بلدة ( شامبري ) بأسرها هناك ، تتحرك في غير إشفاق « في ابنة وجلة » ، ولعلها ستتحلق بعد قليل بنهم في أسرة عريقة تختصر !

والفت نفسها آخر أيام ثلاثة قضاة في زى أحمر ، وإلى بينهم مقاعد المحلفين . وكانت تستقل على الأرض وهي تذكر اسمها ، لولا جلال في أنفها صوت أبيها .. هذا الصوت العذب ، الدافئ - الذي كانت تالفه - قشد من أزرها في الحال . وكأنه دواء مقو للقلب ..! وكان المحامي يقف أمام موريس وكأنه يحبه .. وكان هادئاً إلى درجة أدهشتها وقتلت إليها عنه عدوى الطمأنينة . وكان يملأ في نيسرات واضحة مينة السؤال الذي يريد أن يوجه إليها . ولقيت عثاء في سبيل الإجابة بوضوح ، ثم أذن لها بالانصراف ، فانطلقت إلى خارج القاعة كصيد يلوذ بالنسيبات ، وهي تلوم نفسها قائلة : « أن يرضى أبى عنى .. ما أقواه في اعتداده وطمأنينته ! .. وما أعظم فمالكه نفسه ، وما أشد مهابته ! لقد نهض مرقين تأخسست في كل مرة بصمت عميق يسيطر على القاعة .. وكانت عيناه تشعان لهيباً .. وكان يبدو شياً .. إنه قوتنا وعمادنا ! » .

وعاد السيد روكيار - في منتصف الساعة الواحدة - للغداء ، فما أن بلغ الباب ، حتى قال للخادم : « أعدى لنا الطعام بسرعة يا ميلاني : ثلثي في عجلة ! » .. وكانت تبدو عليه سبب الجاعد : فقد تجعد جبينه ، وانطلقت نظراته سديدة . لا سبيل إلى تحاشيها ، ومن الصعب الصمود لها . بينما تقلصت عضلات وجهه .. كانت الليالي الأخيرة التي قضتها مسهداً قد تحالفت مع الأسى والقلق فمكنت للشبحوخة من أن تنب إلى قسوته ، وإن كانت إرادته

الفولاذية قد حدث مؤقنا من اثر تأليب السنين والتعب والحزن عليه . . . وسألته مرجريت في رجاء : « ما الأنباء يا أبى ؟ » .  
فقال مظهرنا : « مستأنف الجلسة في الساعة الثانية » .

— ألم تنته القضية ؟  
— لا ، لا .  
— وما الذى جرى ؟  
— كارك لم ترى شيئا .  
— لوه ! لا يا أبت . لقد غادرت المكان . نقص على كل شيء . . . الا انظر ، اننى ارتعش !

— يتغنى الا ترتعشى يا مرجريت . . . كوني واثقة !  
وخلال تناول الطعام — بسرعة — ودون شهية — شرع يلخص لها المناقشات : « لا شك أنك لم تفهمى شيئا من الإجراءات الرسمية الخاصة بالحلفين ، ويحلف اليمين . وبالانتهام ، واستدعاء الشهود ! » . فقالت : « لقد كنت على مقربة منك في القاعة يا أبى . وعندما نودى اسمى توهضت وأرشدت إلى حجرة أخرى . وجذب بها العم اثنين والعمسة تيريز » .

— هذه كانت قاعة الشهود . لقد ابتدأت اقوال الشهود بعد قراءة قرار الاتهام ، والحضر الذى اعده رئيس البوليس عن سرقة المائة ألف فرانك ، واستجواب موريس الذى اصر على أنه بريء ، ورفض أن يتهم أحدا برغم إلحاح رئيس المحكمة . . . ثم شهود الإثبات . ولقد كان رئيس كتابة ترازن أكثر الناس تحاملا على موريس . إن هذا المدعو فيليبو يكرهنا لسبب مجهول ، إذ أدلى بشهادته وقد استقديه سكار الشهير والتعريض : وراح يورد قرائن اختراعها وفسرها وفق هواه . . . في خبت ولؤم — وصاغها في شكل أدلة لا تقبل الدحض !

وتساءلت مرجريت : « وما هذه القرائن ؟ » . فلجواب : « معرفة وجود نقود في الخزانة الحديدية ، وإمكان اكتشاف الأرقام السرية لقتل الخزانة — من المفكرة — وإن لم يستطع إقامة دليل على ذلك . . . ثم يقسم موريس في المكتب ومعه المفاتيح إلى ساعة متأخرة من الليلة التى سافر فيها إلى الخارج . . . واستحالة تصور وجود متهم آخر . . . وغير ذلك . ولقد ردد الكتيبة الآخرون شهادته كتلاميذ يرددون درسا لقنوه . ولكتم كانوا أقل تفصيلا وتأكيذا . وحن في النهاية دور خادم مدام غرازن ، التى أغروها — ولابد — بالمال ، لأنها ادعت بأن سيدتها لم تلج حجرة المكتب قط . في غياب السيد . ولكن ، أية قيمة لهذا ؟ أكان على مدام غرازن أن تستدعى خدمها كي يشاهدوا عملية اختلاس المال ؟ ، على انى مضطر إلى الا أنهما أنا الآخر ! » .

— ولكن موريس لم يعد يعارض في ذلك ؟

— لن افعل ذلك . لقد دفعنا مديته ، وليبق السر دفيننا إلى الأبد ! . . . ولقد ذكرت اسمك واسمى عمك اثنين وعمك تيريز كشهود نفى ، لأثبت أن موريس لم يسافر وهو معكم بلا مال . كذلك ذكرت اسم الموظف الذى يعمل في شركة الائتمان ، الذى سلمك في آخر أكتوبر الماضى إذنا يملغ ثمانية آلاف فرنك تصرف باسم أخيك من المصرف الدولى بميلان . . . وأخيرا ، اسم الأستاذ دودان الموثق .

فتساءلت مرجريت : « ولم ذكرت هذا الآخر ؟ » . فقال : « ليين حقيقة المائة ألف فرنك التى دفعتها من طرفه للسيد

فرازن ، واسم المشنرى الحقيقي لمرعة البرج . ولقد أحله الرئيس - بعد مشورة السيد لاتاش ، رئيس غرفة الموثقين - من سر المهنة ، فاستوجب هذا أن يكتشف للمحققين عن الصفة الواجبة التى دبرها السيد فرازن « . فسأله الفتاة : « إذن ، فالسيد فرازن هو الذى اشترى المزرعة . لنفسه . وليقيم حيث كنا ؟ » . فسألبا الأب بدوره : « أو لم تعرفي هذا ؟ » . فاجابت : « ما كان ليخطر ببالي .. وما أكثر الأشياء التى لا أفهمها ! .. لقد كان يبدو عليه - فى موسم حصاد العنب الماضى - الاهتمام بالاستقصاء والتحرى .. كان مهتما بكل شيء ! » .

— أجل يا صغيرتى .. إنه هو الذى سيحل محل آل روكفيلار ، ويستأنف عملهم . لقد استولى على كل شيء ، دون مقابل !

ثم استأنف الحديث بعد هذا التعليق المرير : « لقد بدا محاميه الكلام فى الساعة الحادية عشرة » . فسأله : « واى محام هو يا أبى ؟ » فاجاب : محام يدعى بورتيريو . من ليون . فبأنه لم يوفق إلى محام من شلميرى ! » .

— مراعاة لخطرك ؟ — بلا شك !

— وما الذى جرؤ على قوله ؟

— إنه رجل ماهر ، بارع الإشارة ، عنيف فى انتران وبرود .. ولقد شرع يرسم لوريس صورة مغرقة . نمثله كشباب اليوم الذى لا يقوى على كبح جماحه شيء . ووصفه بأنه متطرف فى تفسير حقوقه الفردية . حريص على تنمية شخصيته وعلى الفوز بسعادته ولو داس فى سبيل ذلك سعادة

سواء : ويأبى الانصواء تحت لواء مجتمع منظم ، وإنما هو - فى النهاية - من أولئك المثقفين ، الفوضويين ، القادرين على أن يتجاوزوا نطاق الإنكار ، إلى نطاق الأعمال ، واستطرد يقول : « سلوا زملاءه واصدقاءه .. إنهم لا يستطيعون أن ينسكروا أنه لم يكف فى مناقشاته قط عن ازدياد وهدم الأوضاع القائمة ، وأنه يقتصر إعجابه على النظريات الهدامة التى ينادى بها فيلسوف المائى يرى أن المثل الأعلى للإنسانية - أى الرجل المثالى - هو ذاك الذى يبني حرح سعادته على انقراض وآلام الصغار ، والعزل ، والضعفاء ! .. ومن ثم لم يوفق المتهم إلى التفاهم مع أبيه ، لأنه كان يضيق ذرعا بسلطانه عليه ! » .

فتمتعت مرجريت مستنكرة : « أقال هذا ؟ » . فاجابها أبوها : « أجل ، فانا أوجز لك ما قال .. لقد اتخذ منى حجة ، ومن أسرنا حجة أخرى نذرع بها ليزعم أن المتهم لا يستطيع أن يلتمس لنفسه عذرا ، متعللا بسوء تربية ، أو بنقص تعليم ، أو بقدوة سيئة ، أو بطفولة تمسدة فلا نفيد مראה إلى الأبد .. ولست أحب أن أروى لك ما صور به إغراء الشاب لدام فرازن ، من أجل مصلحته الشخصية » . فهتفت الفتاة : « مصلحته الشخصية ؟ » . فاجاب أبوها : « أجل ، فان موريس فى استهتاره بجميع القيم الخلقية - كما صوره المحامى - اشتبهى المرأة والمال معا ، دون وأزع من ضمير .. ولما تمكن الاستغاذ بورتيريو - أو ظن أنه تمكن - من أن يجعل سوء استقلال الفتاة أمرا ملموسا . طرق موضوع الاتهام ، وتلك التى لم يتورع عن أن يسميها بالادلة المادية : مدان فرازن توافق على الرحييل - والزوج غائب ، والابن الضال متأسف ،



والمساعة ليس لها مثل . ولما كان العشي لا يملك نسيوة خاصة ، فلما يد من أن يبحث عن نفقات الرحلة . . وهو يعلم بوجود المبلغ الذي يتيسر لها لزراعة ( بيلفاد ) . . وقد اكتشف الرقم السري في مكتبة . . فعلم على أن يستولى على المفاتيح . ودبر البقاء بمفرده في المكتب . ثم أخذ المبلغ وغرم مع عشيقته إلى الخارج . . فهو ليس المذنب الوحيد فحسب . بل لا مقلب هناك سواه ! » .

وسألته مرجريت : « ومدام غسرازن ؟ » فقال :  
« مدام غسرازن ؟ ليتنيها ، . . ليجرؤ على اتهامها ! . . لقد  
لاذ بالصمت في التحقيق ، وهو يتشبهت به في الجلسة . . انني  
أتحداه ان يتهمها ! » . . « هكذا قال المحامي الذي علم ولابد  
— عن طريق عدم حيلة باستتار : — بعناد مورييس الكريم .  
واستلحد مبينا ان هذا الصمت يدينه . لانه بمثابة اعتراف ! » .  
وغادرا قاعة المحكمة إلى غرفة المكتب ، وكانت مرجريت  
تسمع خلال هذا التلخيص اللاذع — الذي حرص ابوها على  
سرده بامانة — هدير الغضب والاسى الابويين ، فغذرت :  
وتتمت : « انعتبر في حكم الضائعين يا أبى ، أم ما يزال لديك  
امل ؟ » . فاجاب : « بل ما يزال لدى امل » . وعادت تسأله :  
« ومتى تنتهى القضية ؟ » . فقال : « سيستأنف السيد  
بورقيريو مرافعته في الساعة الثانية . . بعد اربعين دقيقة » .  
نهفتت : « ألم يكف بما أساءه إلينا ؟ » .

— لا يبدو عليه ذلك . فإن لديه حجة أخيرة يريد أن يسوقها .  
وتساءلت مرجريت في تلقى : « وما هي ؟ » . فأجاب السيد

روكيانار : « ما يعتبره أعترافا جديدا » ممسلا في تسديدي  
 ببلغ المائة ألف غرنك . واعتقد أن دوري سيحين قبل الساعة  
 الثالثة . وفي الرابعة ، أو الرابعة والنصف ،  
 أكون قد فرغت من مواضعي . ثم أريد متظاهرا بهدوء البال ،  
 « إن قطار شارل يصل في الساعة الواحدة . فلا بد من أن  
 يكون زوج أخذك قد وصل » . . . وعسلا ، لم يلبث شارل  
 مارسيلاز أن طرق الباب بعد قليل . وأقبل على حميه ، قائلا :  
 « ما الأنباء يا أبي ؟ لقد بكت جريمين وهي تودعني — في هذا  
 الصباح — فحذا الأولاد الثلاثة حضوفا . إن البرقيسة التي  
 رسلتها أمس أحزننا كل الحزن ، يا لهويع المسكين ! » .  
 — لقد كنت في انتظارك يا شارل ، فإن مكانك إلى جواري  
 . . ستطلعك مرجريت على الأنباء ، ريثما نتناول غداك .  
 فاتركاني بضع دقائق . ولكن مستعدا يا شارل في الساعة  
 الثانية إلا خمس دقائق .

— لسوف تجدني متاهيا . آه . . . أريد أن ابتلك بانثى  
دبرت إجراءاتي لأرد لك نصف صدق جبرمين ، على أن أرفع  
الباقى فيما بعد .  
وكانت لهجته تنم عن عدم الرضى ، كمن لم يالف فعل الخير ،  
ومن ثم فهو يفعل مكرها . . . كان تيار الصالح العام قد جرته ،  
ولكن عقله ظل يعترض ، وإن أبى أن يعلن تخلفه . . . على أن  
السيد روكسبار قال له : « لست أقبل » . وكان تأثيره بهذه  
التضحية أقوى من تأثيره بالعوامل المعارضة التي اكتنفها  
وحاولت منعها ، فأردف : « ألا تبني ! » . . . وهكذا توثقت  
عرى الألفة بين الأسرة في البائساء .

وخلا المحاسن إلى نفسه ربيع ساعة ليستجمع الحجج التي  
سيسوقها في مراعاته .. وكان مارواه لابنته - في ثورة نفسية  
عاتية - قد خفف من الغضب والهوان اللذين تكاثرا في نفسه  
منذ الصباح، وهو يسعى إلى الاتهامات المضمينة التي وجهت إلى  
ابنته - لذلك استراحت اعصابه، وانفعا غضبه كبحر تعاوده  
المسكنة بعد هبوب الريح! .. وعندما دانت اللحظة التي كان  
عليه أن يعود فيها إلى دار القضاء - تبينت مرجريت في أساريره  
أنه صار هذا نفسا .. ورات في نظره ذلك الصفاء الذي عاد  
به من المزرعة ليلة أمس .. فالتفت إليه : « إلى المساء يا ابني  
.. وليساعدك الله ! » - فأجاب مسرعا وقد بلغ الباب  
الخارجي : « إلى المساء يا صغرتي .. مع مورييس ! »

\*\*\*

ما احتسبت الفتاة نفسها في غزلها لتصل - حتى  
أقبلت جان ساسيتاي تنشد مقابلتها قائلة للخادم : « الأنسة  
مرجريت : من فضلك » .. ولما كانت الخادم قد أصبحت  
أكثر صلابة ويقظة منذ الوقت الذي أصرفه ريمون بيرسي  
على مقابلة مرجريت - فقد رفضت في إصرار أن تجيب هذا  
الطلب غير المناسب قائلة : « إن الأنسة متعبة .. وهي  
لا تستقبل أحدا » - فنهقت الزائرة : « غلبكن .. ولكني  
سأراها برغم ذلك » - وأزاحت الخادم المشدودة عن طريقها -  
تبل أن تتمكن هذه من أن تعترضها، وركضت في الردهة نحو  
غرفة صديقتها - وكانت تعرف موقعا - ثم راحت تطرق  
الباب في عجلة، وولجت فالتفت بنفسها في أحضان



ثم راحت تطرق الباب في عجلة، وولجت فالتفت بنفسها في أحضان

( مرجريت )

هاتفة : « انا القادمة » فلا تطرديني .. ليس ليلاتي ذنب في ذلك ! » . وصاحت مرجريت : « ائذه انت يا جان ؟ لمساذا انت ؟ » . فاجابت الفتاة : « لانتك وحيدة مهمومة .. إن هناك عددا كبيرا من السيدات اللاتي ذهبن إلى الجلسة وكاتبن ذاهبات إلى حفلة للهو والسمر . اما أنا ، فقد رأيت أن مكاني هنا ، بجوارك . إني أحبك كل الحب » غرقت مرجريت خد صديقتها قائلا : « ما أطيبك ! » .

— آه ، لا ! كل ما هنالك هو أنني اكن لك ودا كبيرا .. لقد كنت أعجب بك منذ صغرى . ولكم أود أن اكون مثلك !

وغمرت الفتاة مجرى الحديث فجأة ، إذ قالت وكانت تسر إليها بأمر خامس : « تصوري أنهن اتخذن ابني زينة . ليذهبن إلى دار القضاء .. تماما كما لو كن ذاهبات إلى حفلة صباحية ! » . فتساءلت مرجريت : « من ؟ » . واجابت الفتاة : « هؤلاء السيدات ! » . نقلت الأنسة روكيار في حسرة : « أجل .. إن الأمر يمس شرفنا ، ومن ثم فهو مشهد ممتع ! » . فامسكت جان ساسيناي بيدها وقالت : « اما أنا فلا يساورني أى قلق » . ثم أردفت في لهجة المسيطر الذي يحسم نزاعا : « وعلى العموم ، غيائ وزر خطر يؤاخذ أخوك ؟ .. إنيته اختطف امرأة ؟ .. ليس هذا بوزر يذكر ! » . وابتسمت مرجريت بالرغم من حزنها . فتشجعت صديقتها على المضي في حديثها : « إنك لتفهمين جيدا أن المرأة لا تتزعزعا كما تتزعزع الثائبة عن الثوب ! .. إني أنسب نظائري فمن يقدم على اختطافي ، وأعذه ، والحق به ضررا جسيما . ما لم

اكن راغبة في الرحيل معه ! » .. فنبغت مرجريت : « صه يا جان ! » .

— آه ! من يدرى ؟ إن المرأة إذا أحب صار قادرا على كل شيء .. فالحب شيء غطيع !

— وما الذي تعرفينه عنه ؟

— ولم لا أعرف عنه شيئا ؟ .. إني لم أعد صبية صغيرة ! وضففت الأنسة ساسيناي قبعتها التي فقدت التوازن فوق شعرها الأصفر ، ثم أخذت تنسق الخصلات التي توهلت على جبينها . وتصفعت شرود الببال ريثما تنقلب على حمرة الخجل التي سرت في وجهها . ثم تساءلت : « وهذه المرأة الشريرة ، تظنني لم بعد بجهيها ! » . فقالت مرجريت : « مورييس ؟ .. لا اظن ! » .

— أواقعة انت ؟

— إنه لا يتحدث منها .

— أو لم يرها أحد بعد فراقها ؟

فاجابت الأنسة روكيار : « لا » . فاندفعت جان تقول : « هذا أفضل ! إني أكرها ، فهي — أولا — لم تكن جميلة إلى هذا الحد . صحيح أن عينيها كانتا جميلتين . ولكن نظراتهما كانت مثلكة . ولقد كانت لها ابتسامات ، وغمزات ، وتكلف مفر . ومن في تصنع أو ضاع رأسها على عنقها ، وهزات أكتاف وأرداف » .. ونهضت عن مقعدها بسرعة ، وراحت تسير في الحجرة مفقدة مذام فرازن ، ممثلة حركاتها وإشاراتهما العصبية التي كانت تنم عن قورات داخلية . فاستأنفت مرجريت : « جان .. أرجوك ! » . ولكم الفتاة استأنفت



أن أبى فى حاجة إلى هذا الخطاب ، ومن ثم لا أهلك أن أحجم عن الذهاب ! » . . . لقد كان من خصائص الأسرة أن ثمة رباطا غامضا يربط - عبر الزمان والمكان - بين أمواتها وأحيائها . . . وقالت جان - فى إصرار - بدورها : « سأصحبك ! » . . . تهلفت مرجريت : « أجل ، تعالى ! سأزدد شجاعة فى صحبتك ! » . . . واندفعت الفتاتان إلى الخارج ، واجتازتا موقع القصر الذى كانت واجهته القائمة تنفذا تحت شمس الشتاء - وسلكتا دوريا تساعد على تقصير المسافة . حتى إذا اجتازتا ساحة السوق ، اشرفتا على دار القضاء فى دقائق قليلال . تسالت مرجريت حارس الباب فى أثب : « أين تعقد الجلسة يا سيدى ؟ » . فأجاب : « هناك يا سيدتى . فى الطابق الأسفل . ولكن القاعة مكتظة ، ولن تستطيعا الدخول . نقاطعته جان ساسيناي قائلة : « بل لا بد لنا من الدخول ! إن معنا خطابا . نستندا عاما يجب أن نسلبه لحامى المنهم . - مستحيل يا سيدتى » فقد بدأت المرافعة . والوقت حد متأخر . ولكن ، من تكونان ؟

فرفعت أخت مورييس النقاب . قائلة : « الأنسة روكيفار » . وإذا ذلك قال الحارس : « آء ، لا بأس . اتبعانى ! » . كان الاسم قد أحدث فى نفسه مفعولا عجبيا ، فقادهما إلى الباب المخصص للشهود ، وقال : « ما عليك سوى أن تفتحي الباب يا آنسة ، فتجدين مقاعد الحاميين أمامك . . إلى اليسار قليلا . وبعد ذلك ، أخرجى من الباب عينه ، ما لم تجدى مكانا خاليا لتجلسى فيه ! » . . . ولما كان الحارس فى خوف من تصرفه -

لقد أردف قائلا وهو يترك الفتاتين : « أرجو - بوجه خاص - ألا تذكرى أنى أنا الذى قدتكما إلى هنا » .

وكانت مرجريت فى المقدمة « غوضعت يدهما على مقبض الباب ، وسمعت حديثا فى القاعة . ولكنها لم تستيقن صوت أبيها . . كان مصير مورييس ، ومصير آل روكيفار ، يتقرران معا فى تلك الساعة - خلف ذاك الباب ! ولكنها كست تحيل التهمة المظلمى . . من لمن هو بى !

## ٨ - صوت الأموات

ودخلت الفتاتان . وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الثانية ، وقد اوشك الأستاذ بورتيرو أن يفرغ من مرافعته المسومة المهيئة ، ليترك الجمهور - الذى ضاقت به القاعة والردهة « واختلط حبله بحبله - كى يلتهم كل فرد منه نصيبه من الأكلة الساخنة التى قدمها إليهم المحامى المحك القاسى ، والتي صنعها من قلب آل روكيفار النابض . . . وشوهدت الفتاتان تمشيان على رجل ، بعد أن اجتازتا الباب ، فقال الموقف كولانج : « إنهما قادمتان للبحث عن زوجير ! » . . . وكان الموقف إذ ذاك يشرح - مع الأستاذ باييه - ما كان يجرى فى الجلسة ، لوضع سيدات من الطبقة الراقية . وقد خيل إليه ، إذ قال ما قال ، أنه يقتظره . . . وصاحت إحدى هؤلاء السيدات ، وهى تبدى استمزازا : « انظر إلى هذه الوقصة ! » . . . ذلك أن « جان » استهانت باحتقار البلدة كلها - بينما كانت مرجريت تسعى إلى أبيها لتسله خطاب هو بى - فاستدارت فى جزء وقدر ، بل فى

على هذا الشاب الذي احترق الحب النقي ولم يتورع عن أن يسلب مع شرف المرأة خزانة الزوج !

ثم جلس المحامى وقد أثارت مراعاته المسببة - التي القاها مبالغا في اصطفاك الاشتمزاز والقضب - همسات غامضة لا تحصى . تشبه وسوسة الوجد . همسات تتناقل من شفاه إلى شفاه دون أن يعرف مصدرها . كانت المرافعة كوابل من السهام المسمومة تصوب تباعا ، وفي غير هواده ، وفي اتجاه واحد . بل من الممكن أن يقال إن المحامى كان يصوب سهامه إلى الأب ، وهو يتظاهر بتسديدها إلى الابن . . . كان يصوبها إلى الأب - الذى أجبره الشعور بالعار على رد المبلغ - ويهدف من وراء تصويبها إلى أن ينال من الأسرة التى كانت تتورع ، مع ابنها المذنب . فى الوحل ! . . . كان أقسى مما ينبغي على تريسسته . وثابت أنه خصم عنيد لا يتورع عن أن يدوس جثث خصومه بقديه ! والواقع أن الموثق أحسن اختيار المحامى الذى يتحدث باسمه . فما كان يتصور أن يتدفق كل هذا السم وهذه المראה من فم واحد ! . . . ولقد اضطر السيد روكفيار إلى أن يلتفت إلى ابنه وزوج ابنته - أكثر من مرة - ليهدئ ثائرتها ، ضاربا بنفسه المثل فى الهدوء وضبط النفس أثناء المعاصرة .

وقال رئيس محكمة الجنايات : « الكلمة الآن للمحامى العام » . . . وكان صوته حزينا ، وكانها أراد أن يقول : « ما الداعى إلى محام ثانٍ للاتهام ! » . . . ودفع الفضول الدعى العام - السيد فالروا : الذى كان يجلس وراء المحامى العام - إلى أن يميل إلى الأمام ليسر بنفسه كلمات إلى زوجته . ولكن

زهو : نحو موريس روكفيار الذى كان يجلس فى مقعد المعار ، وأومات إليه بيدها وقد ارتسمت على قمها ابتسامة عريضة ! وكوفئت على جراتها فى الحال : إذ رأت إشراقة العريان بالجميل تسطح على وجه المتهم . . . ذلك الوجه الذى أصابه الضمور والتفصن ، وكانها كان يتخلص فى محاولته أن يظل جامدا تحت وابل السباب والشتم . وسرعان ما أثار هذا الحادث تعليقات الحضور جميعا . ولما كانت مرجريت مطاطنة الرأس ، فانها لم تلق بالا إلى شئ ، مما حدث . وكانت على الأخرى قد حيت أخاها . ولكنها كانت أكثر تحفظا من زميلتها . ثم همست فى أذن هذه : « فلتنصرف ! » . . . فأجابتها بان وقد تملكها الرغبة فى حضور المناقشات : « لوه ! لا . . . سلكك ! » .

وأوما لها السيد روكفيار - بحركة سريعة - إلى مكانين خاليين فى مقاعد الشهود ، كى تجلسا . وكانت الشمس تنفذ خلال النوافذ الزجاجية ، ولكنها كانت بعيدة عن مقاعد المحلفين ، فتركهم فى الظلام لتلقى ضوءا على مقاعد القضاة . والمحامى العام والمحامين والمتهم بوجه خاص ، وكانها تبرز مشهدا يعرض فى مسرح . وهكذا نلهر الاستاذ بوتريو وهو يهتر ويكرر اتهاماته ، مختفيا مراعاته بيلخص مركز لمحجه . وهو يصفى لهجة التاكيد تارة على قائمة من القرائن أخذ يكدر بعضها فوق بعض ، وينثر تارة أخرى امضاع المتهم عن ذكر اسم مدام فرازن وسداد مبلغ المائة ألف فرنك بالكامل إلى السيد فرازن ، على أنها اعترافات لا تقبل النقص . ثم انتهى إلى أن طالب - بعنف ! - بصور حكم صارم رادع

هذا أبدي ما يتم عن رغبته في استبعاد رأى لا داعى له .  
واكتفى بأن ذكر أنه يعتمد على تقدير المحلفين في قضية رُفعت  
بناءً على شكوى المدعى بالحق المدنى ، وسبق للقضاء أن  
أصدر فيها حكماً غيائياً . فما لبث الرئيس أن صأح في لهجة  
قوية : « الكلمة للدفاع ! » . وكأنه يبدى اغتباطه لإغاثته من  
الإصفاء إلى اتهام آخر . وهنا سأل الأستاذ هامل زميله  
روكفيار : - إذ كان يجلس إلى جوار : « أمتعد أنت ؟ » .  
نهتف السيد روكفيار : « بلا شك . ولماذا ؟ » .

— تكلم أنت أولاً ، وإذا دعت الضرورة فسأحل محلك !  
وادرك السيد روكفيار أن النقيب الشيخ كان ما يزال يتراجع  
تحت وطأة تقاليده المعنوية التى لا نسوغ له الدفاع في أمثال  
هذه القضايا ، ولكنه أذخر جهوده لميئذنها إذا ما تعطل الدفاع  
بناثير الانفعال والضعف والعجز ! على أنه وافق على اقتراح  
زميله قائلاً : « حسناً ! » .

وفي خلال هذا الحوار المتبادل هما بين الشيخين . أخذت  
الأحاديث الخاصة بين أفراد الجمهور تزداد شيئاً فشيئاً . هنا  
وهناك ، فتشيع في جو المكان كما يشيع الفيار بعد مرور موكب  
ما : قال كولانج — الموفق الذى كان من أنصار السيد فرازن —  
معلقاً على حملات صحافى هذا الأخير : « لن يبرأ آل روكفيار  
قط من هذه الجراح ! » . يعارضه السيد باييه — الذى كان  
حاضر الدعابة دائماً : « آيه ! آيه ! .. أنتظر رد الأب ، فلن  
تلبث أن ترثى للأستاذ بورتيريو ! » . . . . . وعقب واحد من عامة  
الشعب — سمع هذا الحديث ، وكان من المترددين على قاعة  
محكمة الجنايات — فقال لجاره في تحمس : « أجل .. إن

الشيخ لشديد المراسى » . . . . . وكان السيد باييه في تلك الأثناء  
يضحك ويقول في إصرار : « سترى أنه يعرف كيف يعرض ،  
وأنه حاد الأنياب » . . . . . ونهتبت إحدى السيدات في إشفاق :  
« لشد ما يبدو متعباً ! » . . . . . فقال السيد كولانج وهو يسوى  
عذابه الحقيق : « فريدين أن تقولى إنه يبدو منهارة .. إن  
شيخين لا يعادلان شيئاً ! » . . . . . وأضاف بلهجته المبتذلة :  
« لا شيئاً عند النساء ! » . . . . . ثم أشار خلسة نحو الحاضرين  
الشيخين وهما يتبادلان ملاحظتهما ، وقد جلسا غير بعيدين  
عن السيد باستار . الذى غاصت أصابعه في لحينه ، وهو  
يتأهب مقربصاً للدفاع . أملاً منه في أن يشهد روكفيار وهو  
يتداعى !

ورفع السيد روكفيار ثلثتوته عن رأسه ، ثم نهض . . .  
ونظر على التوالى . . . . . وفى غير عجلة ، إلى ابنته وابنه ، فترود  
هما كان يبدو عليهما من أمل وثقة به . . . . . وسرعان ما سيطر  
الصمت : عميقاً ، مثقلاً بالانتظار الذى حبس على الحضور  
أنفاسهم وخفقت قلوبهم ! . . . . . كان وقوف هذا الرجل ذو الشعر  
الأسيب ، بل الأبيض تقريباً . . . . . كان وقوف هذا الشيخ الذى  
نهلت في شخصه سلالة طويلة من الأجيال الشريفة ، وصفحات  
حافلة بالخدمات التى ظلت تبذل في الحياة خلال نيف وستين  
عاماً . عن مواهب وإقدام . . . . . كان مجرد وقوفه احتجاجاً بليفاً  
على السباب والتشهير اللذين خيل للبعض — أثناء مرافعة  
المدعى المدنى الطويلة — أنهما قادران على النيل من أسرته :  
لم يفكر أحدهم أن ثمن المزرعة أصبح وفاء لما لم ينفق جميعه  
بوساطة السارق ؟ . . . . . إن جميع الحاضرين من أمثال باستار — في

العالم بأسره — ليعجزون عن سوق اعتراضهم بمثل هذا الموضوع الذي ساقه روكيار — ممثلا في مجرد وقوفه ! — قبل أن يتكلم !

ودقت ساعة الساعة مؤذنة بالثالثة : غشد المحامي تامته — في بطة — بفتضا ، ولاح رأسه مرفوعا وسط حائلة من ضوء الشمس التي كانت قد بلغت من الشحوب درجة لا تجعل المرء يضيق بأشعتها ، وتجلي الجبين العريض ، والقسمات الجيلة الحادة ، التي زادت السن حدة وإرهاقا . والتي ظلت محتفلة بشمها وعزتها . وأضفى عليه شأرياه — بشعرهما القصير الكثيف — منظر المناضل ، والزعيم الذي لا يقطع إليه امرؤ إلا واستمد منه شعورا بالقوة وحب الحياة ! أما اللهب الذي كان يتقد في أغوار عيبه عادة « والذي كان ينبعث منهما حادا تاهرا ، فمقد انقلب عادنا صافيا « يوحى بالجلال بدلا من الرغبة في الانتصار !

وقالت السيدة التي كان السيد كولانج يقارلها : « تقول إنه منهار . . . لا انظر إليه ! » . فعقب السيد بلبه قائلا : « إني لم أعد أعرفه لفرط سلطانه ! » . أما مرجريت والسيد هاميل : فان يقطنهما والقلق المستحوذ عليهما كشفيا لأعينهما الحاسة الخارقة التي تملك روكيار منذ تزوجه في المزرعة !

وبدا الأب المحامي يتكلم بصوت خافت — بعض الشيء — بما أوحى إلى السيد باستار بخاطر جعله يقول في رضى : « لقد فقد صوته المجلجل ! » . ولكن الصوت وضع فجأة ، وكأنه دوى نقر شق الحجب ، لابتدأ الأموات على سفوح التل الفاجية — التي كانت مستلقية تحت الظلام بالأمس — فيحشد

من أطيانهم جيشا بشد أزره . . . وأخذ صوت الشيخ يدوى منسابا وسط الصمت الحي : الجاثم الكفويوم المتجمعة ، وكأنه قارب يشق البحر . وشرع يقول أن لابد من معرفة المقوم لكي يتسنى الحكم عليه . . . وفي سبيل معرفته ، لابد من تعقب الأصول التي نبت منها : فان معير الإنسان يختلف تبعا للبيئة التي نبت عليها ، وللأصل الذي انحدر منه ، ولقدر مكتوب لابد لمعزيمته من أن تستمد منه القوة والهدف . . . فانتم يامن تنتمون إلى سلالة أناس أشراف : وياين استقم أسرات عريقة ، يجب أن تنصنوا إلى تاريخ أسرة عريقة قبل أن تنطقوا بحكمكم ! . وما كان في وسع أولئك الريفيين القادمين من السهل والجل ، والذين نالت منهم هيئة المحلفين . . . ما كان في وسعهم — بحكم طبيعتهم وتفكيرهم — أن يظلموا ببناء عن النائر بهذه القصة الإنسانية الواقعية التي هزت حقيقتها عقولهم هذا عنيقا . . . وهكذا انطلق السيد روكيار يروى تاريخ أسرته الطويل : فلقد غرس الجد الأول — حين أرسى أول حجر في أساس البيت العتيق — جذور شجرة حياته ، في الأرض التي صارت موطننا لأسرته . وراح الشيخ يبرد تاريخ جهود الأجيال المتعاقبة ، والعرق الذي سكب على الأرض المستصلحة . والحوادث التي تعرضت لها والتي تسببت في تلف المحصول نحت وطأة الصقيع ، والقناعة التي كانت تثقل القليل في رضى ، والاقتصاد الذي كان يعيد طريقا للمستقبل على حساب المتعة الشخصية والذي يعتبر مثالا للتجرد من المصلحة الخاصة وينطوى على ثقة في الذرية المقبلة . . . هكذا سارت الحال في المزرعة الجيلة ، التي كانت كرومها



وغاياتها وحقوقها ومراعيها تفتت محصولا لا يتحمل فيه الذاب والاقتصاد والصبر على المشاق التي ناعت بها سلالة باكملها كانت تسير في الطريق المستقيم كالذوذة الباسقة. إن الأرض المزروعة تتخذ شكل الوجه البشري. فنحن حين نتطلع إلى ممتلكاتنا إنما نتأمل وجوه أجدادنا !

ومع كل هذا ، فما الثمار التي أجادها العمل الذي اشترك في أدائه آل روكتيار .؟ إن الأرض التي كانوا يمتلكونها . بانثت اليوم ملكا لخصمهم الذي استولى عليها بلا مقابل . أمكان كد آل روكتيار وكفاحهم زهاء خمسمائة عام . من أجل أن يقدموها هدية .؟ لا ، إنما هم انفقوا بالمرث — الذي كونه بالجد والعناء — آخر سيل من ذريتهم . فمن الخاسر . ومن السارق .؟ إن السيد فرازن — في مقابل مائة ألف غرنك اخفقت — تقبل أرضا مساوى ضعف هذا المبلغ . فمن الذي أثرى ؟ ومن الذي فقد ثروته .؟ فاسلم الأموات الذين دفعوا الفدية ، يجب أن يبرا التهم !

ولكن ، ليست الأسرة قوة مادية ضخمة . تتجلى — في ظاهرها — في توارث الأرض ، وتمكن بصلابتها وتماكيا من المساهمة في تسديد ديون جزء منها بتمرة أعمال الجزء الآخر ! . ثم ، ليست هي كذلك شيئا آخر ، أقل مادية وأكثر قداسة ليست سلسلة متينة من التقاليد ، ومن الشرف المتوارث . ومن الشجاعة والفتنة .؟ فما جدوى تناقل الحياة من جيل إلى جيل ، إذا لم يكن من أجل احاطة هذه الحياة بإطار يليق بها ، يثبت في مؤازرة الماضي ، وفي تهيئة مستقبل مشيد على أسس وطيدة .؟ ذلك لأن تناقل الحياة تمكين للخلود !

ثم أخذ يروى الأعمال العظام ، وما كان آل روكتيار من وجود نافع كان يرقى أحيانا في نفسه إلى المجد .؟ . ذلك كبير المشيرة : وافته منيته وهو في مقر عمله أثناء وباء تولى إدارة المعركة ضده . . وذلك آخر أشرف — فيما بقى — على إدارة بلدة ( شامبيري ) أثناء فترة من القلاقل والاضطرابات ، غانقذ ملبتها من أخطار كانت محدقة بها . . وهناك من كانوا منهم رؤساء أثناء لمجلس أعيان ( مسافوا ) ، ومن كانوا جنودا ماتوا وهم يقاتلون الأعداء في حروب طلعنة . . كانوا جميعا — سواء من ليسوا منهم أوشحة المناصب المدنية ، أو من ارتدوا الثياب العسكرية — يحملون نفس القاب الجريء الباسل الذي طالما خفق بين جوانح الأجداد الأتقيين . . وكان هوبير آخر الجميع . . هوبير الذي لفظ أنفاسه في خدمة الوطن . وحيدا ، بعيدا عن ذويه ، في أرض عدوة ملتهبة . وقد عبر عن رغبة الأسرة فيما كتبه ، قائلا : « إنني أجود بحياتي من أجل شرف أسمتا ، ومن أجل خلاص أخي . . . » فهل في وسع امرئ أن يرفض هذا القربان وينسى القربان السالفة ، التي تشهد بالفضيلة المتجددة في الأسرة عبر القرون دون انقطاع .؟ إن مثله في ذلك مثل النيران : تظهر الحقول من الأعشاب اليابسة في الأمسيات !

وهكذا التقى الشيخ في الميزان بغضائل الأسرة ، فرجع الكفة . وراح جيش الأموات ، الذي هبط بالأمس من مزرعة البرج وانتشر في الوادي الصغير خلال القمة لينضم إلى زعيمه الذي كان واقفا إلى جوار شجرة البلوط على هضبة ( سان كاسان ) . راح هذا الجيش يملأ قلبه وكلمته في أرض عسكري !

وتحول السيد روكيار بضيق إلى فضائل الأوت ،  
فضائل الأحياء ! فما كانت الساعة ساعة نواضع وإخفاء للحياة  
الخامسة : غنى مستشفى هانوى كانت غيليسى تثبت جدارة  
لا تقل عن جدارة اخنيها اللتين ارتضيتا الفقر لتمحيا عن  
اخيها مجرد شبهة الاختلاس . . إذ أن المبلغ الذى دفع إلى  
السيد فرازن لم يكن - وما كان من الممكن أن يكون في نظر  
الأمرة والقضاة - سدادا لمبلغ أو اعترافا بجريمة ،  
وإنما هو دحض قاطع لاي اشتراك في الذنب . ولو  
عن جهل أو غير قصد . . واعتذر المحامى الأب عن  
اسبابه في تعداد هذه الخدمات الكثيرة ، فقد كان في تعدادها  
تائب لخصومه على جحودهم . . منى الجانب الآخر من  
القاعة - جانب الخصوم - اناس لم يفسوا هذه الخدمات  
فحسب ، بل إنهم لم يتورعوا عن اتخاذها ذريعة للتحامل على  
المتهم ، إذ كانوا يريدون أن يتسللوا إلى الماضي عن طريق المتهم  
المرعوم ، وأن يتخذوه معولا يحطمون به أمجاد هذا الماضي  
العريق ، وأبوا في شئ من ظالم أن يبقوا عليه ليكون حصى  
للمتهم . . على أن فضائل أية سلالة تظل تحميتها ، إلى اليوم  
الذى تتكالب فيه المثالب فتجرعها ، وبذلك تكون السلالة قد  
اختارت سقوطها بنفسها . . ولكن ، ماذا الذى يجرؤ على  
الزعم بأن سيل المثالب قد جرف آل روكيار ؟ أجل ، إن  
الأوت قد قدموا لآخر سلالة روكيار ضامنا ادبيا ، كما قدموا  
له ضامنا ماديا تمثل في النصيحة بالزرعة . . وإن - فان يحكم  
قضاته بإدائته - ولو كان مذنباً - دون أن ينجوا على العدالة !  
ولكن « كيف يمكن أن يكون مخنبا ؟ وكيف استطاع سليل

أمثال هؤلاء الأشراف أن يتحول في استسلام إلى مجرم ؟ وأية  
قلة قاطعة تقدم على جرمه ؟ . . أى وزن لهذه القرائن الهزيلة  
- التى ساققتها المصادفات ، وجسمها تأويل الظروف - أمام  
قرائن أدبية ومعنوية تمسك من بيئته العائلية في تدفق ميناء  
الميل ؟ . . أهى مفاتيح المكتب ؟ لقد تداولتها يد بعد يد . .  
أهى الأرقام السرية ؟ وكيف بحث عنها المتهم ، وعثر عليها ،  
وعبرها . . ومتى سجلها الكاتب فيلبيو في فكرته ؟ . . أم هى  
الحاجة إلى المسال ؟ لقد دفع المتهم جميع النفقات الرئيسية  
والقانونية التى تكبدها في رحلته ، إما من المال الذى حمله معه  
والذى أثبت التحقيق هنا حسابه ، وإما من المال الذى تلقاه  
في « أورتا » . . وقد شهدت بذلك أوراق حساب الفندق ، التى  
تسنى الحصول عليها . . فما الذى فعله بالمائة الف فرنك  
إذن . . مادام قد دفع جميع نفقاته من المبالغ التى أمدته بها  
أمرته ؟ وإذا كان قد أودعها مكانا ما ، كما أشير في معرض  
التلميح . فلماذا عاد وسلم نفسه ليسجن ، بمجرد أن علم  
بالحكم الذى صدر عليه غاييا ؟

لم يبق شئ من أدلة الاتهام قائما ، سوى شهوة انتقام لم  
تقو على أن تقاوم شهوة الكسب الاستغلالى . . إنها قضية  
نريدة في نوعها ، يستحوذ فيها المروق على مال مسارقه  
المرعوم . . وختم السيد روكيار مرافعته بهذه الكلمات :  
« لقد انتجت مرافعتى أيها السادة المحلفين - فباسم كل موتانا  
الذين يتألف من تعاقب ذريتهم شرغنا الحى على الدوام . .  
باسم الأرض - التى اكتسبتم في بطنها - والتى غلقتها جهود  
الأجيال المتعاقبة ، والتى تخليها اليوم لنا - بأننا لنندعم

هذا الشرف ! — اسألكم أن تردوا على ابني .. أعيدوه لي .  
لا بدافع من الشفقة ، وإنما بدافع من العدالة .. ولا كبتة .  
وإنما كحق تقررته بالإجماع . إن عشريني كلها ، وأنا معهم .  
لبراعته لضمانون ! » .

وجلس .. ولم يكن قد قضي في الكلام أكثر من ساعة .  
وما إن تالشت أنغام صوته العذب الهاديء . — الذي ظل محتفظا  
طيلة الوقت بقوته ، حتى خيم على القاعة صمت دام بضسع  
لحظات ، له ما لصوت الكنيسة من وقار قدسي ! .. فبدلا من  
نورات الغضب المبردة التي كان الجمهور يتوقع سماعها من  
المحامي الشيخ الذي عرف بجماسسته الدائقة . ردا على  
الجهات المسومة التي أشغها السيد بورقريو .. وبدلا من  
إنارة غبار الفضيحة ، وإلقاء التهم الملصقة بالمشيق على  
المشيقة .. بدلا من هذا وذاك ، سمع الجمهور دفعا كريما  
مترفعا . تسامى على السباب اعتدادا منه بقوته . وملك  
خطوطا بسيطة مستقيمة أثارت إعجابا كذلك الذي تثيره  
النمايل الجادة . الرقيقة ، التي تظهر الرغبات من دنسها  
وتضطر النفوس إلى أن تخضع لأهلها .. كل ذلك ، دون أي  
ذكر لاسم مدام غرازن !

وفجأة ، انبعثت صيحة مدوية : « عاش آل روكفيار ! » .  
وكانت « لافوشوا » هي التي بعثت هذه الصيحة . من ألسنتها  
قلبيها . وإذا الجمهور المكبوت المأخوذ بضجج بالتصفيق ..  
وبينما كان الرئيس يهديء هذه الجارية — التي اضطرت السيد  
لإستئثار إلى أن يهرب من القاعة في ضيق — اتحنى الأستاذ  
فألبروا من جديد على السيد باريه ، المحامي العام ، الذي طلب

الكلمة بعد أن تحنى السيد هاميل عن الكلام ، معتذرا لعدم  
استعماله حق التعقيب بعد أن تحنى عن حق استهلال الدفاع  
.. وما لبث السيد باريه أن قال للمحلفين : « لقد سمعت مثلكم  
رأفة الأستاذ روكفيار .. لا ، ليس المذنب هذا الشاب الذي  
ستعدرون حكمكم في أمره بعد دقائق .. بل إن المذنب غير  
موجود هنا . وما دام المتهم قد أوتى من الكرم ما جعله ينأى  
عن الإشارة إليه ، مانتي بدوري أتجنب الإشارة إليه كذلك ،  
رلكنني استنكر التدبير البار الذي انتزع به الاتهام العطف من  
قلوبنا ، متخذا من مصائبه الشخصية سبيلا لإنماء ثروته .  
فبادروا إلى تبرئة مورييس روكفيار ، وردوه إلى أبيه الذي  
يتمثل فيه شرف مهنتنا . وإذا كان المتهم قد ارتكب في حياته  
الخاصة ما يؤخذ عليه . فمن الواجب ألا يطول حبسه بتهمة  
سوء استعمال الثقة ! » .

وبدا النهار في الانصرام ، مسلها القاعة إلى ظلمة المساء  
المتكاثفة . وانسحب المحلفون ليتشاوروا فيما بينهم ، وسرعان  
ما عادوا ليعلموا إجماعهم على البراءة . وإذا ذلك صاحبت  
جان ساسيني بصوت جهر : « برافسو ! » .. وتمت  
مرجريت في هدوء : « آبي .. لسوف تهنا آبي ! » .. وانصرف  
الجمهور وهو يتبادل التعليقات . أما السيد لاتاش — الذي  
كان يتكلم بتحمس مع فريق من الناس — فقد راح يهز رأسه  
في انفعال صارم ، وهو يقول : « إنها صفقة للسيد غرازن .  
وعليه — بعد التائب الذي وجهه إليه النائب العام — أن  
يعفى أعمال مكتبه ، ويغادر البلدة » .. فقال السيد باييه :  
« لسوف يبيع المزرعة ثانية »

الموثق كولانج - فقد كانت تبدى السرور استشارة لمرافقها ، وقالت تعالين : « ولسوف تكون ابنة ساميناي هي المشتري » فان لديها صداقا ضحها . اترك لاحظت تلك الابتسامات التي وجهتها إلى الشاب المعتقل . . إلى المنتصر ؟ لسوف تزوج منه ! . فعقب السيد كولانج على قولها مكتئبا : « أجل » هذا ما سوف يحدث ، لقد كان الحظ دائما حليف آل روكيار ! » .

## ٩ - قوة الحياة

عجلت الرغبة الصادقة - التي أبداهها رئيس محكمة الجنائيات - بإجراءات إطلاق سراح مورييس ، وبينما كان الجمهور الذي غادر القاعة يتجمع أمام دار القضاء ارتقبا لخروج المتهم ومحبيه ، ليحييهما في حرارة بالغة - اذكاها تبيكت الضمير الذي ثار متأخرا ! - كان السيد روكيار ينظر ابنه في البهو الداخلي وحيدا ، إذ عهد إلى شارل مارسيلاز باصطحاب السيد هاميل . وما ان انتهت المعركة ، حتى احس الشيخ بوطاة التعب والإعياء ، واستغرق في تأملاته . وإذا بصوت يناديه في استحياء : « أبت ! » . فنهق : « هذا انت ؟ » وبدلا من أن يرتدى كل منهما في احضان الآخر ، ظلوا واقفين بلا حراك ، وكأنهما سمرًا في موقفيهما ! . كانت أول بادرة تصدر من أحدهما - دون روية - في مثل هذه الظروف ، كافية لأن تخلق النفور والعراقيل ! . وقرأ الأب على وجهه نفسه امارات الإعجاب والعرفان وحنان البتوة . . وقرأ الابن على وجه أبيه علامات الحب والطيبة ، ودلائل الالم المرح الناجم عن الإعياء والشيخوخة - وسادها صمت اليم لا يقبل لهما

باحتضاله . . وكانت الهفافات تتعالى متويدة في الخارج . وفجأة ، قال السيد روكيار : « تعال ! » . واقتاد مورييس إلى حديقة عملة خلف المبنى ، كانت إذ ذاك خالية من الناس - لصحن الحظ - ثم اجتازا القنطرة الحديدية القائمة على مجرى ( اللييس ) ، والتي كان الماء العكر يجري تحتها . . حتى بلغا المقابر ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة !

وكانت مدافن ( شامبيرى ) تقوم في شرق البلدة ، عند مدخل السهل الفسيح الممتد إلى بحيرة ( بورجييه ) ، يطل عليها تل ( لينك ) الصخري ، يعقبه جبل ( نيفوليه ) ذو الطبقات المتدرجة . وكان الظلام قد خيم على الحقول ، وأخذ يمتد إلى الهضاب شينا فشيئا . ولكن السنة شمس الغروب المعتقة كانت تحيط بالجبل ، الذي دبب الحياة في لونه الأبيض وكانها سرت فيه دماء ! . . كان لامسيات الشتاء الباردة ، الهادئة - التي تبدو وكأنها صيقت من رخام - جمال ذو نقاء قدسي ! . وتبين مورييس - في مواجهته - أعمدة هضبة ( لينك ) ، التي اجتأح الحب قلبه فوقها . . وتلكأ شمع آخر ليبدى معالم الهضبة ، ثم لاح كأنها كانت الهضبة تاوى إلى المعبد الصغير ونفيس فيه ، نهس لنفسه : « ما أبعد العهد بالذكرى ! » .

واجتاز الأب وابنه أشجار الصبار ذات الفروع الصلبة كأنها الحراب ، وقد كساها الصقيع ، وبدت مهيبة كأنها حراس يسهرون على المنطقة . وكان الدرب المزدوج ، المؤدى إلى المدافن الخاصة ، يمتد خلف قبور الفقراء التي كانت تشير إليها مرتفعات من الأرض لم تكد تبو تحت الجليلد . . وتهم مورييس أخيرا ، وهو يفكر في أمه : « كنت أترك بابن إلى أين

تقصّد .. فقال السيد روكفيلار مؤمناً على قوله : « إنما نسعى إلى مقبرة الأسرة ، لنشكر للأموال أن انتقذك ! » .. نهتف الشاب : « بل أنت الذي انتقذتني يا أبى ! » .. ولكن الشيخ قال : « إنما كنت أتكلم باسمهم ! » ..

وما أن بلغنا مدخل المدافن ، حتى لحنا شبحاً أسود جاثياً على حجر أمام حائط ملئ بالثقوش . نهتف الشاب : « ها هو ذا القبر يا أبى .. هناك إنسان ما » .. فأجاب الأب : « أنها مرجريت .. لقد سبقتنا » .. وتناهى إلى أذن الفتاة صوت نخطم الجليد تحت أقدامهما ، فالتفتت . وما أن تبينتهما حتى تفرج وجهها ، ووقفت جامدة وكأنها خشيت أن تعكر عليهما اللثام شملهما . وما لبثت أن قالت : « جئت أزور أمى ! » .. فقال الأب مترقفاً « امكنى ! » ..

وكان المساء قد أطبق على حواف جبل « نيفوليه » ، فلم بعد يبدو سوى الجليد المتراكم على طبقاته العليا . وأخذ النور ينسحب في انسياب سهل كأنه جدول من ذهب أو أرجوان . وبعد إشرافة مريضة رائعة ، صعد الظلام المظفر عبر الطبقة الأخيرة من الجبل ، واحتل القمة . وكان في صدر المدفن حائط منقوش ، حمل لقباً واحداً ، هو لقب الأسرة ، وتحت أسماء عديدة وكثير من التواريخ ، وقد حف به سبع ناضر ، ذو فروع خضراء ، انحنى متقارباً بعضه من بعض كنج من تيجان الربيع ! وقال السيد روكفيلار - الذى بدأ وجهه في نفس ما كان عليه من صفاء في الجلسة : « انصت ! .. ها هو ذا الليل ، وها هي ذى ساحة الموتى ! ومع ذلك ، فأتك لن تسمع في أى مكان آخر على الأرض اقوالاً عن الحياة أقوى مما تسمع هنا ! ..

تأمل .. قبل أن يخيم الظلام .. ها هو ذا الأفق الذى يفضله تلك ، يحيط بك .. وها هي ذى أسرته تهجع مستريحة ! .. وجثا موريس .. وما أن تذكر تلك التى رحلت دون أن تودعه ، وذلك الذى قدم حياته قرباناً من أجله ، حتى أخفى وجهه في راحتيه . ولكن أباه لمس كتفه ، وقال بصوت حازم : « إننى أصبحت شيخاً يا بنى ، ولسوف تخلفنى عما قريب ، فاصع إلى في هذا اليوم الذى يدعونى فيه الواجب أن اتحدث اليك : إن ما تراه هنا هو الصورة الباقية .. وأن تهجد الموتى لو لب مصيرنا الخالد . فما قيمة حياة امرئ ما ، بل ما قيمة حياتى أنا ، إذا لم يخلع عليها الماضى والمستقبل معناهما الحقيقى ؟ لقد نسيت أنت هذا المعنى حين انتقلت لاهوائك الشخصية ، فما من مصلحة فردية يمكن أن تكون جميلة ، وما من مجد إلا في خدمة المجموع . يجب أن يخدم المرء أسرته ، ووطنه ، واهله ، والفن ، والعلم ، والمثل الأعلى . وبالعالم من لا يخدم سوى وطنه ! .. وأنت : لقد وجدت فينا سندك ، ولكك تبينت أيضاً الا استقلال لك عنا .. إن شرف الإنسان وكرامته ، في قبوله لهذه التبعة ! » ..

ولمح موريس - وهو ينهض - الشفق الراحل عن ( كالفردى لينك ) ، فتمتم لنفسه في أسى : « والحب ؟ » .. وكانوا قرا أبوه ما كان يدور بخلد ، فقال : « ما أضال الفارق الذى يفصل أحياناً بين الرجل الشريف والرجل الخسيس . والحب هو الذى يزيل هذا الفاصل بين الرجلين ، في حين أن الأسرة تعزده . ومع ذلك ، فليست أمحب الحب - حتى في هذه الساعة - لو أنك عرفتني موريس ! » ..

إنه العزاء الذى يواتينا برغم المحن .. هذا هو الحب ، غصته  
 فى مؤاذك ، لأنه ملك لك ! .. وسوف تجده فى جلائل الأعمال ،  
 وفى الصمود للطبيعة ، وفى خوض مصيرك دون خوف أو  
 وهن ! .. وقبل أن تحب امرأة ، فكر فى أمك ، وفكر فى  
 شقيقاتك ، وفكر فى السعادة التى قد تكون مدخرة لك ، إذا  
 ما رزقت ابنة وعكفت على تربيتها ! .. لكم اغتبطت أنا عند  
 مولدك — كما ابتهجيت عند مولد شقيقك وشقيقاتك — فعملت  
 على حمايتك بكل قواى . وإنى لأذكرك بأنك ستشعر عند موتى  
 كأن جدارا قد انهيار ، وتركك أمام الحياة وجها لوجه . وإذا  
 ذاك ، ستفهمنى خيرا مما تفهمنى الآن ! » .

وتمتم موريس وقد تهذجت أنفاسه لفرط الانفعال : « أغفر  
 لى يا أبتاه .. لسوف تجدنى أهلا للانتماء إليك ! » . فلم  
 يرد السيد روكفيار على أن قال ببساطة : « يا بنى ! » .  
 وما أن رأتها مرجريت — وقد تأبط كل منها ذراع الآخر —  
 حتى تذكرت الأمانة التى طالما ساررت أمها !

وفى السماء التى كساها الظلام ، وفى اتجاه المزرعة ، بزغ  
 أول نجوم المساء ، مثاقفا . ورأى السيد روكفيار — وهو يضم  
 إلى صدره ابنه الضال الذى عاد إليه .. آخر ابنائه .. ابنه  
 الوحيد — رأى فى النجم بارقة أمل !

وفى المقبرة المعتمة — التى جاءها ردا لزيارة موتاه له  
 بالأمس — وعلى الرغم من شعوره بأن منيته هو الآخر باتت  
 وشيكة ، فقد عزز رب الأسرة ثقته فى الحياة !



## مطبوعات كتابي إصدار جديد

### عزيزى القارئ :

هذه الرواية التى بين يديك تمثل لوئاً من الأدب الواقعي المعاصر ، الذى تحس وأنت تقرؤه - بريح الصدق والواقعية الصارخة تهب عليك من خلال سطورهِ ، وكأنك تعيش مع أبطال الرواية ، فى الجو الذى يعيشون فيه . وتعاين الانفعالات التى يعانونها ، وتتألمك المشاعر التى تتألمهم . وتضطرب فى محيط الحياة التى يضطربون فى غمرتها .. بل إن فى بعض مواقف القصة ما يملك عليك مشاعرك إلى حد تنسى معه أنك تقرأ أدباً مفترضاً أنه من نسج خيال مؤلفه ، فتخال أنك تعرف هؤلاء الأشخاص الذين تتلاعب أحداث حياتهم بمواقفك ، فتأسى لأحزانهم حتى لتتحدرد دموعك من مآفك مشاركة لهم . أو تفرح لفرحهم وكأنك أنت من أصابه الحادث المفرح ! .. أو يخفق قلبك حباً لمحبيهم . فتحس بنفسك قد رُدت إلى شبابك الباكر رداً عنيفاً لا هوادة فيه .. وإذا أنت مستغرق فى أحلام الهوى ، وأوهام الشباب ، ونزوات الحب الطائش الذى أنسى بطل الرواية كل اعتبارات العقل ، والاحتكام إلى الضمير ، والإخلاص للصدق أو الأهل والأقرباء .. بل الإخلاص للذات ، ولو بغية حمايتها من التردى إلى الهاوية التى تصل إليها فيها يد القانون وسطوته الباطشة !

على أنى لن أسترسل فى التحدث إليك عن موضوع هذه الرواية الجبارة ، أو عن أسلوب مؤلفها الذى بلغ حد الإعجاز فى التوفيق بين النقيضين : بين الواقعية فى تصوير المواقف والانفعالات ، وتحليل المشاعر والنزعات .. وبين الإبداع والدقة فى وصف الأشياء والمناظر والمرثيات ، إلى حد يرفعه إلى مستوى « رومانتيكية » لا مرتين وشانوبريان ، وإلى دقة « ديكنز » أعظم أديب اشتهر بالوصف عند الإنجليز !

والآن أتركك لتستمتع بقراءة الرواية بنصها « الكامل » !

مأمي مراد